ELENA Book

روايـ

قصاص

«الرعب لا يفترس الأبرياء»

ELENA Book

منى محمد جان

ELENA Book

قصاص

ELENA Book

تم إعداد هذه النسخة بواسطة:

إيلينا

https://t.me/osn_osn

CLICK HERE!

Elena book

للجروح المهملة

قال تعالى:

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}

سورة البقرة- آية ١٧٩

صدق الله العظيم

"كالريح تَعْصِفُ بأغصانٍ جرداء،

كل ما تُحركُه هو الموت..."

-١-

ها هو ذلك الصوت الحيواني ذاته يصل إلى مَسمعي مُرتحلاً صوب فؤادي مُصيباً إياه باللمم والعجز، هذا الأنين الشهواني الحيوانيُّ، كالصدى يصرخُ لي من مكان خفي: أنت لست برجل! هو كالجاثوم على روحي يَخْنقها كل ليلة، آه كم أتوق لتلك الليالي التي تنزف فيها دماً! حينها وحينها فقط لا ألعن الظلماء، أو أبغض النجوم، أين تلك الليالي البدرية حين لا يتلون الليل إلا بالسكون؟ ولكن لحظة! أفق يا صاغِر! الليلة ليست دُجىً، بل هي بدرية كما كانت البارحة، فلِمَ يتغنّ ليلُك بهذا الأنين الداعِر؟ عدا أنه ليس كذلك! ورغماً عني وعن عقلي الذي يعلم أفضل من تتبع الفضول، اندفعت للباب، ضاغطاً على أذني للسمع أسترق.

منذ أن أبصرت عيناي الدنيا، ولوقت أطول مما أذكر، صاحَبَ هذا الأنين ليالي، هو معزوفة حياتي، لحن بؤسي، أنا أحفظه عن ظهر قلب، أعرف كل شهقاته، زفراته، وسكناتِه.
بقلب مثقل أستمع وأرتقب، عدا أن اللحن نغَمٌ مختلف، هو عواء وصِبٍ، هي زفرات ألم، وسكنات مصحوبة بشهقات باكيةٍ لاعنة.

تراجع صاغِر! اقهر فضولك وعد مستتراً تحت دثارك، فلا خير يأتي من تتبع الصوت، أنت أعلم بهذا، تَذَكَّر تلك الليلة، تذكر الصفعات، الركلات، والشتائم التي انهالت عليك، كما تلك اليد تجذِبك وتخضِعك أسيراً أسفل ذلك الجسد، كدت لِتُقتل آنذاك، كنت لتمسي تحت الثرى، انسحب الآن صاغِر وانج بحياتك، فلا حظ يصيب التعيس مرتين.

إلا أن الأنين يمتزج بصراخ مكتوم الآن، ماذا لو أن أحدهم يقتلها؟ ماذا لو أنها تقاتل بحياتها للنجاة؟ لعلها تحتاج رَجُلَها لإنقاذها، علها تتمنى الاستنجاد بي، إلا أن حبها لي وخوفها علي أعظم من وزر حياتها، لذلك هي تُخرس صوتها وألمها، هي مستعدة لخسارة حياتها ولا أن تفقد ابنها الذي من أجله تتحمل هذا الذل، هذه القذارة، وكل قباحة الحياة، تلك هي والدتك يا صاغِر، مَن تعاني أوجاعها بصمت من أجلك.

لأول مرة تنتفض النخوة بي ، يرتعش جسدي بقوة ، أنا الرجل ذو الثلاثة عشر من عمري انطلقت دافعاً الباب بقوة ليصدي دوي صفعه للجدار في الأرجاء كما لو كان زئيري الذي ينبئ العدو بقدوم قوة لا مرد لها ، قوة الحماية والمروءة ، سوف أصون والدتي هذه المرة،

سأدفع أي رجل فوقاً بعيداً عنها، وأجذبها لتحتمي خلف ظهر ابنها، فلا تطالها حتى نظرات الذكور الدنيئة، ثم سأجد عملاً يلائم رجلاً فتيّاً مثلي، حتى لو عنى هذا أن أكون صبيّاً في بيوت أثرياء جدة، أن أكدح ليل نهار، لا يهم، سأنتشل والدتي من هذه الحياة البائسة، سوف أحميها، وأصونها طيلة حياتها فأنا رجلها، ومحرمها.

كل هذه الأفكار العاصفة داخل عقلي دفعت بي لأسرع من غرفتي صوب تلك الحجرة التي يُحرّم عليّ الاقتراب منها، وبسرعة كما سخط مَلأ روحي صفعت الباب بقوة، ولفاجعتي كانت الحجرة مظلمة، هادئة، بلا ضوء قناديل ذليلة تضيء أركان الحجرة البائسة، ولا السَّهَك المنفرة التي غطت أرجاء الغرفة وخارجها أحياناً، تلك الرائحة التي كانت مزيجاً بين عطر فاتنٍ حد الخطيئة وعرقِ ذكرٍ فاسق. إلا أن الأنين لم يَزُل، هو يتعالى، أشحت بناظري صوب بيت الماء، وعلى خلاف اللحظات التي سبقت صفعي للباب، تلاشى اندفاعي، لتثقُلَ قدماي وبخطوات كادت تكون أبدية سرت مثل الحالم حيث الصوت، حيث أعلم أنها تكون، وبهدوء وجسٍ فتحت الباب ليتسلل ضوء مكتوم عبر الشق الذي ظل يكبُر، وبخوف هو رفيقي منذ وجِدت ، أدخلت رأسي من بين الباب والجدار ، لأجدها

على الأرض قابعة، في هيئة وصورة حفرتا في ذكرياتي حتى النخاع. اتخذت لها فوق الأرض الرملية مقعداً، مشمرةً عن ثوبها البني الباهت حتى خصرها، مباعدةً بين ساقيها وفخذيها التي تقطرت بالدماء ، لقد سالت دماؤها حتى أغدقت الأرض أمامها، في يدها الدامية دفعت داخلها عصًا غليظة قطرت الدماء منها، ثم شهقت أنيناً مبحوح الصوت، ودفعت بكامل جسدها للأمام تنتفضُ ألماً، ليهوي شعرها الليلي الأسود على كلٍّ من كتفيها مدثراً إياها كستار احتضنها، دفعت بالعصا لداخلها أكثر لتطلق صرخة تردد صداها على الجدران الخرساء، ثم قبضت بيدها المنقوشة قبضة من الرمال التي غطت الأرض كما لو أنها تدفع بشيء من ألمها صوب هذه الرمال، التي تفتتت منسلة من بين أصابعها الدقيقة، وفيما قذفت برأسها للخلف من وصبها، تطايرت دموعها وعرقها هاوية على الدماء المندلقة، لتضطرب الدماء قليلًا قبل أن تبتلع شهادة ألمها، وقبيل أن يتأرجح رأسها كاملاً للخلف التقت عيناي بعينيها، ومن بين كل العذاب التي كانت تُنكله على نفسها رأيتُ شرر السخط يتطاير من عينيها.

شعرت بقطرات العرق الباردة تنزلق على ظهري المرتعش، بالدماء في جسدي تسكُنُ ، ونبضات قلبي تقرع طبولاً في أذنيَّ ، وقبل أن أدرك

أي شيء، إذا بها تقتلع العصا المغروزة داخلها، وتقذفها صوبي، ولأني بليد لم أبتعد بالسرعة الكافية، بل لم أجفل حتى عندما استقرت العصا على رأسي الذي تلطخ بدمائها، إلا أني ترنحت للخلف لأهوي على الأرض أما بصري فقد غشي عليه باللون الأحمر، وبصوت ساخط مبحوح صرخت:

ـ أيها الذليل الفاسق، أتستمتع بالنظر إلى عورةِ والدتك؟ اغْرُبْ أيها البائس فأنت مثلك مثل عشيرة الذكور كلها، لا يهمكم إلا إفراغ شبقكم على امرأة ما، اغرب يا صاغِرِ يا أحقر من كلب الطريق.

انتفضت من الأرض مسرعاً، أُسابق الخطا صوب حجرتي، بلا أفكار تعبث بعقلي، بلا أوهام تصورني رجل أمي وسندها على شقاء الحياة، فما أنا إلا صاغِرِ أذل وأوهن من أوجدت الحياة.

-٢-

صوت ضحكات غَنِجَة تتلثم بالحياء، موسيقى العود والطبال ترتحل من ركن لركن ومعها تمايل الجسد متراقصاً مثيراً معه رجولة ذَكرٍ ما، ومع تسارع قرْعِ الطبال اهتز الجسد أقوى وأعنف، لينتفض الرجل نحوها كالمسعور يلف ذراعيه حول جسدها، ملاصقاً بدنه بها من الخلف، غامراً وجهه في عنقها لينسدل ذلك الشعر الليلكِي مُدثرًا الرجل خلفه فما ظهر منه غير جسده المتمايل تناغماً مع جسدها، لينتفض جسده مجدداً بسرعة وعنف شمر عن ثوبها حتى فخذيها.

لا تذهب صاغِرِ! لا تغرر بك الشجاعة فما أنت لما هو قادم بمتين، اهرب صاغِرِ! فما خلف هذا الباب هو ذاته هذا الكابوس الذي لا ينتهي، أدر ظهرك يا ابن السابعة، فما هو قادم بعد أول خطوة ذعر لسنا عليه بأشداء!

ها هي ذاتي الفتية تدفع الباب بسرعة، لينفلج الضوء صوب الظلام الذي وقفت فيه أراقب تكرار الكابوس مراراً بلا هوادة، أشهد ذعري يتربص بي من ركن عميق داخل عقلي، لأرتعد من صوت الصراخ القادم من داخل الحجرة، عدا أني توقفت عن النظر داخلها بعد هروب الضوء منها، فلستُ مُهتمًّا، ولستُ أنسى.

ثم انتفضت من فراشي بعد سماع صوت صفعة دوت في الأرجاء أو لعله هذا الألم الذي أشعر به نارًا بوجنتي ما أيقظني، لأفتح عينيّ على صورة والدتي بهيئة مختلفة عن البارحة، لعل ما رأيته مجرد حلم لا أكثر، إلا أن البغضاء من عينيها والحرارة التي أصابت وجنتي تخبرانني أن هذا يوم عليّ عسير.

ـ انهض صاغِرِ يا تعاسة وجودي، اجلب الماء للمنزل كما الرمال، وعندما تعود نظف بيت الماء واطمس الدماء بالرمال، لكن أولاً امحُ هذه الدماء من وجهك وبدل ثيابك الدامية، من يراك يقول إنك أنت من أجهض خطيئته البارحة وليس أنا.

رمت بقطعة قِماشية صوب وجهي، ثم سارت بخطوات مترنحة مُتثاقلة حيث باب الحجرة لتنظر لي شزراً من فوق كتفها، ومن دون إدراك مني طأطأت رأسي ناظراً للأرض، فأنا أعلم أن رؤية وجهي سوف تجعلها تَنْقَضّ عليّ بالضرب، إلا أنها لم تفعل.

ـ أيها الملعون الصغير، أكان من الممتع التلصص عليّ ليلة البارحة؟ هل باتت لديك عادة النظر إلى مفاتن والدتك؟ أتتلذذ مثل باقِي الرجال بالنظر إلى جسدي؟ يا لك من داعِرِ مثلك مثل والدك الفاسِق.

بدأ جسدي بالارتعاش بعنف، ليس من كلماتها أو لسانها الذي كان كحد السيف، لكن لأنها خطت نحوي، علمت أن الألم هو ما سيحل عليّ الآن، أحكمت إغلاق عينيّ هذه الطريقة التى اعتمدتها منذ تلقيت أول صفعة، لا أعلم لماذا فعلت هذا، كما لا أعلم إن كان فتح عينيّ أفضل أم لا، إلا أني لسبب ما فضلت الظلام على رؤية يدها تهوي علي. وضعت أصابعها الباردة على فكي وأحكمت قبضتها عليه لأشعر بألم أظافرها تغرز في جلدي، ثم دفعت برأسي للأعلى:

ـ انظر إلي يا صاغِر.

أطعت دون تردد، لأجد وجهها الشاحب قريباً مني، أنفاسها الزافرة تحرق الجلد على وجنتي، ونظرات السخط تكاد تصيبني بِمقتل:

ـ هذا تحذيرك الأخير أيها البليد، احفر هذا في عقلك جيداً، واحفظ ما أقوله لك.

نقرت بطرف سبابتها رأسي الذي تأرجح مع نقراتها الثاقبة عدة مرات.

ـ إن رأيت ظِلّكَ قريباً من تلك الحجرة مجدداً، إن وجدتُك تختلس النظر، لو شعرت حتى بأنفاسك تحوم حولي في الليل، أو تطفلت في أمر يعنيني مجدداً، لأنتزِعنّ هاتين العينين من مقلتيهما .

وجهت طرف سبابتها هذه المرة لعيني اليمنى وفيما اقتربت أكثر أغمضت عيني بشدة، إلا أنها فتحتهما قهراً عني بأطراف أناملها، لينتفض جسدي ذعراً، وتتساقط دموعي وجلاً، ثم وضعت سبابتها داخل عيني، وضغطت بهدوء على مقلتي، فإذا بيدي المرتعدتين تمسكان طرف ثوبها في رجاء، أما صوتي فقد خانني وهرب لداخل معدتي فلا صدى له يتردد.

ـ أتريد خسارة هذه العين؟

لم أجرؤ على الإجابة كل ما فعلته هو أني أحكمت قبضتي على ثوبها مجدداً، وشَهَقتُ شهقات خوف مكتومة، لتصرخ:

ـ أجبني أيها الغبي!

ـ لـ.. لـ... لا!

ـ ماذا؟! لم أسمعك جيداً! أتريد خسارة هذه العين الآن، لتتعلم درسك؟

ثم ضغطت بسبابتها مجدداً على عيني حتى حررت يدي المرتعدة من ثوبها واضعاً إياها على ذراعها بلطف ورجاء.

ـأرجوك لا، أنا آسف، أنا آسف، لن أفعلها مجدداً، أرجوك أمي أعدك أن لا أتلصص ثانية.

لكني لم أفعل، لم أكن أتلصص، أردت إثبات أني رجل فحسب أردت حمايتها، عدا أن كل منطق لي هرب من الخوف، جُلّ ما أرجوه هو الإبقاء على عيني، ألا يكفِي كل الصفات القبيحة التي أكونها لألصق بي لقب أعور؟!

نزعت أصبعها من على مقلتي إلا أنها أبقته على مقربة من عيني.

ـ اسمع صاغِر، أنت لست برجل، أنت لا تملك نخوة أو مروءة، أنت لا شيء من دوني، أتعتقد أنك تحميني؟ أنت لا تستطيع حماية أحد، فأنت أضعف وأذل المخلوقات، لماذا تعتقد أني أفعل ما أفعله؟ ألم أخبرك من قبل عن السبب الذي يدعوني للفتح بين ساقي للذكور؟

لقد فَعَلَت لقد أخبرتني من قبل، هو من أجلي أنا، من أجل أن تجد طعاماً يشبعني وثياباً تكسوني، إخوتي من أبي سرقوا كل ورثي ولا أملك صوتاً للمطالبة به، بالرغم من معرفتهم بوجودي إلا أن حياتي غير مرغوبٍ بها، في هذه المدينة وهذا الزمن لا يسمح للمرأة أن تطل برأسها خارج الروشان، فكيف لها أن تجد مصدر رزق لها ولنجلها؟

لذلك هي لم تجد حلّاً غير أن تقدم ذاتها للذكور تُمتعهم، ليجدوا رجولتهم معها، ثم يلقوا بضعة ريالات على الفراش، راحلين من المنزل قبل أن يجِفَّ عرقهم المتساقط على الملاءة.

لأن حياة الأرملة عصيبة، بلا عائلة هي سند لها، بلا أقارب يسترون عليها، فما كان لها إلا أن تضحي بنفسها من أجلي. لكم هي عظيمة أمي! لكم هي مِعطاء! "كيف لك أن تنسى هذا يا صاغِر؟ أنى لك أن تُسمي ذلك الحلم كابوساً؟ هو ليس كذلك، ما هو إلا شهادة تقدير لوالدتك، لهذا السبب تمنعك من التلصص، تمنعك الاقتراب من الحجرة، حتى لا يتكرر ذلك الحدث مجدداً، تذكر ذلك صاغِر، أنت لا شيء من دونها!"

وبعظيم الذنب الذي طغى عليّ خررْت أرضاً صوب قدمها أقبلها.

ـ لتغفري لي، أنا آسف، أنا حقّاً أحمق بليد، إذا ما زلت غاضبة مني فلتضربِي خطئي كيفما شئت، لكن أرجوك لا تكرهيني، لا تتخلي عني أنا لا شيء من دونك أمي، أنت كل الوجود، وأنا مجرد ذليل صاغر .

نظرت لوجهي في المرآة لأجده قد تغطى بالدماء، لا أذكر أن العصا التي أصابتني حملت كل هذا الكم من الدماء، لا يهم على أي حال عليّ الإسراع والانتهاء من مطالب والدتي، يكفي أنها أظهرت الرأفة لي ولم تؤذني لذلك عليّ أن أكون عند حسن ظنها بي. غسلت الدماء عن وجهي وبعد النظر مجدداً في المرآة وجدت أن جبهتي قد فُلِجت، الآن يبدو الأمر أكثر منطقية، هذا مصدر كل هذه الدماء، بالرغم من هذا لا أذكر أني تألمت من إصابتي، إلا أني نمت مثل الأموات ليلة البارحة.

اتجهت صوب حجرتي البالية مبدلاً بثيابي الدامية أخرى متهالكة ممزقة ثم مرقعة من كل مكان، ولأضمن إخفاء إصابتي ربطت الشماغ على رأسي كعِمامة هذه طريقتي فى إخفاء إصابات رأسي سواء التى تقدمها لي والدتي أو ينكلها عليّ باسل ورفاقه ممن تلذذوا بالسخرية من يُتمي أو هيئتي البالية.

تحت شمس ضحى جدة المليئة بالرطوبة الخانقة انطلقت لأداء مهامي، تصاحبني ظلال مظلات الدكاكين، وأصوات تحية أهل الحارة.

ـ أهلاً صاغِرِ كيف الحال؟

ـ صباحك جميل صاغِرِ، يبدو أنكم لم تقوموا بنشر الغسيل هذه الفترة.

قالها أحدهم ثم أطلق ضحكات فاسقة، ليشاركه من يلتف حوله من الرجال الضحك والهمز، فيما نكست رأسي مسرعاً الخطا والدماء داخلي تغلي، إلا أن خوفي منهم أكبر من أي غضب، وبآخر خطواتي سمعت همسهم القائل:

ـ آه هذه الغالية تعيد شباب كل من هَرِم.

ـ ليلة واحدة معها كفيلة عن عمر الرجل مع زوجته.

ثم تعالت أصوات ضحكاتهم الساخرة كما المتفاخرة، كل يحكي قصة ليلته مع أمي غالية، لقد صَدَقَ قولها، كل معشر الرجال قذرون، كم أتمنى لو أني لم أكن رجلاً!

ذهبت لخارج الحي حتى وصلت حيث الرمال النظيفة أو يمكن أن تكون نظيفة، فتحت الشُّوال الذي معي ثم بدأت أملؤه بالرمال حد التخمة، لأحكم عقد الحبال عليه حاملاً إياه على كتفي بكل يسر وسهولة، لم يكن من السهل على فتىً في الثالثة عشرة حمل وزر كهذا على كتفيه دون أدنى مجهود، إلا أن الحياة قد منّت على ببُنية ليست مثل أي بنية، فأنا عريض المنكبين بالمقارنة مع الفتيان من عمري وإن كنت رعديداً، يحمل هذا الجسد الهزيل عظاماً غليظة تغنيني عن وجود الشحم، كما أن قبضتي قوية أنا أعلم هذا جيداً فقد سبق لي أن قتلت قطة بلكمة واحدة من يدي، لتخر جيفة ميتة، إلا أني لا أملك من الجرأة الكثير لأجابه جنس الذكور، فآخر ما أرغب به هو مواجهة بدنية بيننا، يمكنني تحمل ضربات فتيان الحي فلقد خلق جسدي لتحمل الصعاب كما الآلام، أما عقلي البليد فقد صنع لأتجاهل كل ما عني يُقال.

محطتي التالية تكمن في جلب المياه بالرغم من أن "السقا" قد وضع كمية من الماء لنا في "الحب" الليلة الماضية إلا أنها لا تكفي لإزالة الدماء التى صبغت الثياب وفراشى، لذلك علىّ التوجه حيث "البازان" وطلب المزيد من الماء من شيخ البازان صاحب الكلمة التي لا يقطعها أي سيف ولا يثنيها أي رجاء.

بالرغم من أني أعلم الطريق للبازان إلا أني لم أجد الجرأة لأطأه من قبل، رأيت الفتية من عمري يركضون إلى هناك ببهجة وحماس، حيث يتجهون لسقا الحي ويطلبون أن يوصل الماء لمنازلهم، وبالرغم من أن السقا لم يغفل يوماً عن إيصال الماء إلا أن الهدف من الطلب كان لركوب الحمار الذي يجر عربة الماء للمنزل، كم تمنيت أن أركب حماراً مثلهم ناظراً لأقراني من مكان عالٍ، لأشهد الحسد في أعينهم لأني تمكنت من اعتلاء البغل. عدا أن البازان كان ومازال مليئاً بالرجال لقد كانوا غلاظاً، أشداء وأنا أمقت الرجال وأهابهم لذلك لم تجد قدماي الجرأة للدخول لـ لبازان، أما اليوم فعلي أن أجد شيئاً من القوة لإحضار الماء فإن كان الرجال يخيفونني إلا أن عدم إرضاء والدتي يحطمني. بقدمين متثاقلتين خطوت داخل ميدان البازان حيث الفسحة الكبيرة المحاطة بالمنازل وذلك البناء الصغير ذو النافذتين الواسعتين

حيث يجلس شيخ البازان العم زقر، حتى وأنا لم أقابله يوماً إلا أنه من كُبّارةِ جدة، هم الأشخاص ذوو السلطة ومن لهم رأي وفحوة بين كل سكان هذه المدينة.

بهدوء سرت مطأطئاً رأسي لا أرى أبعد من موضع قدمي، وبالرغم من تعالي الأصوات الصاخبة من الساقين يدخلون البازان وهم يصرخون بكلمتهم: "سرا" لأصوات الأطفال المتهافتين على الساقين يطالبونهم بإحضار الماء، وهنالك الأصوات الصادرة من الأكشاك المتناثرة في الأرجاء، كصوت الجزار وهو يهوي بساطوره على العظام محطماً إياها، أو صوت المطرقة تهوي على عجلات العربات المتهالكة، ومن بين كل تلك الأصوات برز صوت شيخ البازان هاتفاً:

ـ يا خليل لا تتقاعس في تعبئة الماء وعَجِّل، فهنالك الكثير غيرك، هذا إنذارك الثاني، والله إذا لم تسرع لأمنعنك من تعبئة المياه لأسبوع كامل، تحرك بسرعة.

وضرب بعصاه الباكورة على حافة النافذة ليصدر صوت مُهيب جعل كل من في البازان يتوقفون عن الحديث ويراقبون حيث الشيخ زقر ثم حيث المسمى خليل الذي سارع الخطا معتذراً.

شعرت بالخوف يتملكني، أيمكن لي التحدث مع هذا الحضور الأشيب الذي يخشاه الرجال البالغون؟

وما أنا إلا وجود صاغِرٍ واهن، وفي هلعي توقفت قدماي عن الحراك لأقف كالأحمق في وسط ميدان البازان، ليأتي الصوت الصارخ مجدداً:

ـ أنت أيها الولد!

انتفضت في مكاني إلا أني لم أتحرك أو أرفع عيني من مكانهما.

ـ أنت يا من تحمل التراب على كتفك!

فرقع صوت الباكورة مجدداً لأجفل رافعاً عيني حيث الشيخ زقر ولأني بطيء الفهم التفت يمنة ويسرة لأبحث عن الولد المقصود بالنداء.

ـ لا تلتفت! أنا أناديك أنت!

نظرت إليه في جزع ولأول مرة منذ وقت طويل، تلتقي عيناي مع عينَيْ رجل آخر، لأشعر برغبة عارمة في الهرب إلا أن نظرات الشيخ كما كل حاضري البازان كانت عليّ مما جعلني أشعر بالخزي من ذاتي.

ـ لماذا تقف في منتصف البازان أيها الولد؟ أنت تعطل السير، إذا لم يكن لك حاجة هنا فارحل الآن.

لم أجد الصوت في لأتحدث وطأطأت رأسي خجلاً، وفيما باشرت إدارة ظهري للبازان أتى الصوت منادياً مجدداً:

ـ تعال هنا يا ولد.

لأنصاع ذليلاً جارّاً قدميّ صوب الحجرة الصغيرة حيث يجلس الشيخ زقر، وعندما أصبحت أمام النافذة:

ـ لا تحجب عني الرؤية ادخل من الباب ودع عنك هذا التراب في الخارج.

وضعت الشِوال على الأرض بحذر لأدخل عبر الباب حيث شيخ البازان وكلي رهبة منه.

ـ اجلس.

فانصعت.

ـ ما اسمك؟

بصوت بالكاد يُسمع أجبت:

ـ صاغِر

ـ كم عمرك؟

ـ ثلاثة عشر

ـ ثلاثة عشر بهذا الجسد؟ والله حسبتك في الثامنة عشرة، اسم صاغِر لا يُناسب هذه البُنية.

سرت رعشة في جسدي متذكراً أحداث تلك الليلة المشؤومة، لا يمكن لذلك الأمر ذاته أن يتكرر ليس في وضح النهار بأي حال، ولكن كل الذكور سواسية، لعله يفتعل بي ما يشاء ولن يبالي بي أحد.

ـ إذاً صاغِرِ ما أحضرك إلى هنا؟

بصوت مرتعش أجبت:

ـ أرغب أن يحضر السقا الماء لمنزلنا.

ـ من السقا الخاص بحيكم؟

ـ العم رضا.

ـ دور رضا لسحب الماء يكون بعد المغرب والآن ما زلنا في الضحى، لماذا تُطالب بالماء الآن؟ هل انتهى الماء من منزلك أم أن رضا لم يحضر الماء لكم؟

لم أجب وصمَتُّ في خوف، أأكذب وأخبره أننا في حاجة للمزيد من الماء؟ لكن الشيخ زقر لا يقبل أن يأخذ أحدٌ ماء أكثر من الآخرين أو أكثر من حاجته، لقد عُرِف عنه أنه عادل، كيف لي أن أحضر المزيد من الماء من هذا الرجل؟

عندما طال صمتي هتف الشيخ زقر منادياً باسم العم رضا، كدت أن أطلق العنان لقدميَّ في مهرب، عدا أني لم أرغب في تخييب ظن والدتي أكثر مما فعلت، لذلك حبست أنفاسي وجعلت عقلي البطيء يفكر في حل لهذا الوضع.

ثوانٍ وأقبل علينا العم رضا يُحكِم ربط الفوطة المعقودة على وسطه، وبكل أدب كما احترام ألقى السلام على شيخ البازان.

ـ السلام عليكم عم زقر، ما الذي تأمرني به؟

ـ رضا، هل وزعت الماء لأهل حيك بإنصاف ليلة البارحة؟

رأيت الذعر يطغى على عينَيِ العم رضا الذي نظر إلي في توجس واضطراب، لأهوي بعيني للأرض مجدداً

ـ لماذا تسأل يا عم زقر؟ هل حدث مني أي تقصير أو أن أحداً من أهل الحي قد اشتكى مني؟

ـ أجبني يا بني، أخفت الله في توزيع الماء البارحة؟

اغرورقت عينا عم رضا بالدموع من سؤال الشيخ زقر، إلا أنها احتبست أبِيّة في عينيه، ليستل أنفاسًا طِوالاً.

ـ عمي زقر، أنت تعرفني منذ كنت طفلاً غرّاً أركب فوق الحمار الذي يقوده أبي، أنت عمي قولاً وفعلًا، فلقد كبرت على يدك أنت وكل السقاة الموجودين هنا، أنا ابن البازان هذا، والله ما ملأت قطرة ماء أو سكبتها إلا خفت الله فيها.

حل الصمت ثواني لأشعر بالدماء داخلي تغلي، خوفاً، خجلاً، وقهراً من ذاتي التي لا تجيد الحديث.

ـ والله ما شككت فيك يا رضا، فكما قلت أنت ابن البازان، ولكنها أمانتي أُسألُ عليها أمام الواحد القهار.

ثم أردف حديثه موجهاً إياه إليّ هذه المرة.

ـ يا ولد صاغِر، لقد صمت على سؤالي سابقاً عن تقصير رضا في واجبه، السكوت يعني الإقرار يا ولد، وفي هذا الصمت لقد قمت بظلم رضا، عليك التحدث ورفع صوتك والإجابة عن سؤال الكبار، ألم يعلمك والدك هذا؟

قال السؤال الأخير والسخط بادٍ على صوته، لأتقوقع على ذاتي أكثر، ليتدخل العم رضا بسرعة:

ـ عم زقر هذا الولد يتيم ليس له في الدنيا إلا والدته، لا يوجد من يعلمه مسائل الرجال، فلا تلقِ بالكثير من اللوم عليه، وامسح خطأه في وجهي هذه المرة.

ـ لأجلك فقط يا رضا لن أرميه خارج البازان، عدا أني أرغب بمعرفة سبب طلبك للماء قبل موعدك؟

آه! كم أتمنى أن تنشق الأرض وتبلعني الآن، لذلك أبغض التعامل مع الرجال هم دائماً ما يجعلونني أشعر بهواني على الناس.

نفد صبر الشيخ زقر:

ـ يا ولد ليس لدينا اليوم كله، تحدث بسرعة وإلا فلا ماء لك اليوم.

ابتلعت خوفي في جوفي:

ـ ليلة البارحة قمت بتحطيم فخار الماء عن طريق الخطأ، لذلك نفد الماء من منزلنا.

هذه الكذبة الوحيدة التي تمكن عقلي من نسجها بسرعة، وكلي رجاء أن يصدقها الشيخ زقر.

ـ وكيف تُثْبت أن الفخار قد تحطم؟ تذكر يا ولد أن الله يراقب كل شيء ويكتب كل حرف، فقبل أن تخشاني خَفْ من ربك.

ربي! لم يكن لي يوماً صلة بالله، لم أخفه دقيقة، لم تذرف عيني الدمع عند سماع آياته، أو عِظَمِ عذابه، لا أعلم لماذا لم تربطني صلة عميقة مع الله الذي يهابه الجميع، لم أسجد يوماً سجدةً خالصة له، لم أقرأ آيات كتابه حبّاً وطمعاً له، لقد فعلت ما فعل الجميع دائماً، ذهبت للمسجد عندما يصحبني العم عثمان فقط، صليت فقط بوجوده، قرأت القرآن لأنه يجب علي تعلم القراءة والكتابة لا أكثر، كيف للشيخ زقر أن يأمرني بتقوى من لا أهابه؟

هو تصريح غامض وفارغ بالنسبة لي.

نزعت عني شماغي الذي أحكمت ربطه على رأسي مظهراً الشق الحديث.

ـ يا شيخ زقر هذا إثبات أني سقطت البارحة محطماً الفخار، لقد انفلج رأسي دماً غزيراً.

ـ آمنت بالله، رضا أسمحُ لك بِسُقيا واحدة قبل الآخرين املأ الماء وخذه لمنزل الولد، أخبر باقي الساقين أن هذا أمري وأنها صدقة ليتيم.

صدقة يتيم! لماذا عليّ أن أكون صدقة حية للبشر؟ لماذا أنا عمل خير لهم؟ وإن كنت حقّاً صدقة، فهل يجب عليهم أن يراؤوا بها أمام الملأ؟ ألم يقل شيخ المسجد إن المُجاهرة بالخير رياء؟ ألم يقل إنه يجب أن لا تعلم شمالنا ما أنفقت يميننا؟ فلماذا يجاهرون بالصدقة على يُتمي؟ كم البشر منافقون!

ـ أمرك يا شيخ زقر، تعال معي صاغِر.

ـ لحظة لا تذهب يا ولد، قل لي هل تعمل؟

ـ لا أفعل يا شيخ.

ـ كيف تحصل على المال للعيش؟

كيف؟ أولا يعلم هذا الرجل بعمل أمي؟ أم يتظاهر بعدم المعرفة؟ كل رجال الحي وفتيانه كما نساؤه أيضاً يعلمون مصدر دخلنا، هو من الملاءة البيضاء التي أعلقها بنفسي على قمة أحد رواشين المنزل، إنها دعوة للذكور أن غالية تستقبل رجالاً هذه الليلة، هذا مصدر رزقنا، هذا التشهير المخزي الذي يتحتم علي أن أذيعه بنفسي، أمي تقول إنه يجب عليها عدم إظهار نفسها في الشارع فهذا ممنوع ومحرم، ولكن يا أمي هل هو جائز أن تقضي كل ليلة في كنف ذكر مختلف؟ هي تقول إن الضرورات تحل المحرمات، أهذه ضرورة حقّاً؟ أما من سبيل آخر؟ هل كل الأرامل والمطلقات في هذه المدينة مثلك؟

لا أعلم، يجب علي أن لا أسأل أو أتساءل، فلقد حظيت بتحذير اليوم، لن أتدخل بشأن أمي، سأحيا مثل الكلب الميت الذي ليس له صوت أو نظر، سآخذ ما أُمنح وأهرب مما أخشى، هذه هي طريقتي، دائماً وأبداً.

لم أجد إلا جواباً واحداً:

ـ أهل الخير كثير يا شيخ.

ـ عيب وحرام على ولد في عمرك وهذه البنية الجسدية ألا يعمل في حال عدم وجود معيل لكم، لذلك سأمنحك عملاً يا صاغِر.

شعرت بالدهشة تسرقني من عجزي ناظراً للشيخ نظرة رجاء ممزوجة بخوف.

ـ عمل لي أنا؟

ـ وهل يوجد غيرك هنا؟

حركت رأسي نافياً

ـ تعال غداً بعد صلاة الفجر يا صاغِر، وستكون بديلاً عن الساقين الغائبين.

ـ هل ستمنحني حيّاً يا شيخ؟

ـ حي ماذا يا ولدي هداك الله؟ عندما يمرض أحد السقاة أو يمتنع عن العمل في يوم ستحل أنت محله بتوزيع الماء وإذا احتاج أحد من السقاة مساعدتك ومعونتك فسوف تقدمها لهم.

ربما تأتي أيام لا تحصل فيها على عمل وأيام أخرى تعمل بها، الله أعلم فالأرزاق بيده تعالى، أنت احضر فحسب فالعمل أفضل من البقاء فى المنزل عاجزاً، كما أن اختلاطك بالرجال خير لك، هنا تحصل على قدوة تقتدي بها، هل كلامي واضح؟

أومأت برأسي بسرعة، لقد ملأتني السعادة التي لم أعرف لها مكاناً، لعل الفكرة التي راودتني البارحة لم تكن مجرد وهم، لعلي حقّاً أكون عون أمي.

ـ لا تومئ برأسك يا ولد وارفع صوتك بالإجابة.

ـ حاضر يا شيخ زقر.

ـ هنا الكل ينادونني عم زقر وستفعل أنت أيضاً، والآن اذهب لـرضا وتعال بعد صلاة الفجر.

ـ أمرك يا عم زقر.

أقدمت على يديه أقبلهما بشغف والدموع تقطر على يديه الخشنتين، إلا أنه سحب يده من قبضتي بسرعة قائلاً:

ـ أستغفر الله

إلا أني أمسكت رأسه وقبلته لتدغدغ رائحة البخور أنفي.

ـ شكراً لك يا عمي، شكراً لك، لن أنسى هذا أبداً.

ـ ارحل يا صاغِر، ولا تتأخر غداً .

-٣-

مع أول أذان للفجر نهضت من على فراشي، منطلقاً لبيت الماء، غسلت وجهي، ثم وضعت عليّ ثياب العمل استعداداً لانطلاقي للبازان. حتى الآن لم أخبر أمي عن عملي في البازان، لقد كانت حبيسة حجرتها طيلة اليوم بالكاد تناولت شيئاً من الخبز الذي وضعته بالقرب من فراشها، فلن أجرؤ على إقلاق نومها، كما أني لا أعلم كيف ستتفاعل مع قبولي لهذا العمل، أتضربني؟ هل تُهنئني؟ أم أنها لن تهتم؟ لم يسبق لي أن تصرفت خارج أوامر أو طوع والدتي، عدا أني قررت العمل من دون العودة إليها بالأمر.

انتشلت من أفكاري على صوت الأذان الثاني، هذه إشارتي للتحرك، خرجت من باب المنزل بسرعة، واقفاً أمام منزل جاري، الرجل الوحيد في العالم الذي لم أهبه العم عثمان. لقد كان من أعمالي اليومية أن أصحبه لصلاة الفجر وكل صلاة يكون هو فيها في المنزل، لقد كان هذا أمراً منه لي، عندما لاحظ العم أن طفلاً مثلي في العاشرة لا يتردد للمسجد أخبرني أن عليّ أن آتي لأصحبه من أجل كل صلاة، لقد كانت هذه طريقته لضمان أن أنشأ عبداً يخشى الله، أيا ليتك تعلم فقط يا عم عثمان أني لا أسجد إلا بحضورك!

طرقت الباب ثلاث مرات بقوة:

ـ يا عم عثمان هيا للصلاة.

ليجيبني صوت رقيق، ناعس من خلف الباب هو نغم يحرك نبضات قلبي لوقع يلون أيام حياتي:

ـ صاغِرِ أبي ما زال نائماً، لا يبدو أنه سوف يستيقظ قريباً أنت تعلم كيف يمسي عند القيام بعمله.

أنى لي ألا أعلم؟ عمل العم عثمان أحد أسرار الكون وعجائبه بالنسبة لي، كيف يمكن لشخص رقيق الفؤاد مثله أن يعمل مثل ذلك العمل الدموي؟

ـ حسناً شكراً لك منال.

نطقت اسمها لحناً عذباً على لساني، صديقة طفولتي وحبي الأول والأخير منال ضي عين العم عثمان والخالة نبيلة.

ـ لحظة صاغِرِ! أيمكن لك أن تحضر بعض الحاجيات للمنزل؟ لا أعلم متى يستيقظ أبي من نومه، وأمي ترغب بحاجيات لإعداد الفطور والغداء.

أرغب رفض طلبها فلا يمكنني أن أتأخر في أول يوم لي، عدا أن السائِل هنا منال، بالتأكيد ما كنت لأرفض، يمكنني تحمل القليل من سخط الشيخ زقر.

ـ أجل بالتأكيد، ماذا تريدين أن أحضر لك؟

مدت يدها المُحنّاة لخارج الباب لترن أصوات الأساور التي تعلقت على معصمها الدقيق.

ـ كتبت الطلبات في هذه الورقة، وهذه بعض الريالات لشراء الحاجيات.

ـ لا داعي للمال، أدفع مما في جيبي.

قلتها فيما مددت يدي بلهفة صوب يديها علِّي ألمس شيئاً من نعومة أناملها، إلا أنها جذبت يدها للداخل بسرعة ومعها انتزعت فؤادي.

ـ صاغِر لن أطلب منك شيئاً إذا لم تأخذ المال.

بدا الحزم على صوتها، كم هو لطيف عذْب، أريد أن أظهر بمظهر الرجل الكريم أمامها، عدا أني أعلم نوعية منال، هي شامخة عفيفة، مثلها مثل والديها، لذلك قَبِلت المال.

ـ حسناً سآخذ المال، ناوليني الطلبات.

مدت يدها مرة أخرى وأكاد أسمع صوت ضحكة الانتصار تصدي من بين شفاهها الوردية.

أمسكتُ بالمال والورقة من أقرب نقطة ليدها، لأشعر بدفء جسدها يداعب جلدي، للحظة واحدة فقدت عقلي، أرخيت قبضتي عن الورق لأمد بيدي نحوها، أريد أن ألمسها، أن أشعر بدفء يدها تلمس يدي، أريد جذبها نحوي واحتضانها بين أضلعي، وقبل أن أفقد كل منطق أو أرخي قبضتي كاملة عن المال شعرت بالمرض في معدتي

من ذاتي والرجل داخلي، هذا الذي ابتغى امرأة تشبع رغبته، تذكرت قول أمي إني مثل سائر الرجال القذرين، انتفض جسدي حتى النخاع، لأحكم قبضتي على المال جاذباً إياه بسرعة مبتعداً عن منال وعن ذاتي النجسة.

من حسن الحظ أني لم أتأخر في الوصول لـلبازان حيث إني أول الواصلين، جلست تحت السقيفة فيما رأيت إقبال السقائين كل واحد يدخل يلقي السلام تتبعه كلمة: "سرا" هذا يعني أنه يحجز دوراً له في أخذ الماء، فيما قبعت أنا في مكاني، رأيت السقاة يتهامسون فيما بينهم، بعضهم يهمز صوبي، فيما دفنت أنا رأسي بين كتفيّ، ليقبل عليّ أحد السقاة ذو جسد حنطي نحيل:

ـ ماذا تفعل هنا يا ولد؟ ألا تعلم أن هذا مكان السقاة؟ أتعتقد أن هذا المكان مناسب للنوم أو مشاهدتنا؟

ـ العم زقر أخبرني أن آتي لأعمل هنا.

أجبت بصوت منخفض بالكاد يُسمع،

ـ لماذا قد يطلب العم زقر من ولد مثلك اعتاد على المال الحرام أن يعمل معنا في هذا الرزق الحلال؟ أنت ابن تلك الأرملة التي تفتح منزلها للرجال، أليس كذلك؟

بالرغم من عينيّ اللتين أبصرتا الثرى إلا أني أشعر بالابتسامة الخبيثة ترتسم على شفتيه، كنت لأتجاهل الأمر كما في العادة، عدا أن غيظي

واشمئزازي من ذاتي قهراني لأصب جام سخطي عليه، وليكن ما يكون.

انتفضت من مقعدي ملوحاً بيدي وقبيل أن تصيبه لكمتي إذ بصوت صفعة مدوية يعلو في الأرجاء، وبنفسٍ واحد شهق كل الرجال الموجودين في البازان، جحظت عيناي من هول ما حدث.

لقد كان هذا صوت كف العم الزقر الذي صفع السقا بقوة هزت أركان المكان، نظر السقا للعم مذعوراً، ليعلو صوت الشيخ:

ـ منذ متى نتحدث عن أعراض الناس والنساء؟

هل تلاشت لديكم المروءة لتقذفوا الناس؟

أتحسب أن أعراض البشر لعبة على لسانك يا ملعون؟

عقد لساني في فمي، هوت يدي لمكانها، وامتلأت عيناي بالدمع، أيوجد حقّاً بشرٌ خيرون غير العم العثمان؟

أهنالك ذكور يطلق عليهم لقب رجل؟

ظننت أن العم عثمان هو آخر رجل في هذا الكون، إلا أن القدر بعث لي بالعم زقر، الذي يكون ثاني مخلوق يرأف بي منذ وجدت على الأرض.

ـ استمعوا أيها السقاؤون، هنا لقمة عيشي وعيشكم، من هنا نمد الحياة لحارات جدة، هذا العمل مِلكٌ للنفوس الطاهرة، واللسان الحسن، أنتم تقفون عند أبواب البيوت، تسمعون الهمسات من خلف الجدران، وترون بأطراف أعينكم ما يوجد خلف شق الباب، كل ما ترونه أو تسمعونه أمانة عليكم إبقاؤها سرّاً، سبق وأن أخبرتكم منذ أول يوم، لا ينطق لسانكم بما تراه أعينكم أو تسمعه آذانكم، والله ثم والله، ورب العرش العظيم، من لا يحفظ هذه الأمانة فلا عمل لديه عندي، وعوضاً عن السقا الواحد أحضر ألفاً، هل كلامي واضح؟

ساد الصمت المطبق لحظات من هول ما وقع، نظر الجمع للعم زقر ثم للسقا المرمي على الأرض في خزي دامع:

ـ أعتذر يا عم زقر لن أكرر فعلتي، لقد غرر بي الشيطان لبرهة.

ـ لينصرف الجميع لعملهم الآن.

أمر العم زقر ليَنْفض الجَمْع ويعود الجميع لعملهم في سكون وجس، فيما رحل شيخ البازان تاركاً إياي دون كلمة واحدة، لم أتمكن من شكره لما قام به، لم أعلم إن كان الشكر كافياً حتى لإظهار امتناني لهذا الشيخ الذي حُقَّ له أن يكون من كُبّارةِ جدة.

بعد لحظات أقبل علي العم رضا يدعوني لمساعدته، بدا أنه يحاول إقحامي بين السقائين ليألفوا وجودي ويعتادوا التعامل معي، فعلاً لم

تنتصف الشمس السماء حتى نُطِق اسمي في كل أرجاء البازان، هذا العم يرغب مني إحضار الماء لحماره، الآخر يريدني أني أساعده في حمل "الزفة" الثقيلة، لأمتلئ فخراً بجسدي الذي كان قادراً على حمل الزفة بيسر، سقا آخر طلب مني أن أمسك سِرا بدلاً عنه حتى يعود من عمله. لم أعلم أن بهجة كهذه ممكنة، أنه يمكن لبليد مثلي أن يكون ذا فائدة جمة، أهذا هو طعم السعادة؟ الإنجاز؟ لماذا لم أفكر أن أعمل في هذا البازان من قبل؟

فيما عُدنا من المسجد بعد أداء صلاة الظهر أقبل الفتيان من عمري أو أصغر يحملون في أيديهم "طبليات" محملة بالغداء لآبائهم أو إخوانهم، فيما بقيت أنا بلا عائلة أو صديق يتذكر جوعي، جلس الجميع على الحصير فيما ناداني العم رضا لتناول الغداء معهم، شعرت بالخزي من ذاتي التي لا تهُم أحداً، وفيما خطوت أولى خطواتي أتاني صوت منادٍ من الخلف، ومع هذا الصوت ارتعد كل من في البازان وجلاً وأُخرست أصواتهم، طريقة تصرفهم هذه طبيعية، فمن لا يخشى العم عثمان ليس إلا أحمقَ أو فارط الثقة، إلا أني لم أخشه، ربما لأنه جزء من حياتي منذ نعومة أظافري، هو الأب الذي لم أحظَ به يومًا .

انطلقت مسارعاً الخطا حيث عمي الضخم البنية، الأسمر اللون، والذي اهتم بالعناية بشاربه ولحيته الأسودين، وعينيه البنيتين الواسعتين، وما زاد من هيبته هو ذلك الثوب الناصع البياض وشماغه الذي التف حول رأسه. لسبب ما شعرت بالسعادة العارمة لرؤية عمي يُقبِل إلي، لرؤيته هنا حيث أعمل، لعلي أتباهى أمامه بالرَّجُلِ الذي أصبحت عليه، لقد رغبت بفعل هذا فجر اليوم إلا أنه كان نائماً، قبلت يده اليمنى متسائلاً:

ـ السلام عليكم عمي، كيف عرفت أني هنا؟

ـ عرفت من منال، لقد أخبرتها أنك ستبدأ العمل هنا اليوم، أليس كذلك؟

ارتبكت من سماع اسم منال، فعلاً لقد أخبرتها هذا فيما سلمت الطلبات لها، لتتمنى لي التوفيق.

وضع العم عثمان يده على كتفي متبسماً:

ـ لقد كبرت وأصبحت رجل بيتك صاغِر، أنا فخور بك .

دمعت عيناي إلا أني حبست الدموع حتى لا أبدو ضعيفاً أمام الرجال الآخرين.

ـ خذ هذا يا بني لقد أعدته خالتك أم منال لك، قالت إن الرجال لا يعملون على بطون فارغة، هذا من الغداء ذاته الذي أكلنا منه، فتناوله هنيئاً عليك، وشكراً على تقديم العون لنا في المنزل بإحضار الطلبات.

نظرت للطبية ذات الأدوار الثلاثة، ثم للعم عثمان في تعجب:

ـ لي أنا؟

ـ وهل أعرف غيرك لأقدم له الطعام؟!

ـ لكني لم أفعل شيئاً لأستحق الطعام .

ـ أيجب أن تنقذ العالم لتستحق الطعام صاغِر؟ هو مجرد طعام لا أكثر، تناوله واحمد الله عليه.

قدم الطبلية لي لأحملها بيدين مرتعشتين،

ـ ستنهي عملك قبل أذان العشاء، أليس كذلك؟

أومأت برأسي فيما ظلت الدهشة مرسومة على معالمي ليردف:

ـ إذاً تصحبني لصلاة العشاء، صاغِر

ـ حاضر

ـ اذهب الآن وتناول غداءك مع الرجال، فأنت منهم الآن.

بعد أن تولى العم عثمان ذهبت حيث السقاؤون، لأرى الحيرة تصرخ من أوجههم، فسح لي العم رضا مكاناً بالقرب منه لأجلس بهدوء فيما فتحت الطبلية، حينها تحدث أحد السقاة :

ـ صاغِر، أكان من تتحدث معه عثمان الدامي؟

ـ أنت تقصد عم عثمان الدماموي.

ـ أجل هذا هو عثمان الدامي، هو السياف.

ـ كنيته الدماموي وليس الدامي.

ـ أجل لكن لقبه بين الناس هو الدامي لأنه سياف.

نظرت للعم رضا في تعجب ليجيب:

ـ هذا هو ما يطلقه الناس عليه، فمهنته تحمل الكثير من الدماء، كما تحتاج قلباً ميتاً للعمل فيها.

استشاط غضبي من هؤلاء الناس ذوي العقول الضيقة التي تحكي دون التثبت من أي شيء

ـ العم عثمان يعمل على إقامة الحد، لكن هذا لا يعني أنه دموي بلا قلب، هو ذو فؤاد لطيف، أنتم لا تعرفونه لكني أعرفه جيداً هو جاري وبمثابة عمي منذ طفولتي.

أردت أن أستطرد في الحديث، ولكني خشيت أن أفشِي معلومات ليس من حقي أن أتحدث عنها، لربما ما أقول الآن قد يظهر عمي كالشخص الضعيف أو الرقيق، كما أني استنفدت كل شجاعتي بهذا القدر من الحديث لذلك التزمت الصمت.

ـ لعل حديثك صحيح، نحن لا نعلم عن هذا الرجل شيئاً، كما أنه أتى من مكان بعيد فقط ليوصل لك الطعام، لا بد أنه رجل صالح.

ـ ربما، ولكن هذا لا يغير فكرة أنه يقطع أعناق الناس من أجل العيش.

ـ هو يقيم حد الله فقط، هل أنت ذو قوة لتفعلها؟

ـ لا، ولكن مجدداً، أمر كهذا يتطلب الكثير من الجرأة وصلابة القلب.

ـ هلا غيرنا هذا الحديث عن الموت وقَطْعِ الرقاب؟

دار الحديث بين السقائين فيما ظللت أتناول طعامي بصمت، ما الذي يعرفونه عن العم عثمان وما يصيبه عند إقامة الحد؟ عدا أنه ولأول مرة أعي أن مهنته تخيف الآخرين وتجعلهم يجتنبونه، للحظات أحببت هذه الفكرة كما المهنة.

انتهى أول يوم لي في البازان، وبعد أن أوصلت العم عثمان لمنزله، عدت لمنزلي والسعادة تغمرني لما حققته اليوم من إنجاز، ما أن عبرت الفناء الداخلي ودخلت المنزل حتى تلقيت صفعة هوت بي للأرض، وتتالت بعدها اللطمات فيما وضعت يدي فوق رأسي أحميه من الأذى، ومن بين صوت الصفعات تطاول صوتها الصارخ بكل أنواع وألوان الشتائم، إلا أني لم أتبين شيئاً مما قالته لأن عقلي كان قد

تجمد إثر الصفعة الأولى، بعد بضع دقائق أنهكها التعب لتتوقف عن ضربي:

ـ ألن تتحدث وتخبرني أين كنت طيلة هذا اليوم أيها الغبي؟ أكنت تلهو مع فتاة ما؟ أم كنت تعبث مع فتيان الحي بلا هم لك في الدنيا؟ ألم تفكر في والدتك التي قلقت عليك طيلة اليوم؟ أنت حقّاً ولد عاق لا يفكر إلا في نفسه.

كلمة عاق أثارت الجزع في روحي، أنى لي أن أكون ابناً عاقّاً بوالدتي؟ لا يمكنني أن أكون عاقّاً فأنا أحيا من أجلها ومن أجل رضاها علي، جلست على قدميّ خافضاً رأسي متشبثاً بطرف ثوبها:

ـ لست عاقّاً يا أمي ولا أجرؤ، وإن كنت كذلك فليأخذ عزرائيل روحي الآن.

ـ عساك بالموت يا صاغِر، يا بلوتي في هذه الحياة.

شعرت بها سكيناً كاوية في روحي، بالرغم من أني سمعت دعاءها عليّ مرات لا تحصى إلا أن أثرها دائماً وأبداً قاتل بالنسبة لي.

ـ أنا آسف يا أمي، أنا آسف لم أقصد أن أكون عاقّاً أو أن أقلقك، لقد كُنتِ متعبةً البارحة فلم أجد الوقت لإخبارك بأن العم زقر شيخ البازان قد قدم لي عملاً، لذلك ذهبت بعد صلاة الفجر للبازان وعدت بعد أن انتهى عملي.

ـ ماذا! أنت تعمل في البازان؟ ولماذا قد يقدمون عملاً لبليدٍ مثلك؟

ـ عم زقر أخبرني أن شخصاً بقوتي البدنية يكون مفيداً في البازان، ولأني بليد فأنا أقوم بمساعدة السقائين في عملهم فحسب.

ـ أنت لا تعمل لديهم دون أُجرة، أليس كذلك؟

ـ لا، لقد أخبرني العم زقر أن أجرتي ستكون مئة ريال في الشهر.

فجأة هبطت والدتي على الأرض لتقابلني، فرأيت في عينيها بهجة عليّ غريبة، لأشعر بالاضطراب والقلق.

ـ مئة ريال في الشهر؟ مئة ريال لك أنت؟

أومأت برأسي بهدوء

ـ يبدو أنك ذو فائدة في نهاية المطاف يا صاغِر، من الجيد أني لم أقتلك عندما كنت في أحشائي كما فعلت قبل ليلتين مع ذلك الجنين.

قالت قولها بابتسامة سعيدة، وفي نبض قلب واحد تغيرت نظرتها لحقد شديد لتردف:

ـ لكن هذا لا يعني أني غير قادرة على أخذ حياتك الآن، تذكر صاغِر: أنت وحياتك مِلكٌ لي، أحضرتك لهذه الدنيا بإرادتي، وأستطيع إخراجك منها بإرادتي أيضاً

تجمدت الدماء في عروقي ذعراً من حديثها، لتمد يدها صوب وجنتي لتصفعها عدة مرات بلطفٍ وهدوء :

ـ لقد فعلت أمراً واتخذت قراراً مهمّاً دون استشارتي صاغِر، سأغفر لك هذه المرة، لكن لن تكون هنالك مرة أخرى، أفهمت بني؟

نطقت آخر كلماتها وهي متبسمة، لأومئ برأسي بسكون، حينها ربتت على رأسي ناهضة من الأرض، فتأمرني أن أعد العشاء لنا، لأنصاع كما العادة.

-٤-

مضى ما يقارب الشهر منذ بدأت العمل في البازان وأنا في أوج سعادتي، أستيقظ كل صباح أجهز بضع كِسرات من الطعام لي، ثم أنطلق لمنزل العم عثمان أصحبه للمسجد ومنه للعمل في البازان وعندما يحين الظهر أجتمع مع السقائين حول سفرة طعام يضع كل ما تيسر له من الطعام كما أنا الذي أحرص على إحضار شيءٍ من الزاد أتشاركه مع الأعمام، وعندما يحين العشاء أنطلق لمسجد الحي مع العم عثمان ثم أولي لفراشي نائماً حتى صباح اليوم التالي.

بالرغم من مرور شهر على ذلك الحادث إلا أن والدتي لم تطلب مني حتى الآن أن أعلق أي ملاءات بيضاء، هي لم تدعُ الذكور لمنزلنا بعد، هذا ملأ قلبي بهجة لعلها قررت أن تبتعد عن هذا الدرب، لربما علمت أني قادر على توفير المال لنا فما هي بحاجة للخضوع لقذارة رغبات الذكور.

ذات ظهيرة طلب العم رضا أن أحمل زفة وأذهب بها لأحد منازل الحي، حيث يقام زفاف هنالك الليلة وقد طلب صاحب المنزل الإذن من العم زقر للحصول على المزيد من الماء، تمنيت لو أرفض، فأنا أعلمُ من الجميع ما ينتظرني هناك في ذلك الوقت، إنه باسل ورفاقه، ولم أرغب الوجود حيث هم ومواجهتهم .

لم أعلم يوماً سبب عداء أو بغض باسل لي، ليس وكأنني أذكى البنين أو أفضلهم، على النقيض أنا لست شيئاً، لا أملك أباً يحميني أو يهتم بي، أنا بلا مال، دعم، أو حتى ذكاء، أنا كل شيء لا يكونه باسل. كنا معاً في حلقات الكتاتيب، أنا بمظهري الأشعث الرث، وهو بأفضل هيئة له ليكون ثوبه الأبيض، شعره المهذب أو رائحته التي مُلئت بالبخور، وفي حين أنه تمكن من دفع مبلغ الدراسة في الكتاتيب إلا أن وجودي في هذه الحلقة كان عمل خير قام به إمام المسجد، أو كما قال صدقة على يتيم. كل يوم بعد الانتهاء من الحلقة كان ينطلق هو وباقي الفتية للعب في الساحات بين ظلال الأبنية، أحياناً يلعبون بالكرة أياماً أخرى بالبرجون،أما أنا فقد كنت أقف أراقبهم فحسب لم يُسمح لي باللعب معهم إلا إن تغيب أحد الفتية فيفقد أحد الفريقين اتزانه، وكم كانت سعادتي عارمة عندما ألعب معهم وإن تكللت هذه المباراة بالكثير من التأفف كما التململ من وجودي، وأحياناً أخرى السباب لإضاعتي الكرة، عدا أني لم أبال، لقد كنت سعيداً فحسب، في تلك الأيام التي أركل فيها الكرة أكون في أوج بهجتي حتى أخلد للنوم.

وفي يوم ما دون سابق إنذار كبرنا، اتجه الفتيان للمدرسة متخلين عن الكتاتيب في حين أنه لم يتسنَّ لي ارتياد الصفوف معهم، فأنا بلا ولي أمر يأخذ بيدي فيلحقني بالمدرسة، كيف لأمي المرأة التي بالكاد تخرج من باب المنزل أن تدخل مدرسة يحكمها رجال؟ كما أن إخوتي الذين هم من والدي لا يعلمون اسمي حتى، أنا لم أرهم ولو لمرة واحدة في حياتي، لو أننا التقينا مصادفة في الطريق لما عرف أحدنا الآخر، فكيف لمن سرقوا حقي من المال أن يهتموا بتعليمي أو كيفية عيشي حتى؟

في حين أن الفتيان الذين انطلقوا في تعليمهم علا شأنهم كما عقولهم لهذا العالم، وعلموا أنهم أفضل مني، ما كان شعوراً بالترفع في طفولتنا بات واقعاً ويقيناً أحكم قبضته على حياتي، أنا من لا أجيد في الحياة أكثر مما تعلمت في الكتاتيب وهم من زخرت عقولهم بكل العلوم والمعارف الممكنة، من أنا لأضاهيهم؟ فبات واقع أني صاغِرِ يخيم على أعشاش عقلي بلا نهاية، واليوم إثبات آخر ها هم يخرجون من مدرستهم منطلقين بمرح صوب منازلهم فيما أحمل أنا الزفة الثقيلة على كتفي أسقي بها منازل أهل جدة، ليس وكأني أشعر بالخزي من عملي إنما أستحقر ذاتي .

ـ أنت صاغِر! ما يُقال إذاً صحيح، أنت تعمل كسقا.

ـ ماذا هل انتهت البِغال من عند السقا ليرسلوك بالماء؟

ـ لعلهم أخطؤوك كبغل تحمل الماء، عوضاً عن بشري؟

التف الصبيان حولي وساروا على خطاي وهم مني ساخرون، "تجاهلهم صاغِر، سخريتهم ليست عليك بجديدة، فقط أكمل دربك وأنهِ عملك" ظللت أردد في ذاتي، فيجب عليّ أن لا أخضع لتحريضهم، فآخر ما أرغب به هو إغضاب العم زقر أو خسارة هذا العمل.

عندما لم أستجب لباسل ومن معه بالطريقة التي اعتادوا، حيث إني لم أنتفض في خوف أو أهرب بعيداً عنهم استشاط غيظهم، ليقوم أحدهم بدفعي بقوة قائلاً:

ـ أتتجاهلنا؟ من تحسب نفسك؟ أنت مجرد صاغِر

مع دفعته هويت للأرض لتهوي الزفة معي ويندلق ماؤهاعليّ وعلى الأرض، لتتعالى ضحكات الفتيان على هيئتي، ليقوم باسل بركل تراب الأرض صوبي وهو يقهقه هاتفاً:

ـ كُلْ من تراب الأرض صاغِر.

ليتبعه باقي الفتيان بعمل المثل، ليغطيني التراب الموحل، الذي كان ليدخل عيني لو لم أغطِّهما بذراعي، غرة شعرت بركلة تصيب وجهي ليُدفن بين التراب، حينما توقفوا عن إيذائي رفعت وجهي المنكب من على التراب، لأجد الدماء تتساقط على الأرض، لأفقد السيطرة على ذاتي ولأول مرة أنهض مسرعاً وأقذف بلكمة على وجه من أصابني لأشعر بأنفه يتحطم فور أن لكمته، عدا أن شيئاً ما داخلي استفاق، شيء من الجبروت كما الرضا انتفضا داخلي، وكادا يلتهمانني لولا أن صرخ أحد الرجال في الحي زاجراً إيانا:

ـ يا ولد هذا يكفي، ماذا تفعلون في وسط الحي؟ ادلفوا لمنازلكم ولا تتشاغبوا في وسط الحي.

نظرت للفتيان من حولي لأرى نظرة الذعر في أعينهم والتي امتزجت بالكثير من البغضاء إلا أن الخوف هو ما منحني النشوة، ولأول مرة في حياتي ألحظ أني أنظر إليهم من أعلى أنا أطول قامة منهم بكثير، هم من ينظرون إليّ من الأسفل، يضطرون إلى رفع رؤوسهم للأعلى حتى تبصرني أعينهم، أما أنا فنظرتي لهم دونية هم أقصر مني، إذاً من الصاغر بيننا؟ أهذا ما يسمى بشعور التفوق؟ القوة؟ نظرة الخوف هذه، ما أجملها، هذا الشعور بالعظمة ما أجلَّه!

حملت زفتي الفارغة جارّاً قدمي نحو البازان مجدداً، ما أن رآني العم زقر حتى صرخ من حجرته:

ـ ولد يا صاغِرِ ماذا حدث لك؟

التف السقاؤون حولي مذهولين من هيئتي الملطخة بالدماء والطين، كان أول الحاضرين العم رضا

ـ صاغِرِ من فعل هذا بك؟

ـ لا شيء مهمّاً عم رضا، الأمور على ما يرام

ـ ماذا تقصد على ما يرام؟ انظر لهيئتك! أهذا من فعل أحد أولاد الحي؟

ـ هذا غير مهم الآن عم رضا، لقد فقدت الماء الذي عليّ إيصاله، لذلك لا بد أن أعود مجدداً، أنا آسف جدّاً سوف أدفع قيمة الماء من راتبي.

كل همي هو أن لا أطرد من البازان أو أفقد عملي، لذلك لم أجب على تساؤلات السقائين الآخرين، واكتفيت بالاعتذار، ليأتيني صوت العم زقر من الحجرة هاتفاً:

ـ ولد صاغِرِ تعال إلى هنا.

جررت قدمي متثاقلاً للعم زقر والدموع تملأ عيني، علمت أن هذه نهاية عملي في البازان. دخلت للحجرة ولم أجلس لأني سألوث "الباطرمة"

ـ اجلس يا صاغِر

ترددت في إطاعة أمر العم زقر الذي أعاد غاضباً:

ـ اجلس يا ولدي لا تجعلني أعيد كلامي.

امتثلت لأوامره بسرعة حيث إني أردت أن ينتهي هذا القلق فإن كنت سأُطرد من هذا العمل فليحدث الآن دون المزيد من المماطلة

ـ آسف يا عم زقر على ما حدث، سوف أملأ الزفة الآن وآخذها حيث أمرت، وسوف أدفع مالها من راتبي الخاص.

ـ هل سألتك عن هذا يا صاغِر؟ أخبرني ما حدث ولا تكذب لأني سوف أعلم.

طأطأت رأسي حاكياً للعم زقر ما حدث

ـ وماذا فعلت أنت لمن آذاك؟

ـ لقد ضربت أحدهم، أنا آسف أعلم أنه ماكان يجب عليّ اللجوء للعنف، لكني غضبت لاكِماً أنفه لأحطمه، أعدك ألا أعيدها، فقط لا تغضب وتطردني من البازان.

شرعت بالبكاء لتشق الدموع المتساقطة طريقها بين التراب الذي تأصل في وجهي.

توقف عن البكاء فالرجال لا يبكون، ومن قال إني سوف أطردك من البازان؟ هل أطردك لأنك دافعت عن نفسك؟ خيراً فعلت بضربك من آذاك، لا تدع أحداً يتعدى عليك أو يؤذيك، هل فهمت؟ الرجل لا بد له أن يدافع عن ذاته ولا يقبل الإهانة، إن ضربوك مجدداً فاضربهم، وإن شتموك، فاشتمهم، إن ظنوا أنك عاجز فأرهم قوتك، وإن ظنوا أنك أقل منهم فأرهم من الأصغر، هذا عالم يؤكل فيه الضعيف يا ولدي. ما كنت لأقول هذا لأحد غيرك، ما كنت لأحرض أحداً على هذا السلوك، إنما صاغِرِ أنت رجل ذاتك ورجل بيتك، إن لم تمتلك من يحميك فدافع أنت عن نفسك، ولا تكن صاغِراً أمام الغير فأنت لست كذلك.

بالرغم من أن عم زقر أخبرني أن لا أبكِيَ، إلا أن الدموع انبثقت من عينيّ بلا توقف، اندفعت حسرة على كل ما مررت به من سوء حتى هذه اللحظة، في حياتي كلها لم يمنحني أحدٌ الحق للدفاع عن ذاتي، بل أنا لم أعلم أنه يحق لي درء السوء عني، أأنا مساوٍ لغيري لأقدم لهم مثل ما يفتعلونه بي من ضرب وشتم؟

هل أنا حقّاً مخلوق له حقوق وصوت؟ لماذا لم يخبرني أحد بهذا من قبل؟ حتى العم عثمان، من كان معي في كل مراحل حياتي، من شهد ما أعانيه من صبيان الحي لم يمنحني حقّاً مثل هذا، لطالما أخبرني أن أتعالى عما يقولونه، أن أمتنع عن البطش بهم لأن الغضب من الشيطان. لماذا إذاً يحق لهم تتبع شياطينهم في حين يمنع عني الخطأ؟ بل هو مُحرم علي، لماذا أنا دونَ الخلق من يُسلب منه كل حق؟ ولكن الآن في هذه اللحظة حظيت بما لم يُسمح لي قبلاً، مُنِحت الإذن لأكون ذا حق مثل سائر البشر، منحت الإذن لأكون شيئاً غير صاغِر.

ربتت يد العم زقر الدافئة على رأسي القذر، لم أعلم أن لمسة رجل يمكن أن تكون دافئة هكذا، بل لم أعلم أن البشر يمكن لهم أن يكونوا بهذا اللطف، حتى أمي لم تمنحني حبّاً مثل هذا من قبل.

عد لمنزلك اليوم صاغِر، اغسل عنك التراب، بدل ثيابك وعد غداً بيوم جديد، وكُن فخورًا بذاتك.

أومأت برأسي دون كلمة أقولها فلقد عُقِد لساني عن قول أي شيء، إلا أني قَبّلت رأس عمي وانطلقت عائداً للمنزل. عندما رأتني أمي لم تسأل عن حالي أو ما أصابني، لقد اعتادت رؤية هذه الهيئة، بل هل كانت يوماً مهتمة؟ هي لم تسأل حتى أول مرة دخلت إليها بهذه الهيئة.

"ما الذي تقوله صاغِر! كيف تجرؤ على اتهام والدتك بعدم الاهتمام؟ أفقدت عقلك! أم أصابك الغرور لأنك لوحت بقبضتك على أحدهم؟ هذه والدتك! هي كل شيء وأهم شيء، أنسيت تلك الليلة؟ لو أنها تملك القدرة لأذاقت من آذاك مر العيش،لكنها عاجزة أمام قسوة الحياة."

فيما قاربت شمس النهار على المغيب، نادت عليّ أمي لأقبل إليها، مدت يدها نحوي بشيء حطمني، في كل مرة أفعل هذا أُكسر، كم مرة سأتحطم حتى لا أعود؟ حتى أفنى؟

أمسكت ما قدمت لي بيدين مرتعشتين، رغبت أن أعترض، لأخبرها أني قادر على العمل الآن فلا داعيَ لفعل هذا، إلا أني تذكرت أصبعها على مقلتي تحذرني، لأنكس رأسي بأسىً وهزيمة.

فتحت الروشان معلناً للذكور استقبال أمي لهم، ومع هذا يعود ليلي المليء بالأنين الرذيل مجدداً.

ـ٥ـ

مضى على عملي في البازان الآن أربعة أعوام، ولم أعد مجرد بديل للسقائين، بل أصبحت سقا مثلهم، قدم لي العم رضا بغله وعربته بعد أن قرر العودة لوطنه في اليمن حيث يسكن أبناؤه الآن بعد أن تزوجوا، بهذا أصبحت أجني ما يكفيني ووالدتي من المال. عدا أن عمل السقا سينتهي في زمن ما، وقريباً أيضاً، فلقد بدأ العمل على إنشاء خطوط للمياه تمتد للمنازل، وبهذا سيغدو عمل السقائين من قصص هذه الأزقة القديمة.

ما زالت أمي تدعو الذكور لمنزلنا عدا أنه لم يعد يتردد إليها الكثيرون كما في السابق، لا أعلم إن كان السبب يعود لكونها كبرت في السن الآن، أم أن الذكور قرروا التوبة عن أفعالهم، لربما يعود السبب إلى كونها أجهضت عدة أجنة على مدى السنوات فبات جسدها مُنهكاً مريضاً، أيّاً يكن السبب فأنا بت أحظى بمزيد من السكون في ليلي وقليل من الأنين.

في هذا الشتاء البارد ومع صلاة الفجر التي ما زلت أصطنع القيام بها، لبست ملاءتي الثقيلة وربطت على الشماغ في رأسي لأدفئ ذاتي من نفحات برد الصباح. مثل كل صلاة انطلقت صوب منزل عمي عثمان طارقاً الباب، ليصل لمسامعي صوت من أنا بها مُتَيَّم هي حجبت ذاتها عني بحجة أنّي بتّ رجلًا وهي امرأة.

كم أشتاق للأيام التي لهونا بها كأطفال في فناء منزلها، لرؤية جدائلها تقفز سعادة معها كلما قفزت فوق الحبل، ليديها المثقلتين بالأساور تحمل صينية الشاي تضعه أمامي أنا والعم عثمان في عصرية الجمعة، ورائحة الفل الذي تعطرت به تداعب أحاسيسي، آه يا منال لو كنت لي فقط.

ـ صاغِر، والدي في المسجد هو يعتكف هناك منذ الليل.

ـ ألديه قِصاص اليوم؟

ـ أجل، أنت تعلم كيف يمسي أيام القصاص.

ـ أعانه الله، إذاً منال أتحتاجين أن أحضر لك شيئاً من الطلبات في حال عجز عمي عثمان؟

ـ لا، شكراً لك، لقد جهز لنا والدي كل شيء البارحة، فلا تتعب نفسك.

أغلقت الباب بعدها بلطف وهدوء، ليتبع فؤادي دربها، منذ أن أصبحت سقا هذه الحارة وأنا في أوج بهجتي، فلقد تسنى لي استراق لحظات مع منال، كل يوم عندما أحضر الماء لمنزلهم تفتح لي الباب والخمار ملقىً على رأسها بإهمال، لأجد قليلاً من خصلات شعرها الكستنائي تنسل من تحت خمارها .

تُحرك ساعدها بحركة ناعمة تخبرني بها أن أدخل للمنزل لأجد طريقي حيث أضع الماء في "الحب" الموجود في المطبخ تكمل هي عملها في المكان ذاته، لدقائق قلائل نوجد نحن الاثنان في المكان ذاته بمفردنا، لأني جارهم ويعرفونني منذ نعومة أظافري، فلقد ائتمنني أصحاب المنزل، وما كنت لأستغل هذه الثقة أو أوذيهما في ابنتهما، لكن استراق القليل من النظرات هو كل ما أطمع فيه، فلطالما رأيت في عينَيْ منال الود لي، وسمعت في صوتها الرنان اللطف، لذلك أتجرأ على الظن أن لديها شيئاً من المشاعر لي.

دخلت المسجد لأجد العم عثمان في بقعته ذاتها يمسك بين يديه المصحف يقرؤه والدمع يقطر من عينيه، فيما سار المصلون من حوله متجنبين إياه، كمن يخشون أن يطالهم سيفه، بالرغم من أنه يقطن هذا الحي منذ زمان بعيد، بالرغم من أنه ودود مع من حوله إلا أن الجميع ما يزالون يهابونه ويخشون أن تفصل رؤوسهم عن أعناقهم إن أثاروا حفيظته.

ألا يرون هذا الدمع المتهاوي من عينيه؟ وجسده الضخم يرتعش وجلاً مما هو مُقدم عليه؟ هو لا ينام الليل بطوله باكياً على روح مخلوق لا يعرفه، يظل يقرأ القرآن ويصلي خاشعاً خاضعاً لحكم ربه وحكمته، وبعد أن ينتهي من فصل الأعناق يعود للمنزل هاوياً للنوم

يوماً كاملاً أو يزيد كمن قضى عمره في عمل مضنٍ، في حين أن كل ما قام به هو التلويح بسيفه وإطاحة عنق قاتل ما.

إلا أن هذا هو العم العثمان الذي عهدته، عمي الذي لم أفقه يوماً فؤاده المرهف وعقله الذي اتخذ من السيافة عملاً له، لربما لم يفقهه أحدٌ يوماً، لعله يقضي عمره مَهِيباً من البشر، مُساءً فهمه مثلي، لهذا ألفت قلوبنا بعضها بعضاً.

مثل العادة أقمت صلاة صامتة تخلو من تلاوة الآيات، ركعت وسجدت بلا معنىً لما أقوم به، سلمت على عمي عالماً يقين المعرفة أني لن أراه حتى يوم الغد، وسرت في شوارع جدة منطلقاً للبازان، نظرت حيث حجرة العم زقر مُتأملاً رؤيته، إلا أن هذا اليوم لم يكن مختلفاً عن الثلاثة التي سبقته، العم زقر لم يعد للبازان بعد، لقد أخبرنا أحد أبنائه الذي ينوب عن شيخ البازان أن والده مريض هذين اليومين، لذلك أتى هو بدلاً عنه يقوم مكانه ولو أن لديه عملاً آخر بعيداً عن بازاننا، إلا أن هذا طلب العم زقر، أن يؤدي أحد أبنائه أمانته حتى يزول عنه المرض.

في ظهر الشتاء البارد المحمل بغيوم ممطرة، أقبل علينا أحد أبناء العم الزقر مُتثاقلاً كما لو أن أوزار الدنيا على كتفيه، دون إلقاء السلام أو قول أي كلمات عَبَر ساحة البازان ومنها صوب الحجرة التي يجلس

فيها شقيقه الأكبر، وما كانت إلا نبضات قلب قليلة وصدح من داخل الحجرة عويل صارخ وكلمة: يا ألله! تردد صداها في البازان كله، ومعها تساقطت أولى قطرات المطر على الأرض، خرج ابنا العم زقر من الحجرة باكيين، نظر إلينا بِكرهم مُدمع العينين، ومن دون قول أي كلمات علمنا ما حدث، عدا أن أيّاً منا لم يرغب النطق به، ومن بين نحيبه نطق:

ـ عظم الله أجرنا في والدنا، عظم الله أجرنا في شيخ البازان، إنا لله وإنا إليه راجعون، عظم الله أجرك يا جدة.

انهار الجميع باكين دون استثناء، الجميع ينطق لسان حالهم:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، حسبي الله ونعم الوكيل، رحمك الله عم زقر يا شيخنا.

انطلق بعض السقاة يعزون ابنَيِ المفقود، فيما وقفت تحت وابل المطر أشاهد دون حراك أو كلمات، لم أعلم إن كنت أبكي أم لا فلقد جرف المطر معه كل دموعي سارقاً رثائي لمن أحببت .

لم يتوقف المطر عن التساقط هذا اليوم، يشتد مرات فيما يسكن لحظات أخرى كمن يتغنى ألم فؤادي، لم أكمل عملي اليوم لم أقوَ على فعل هذا، أنى لي أن أقبع تحت العريشة دون سماع فرقعة عصا العم زقر التي تنهرنا؟

كيف أبقَى في بازان لا يصدح فيه صوت شيخنا بالتهديد والوعيد؟ هو أنبل رجل عرفته في حياتي، لقد قدم لنا العيديات في كل عيد أضحى، فتح لنا البازان لنجتمع فيه متسامرين في ليالي عيد الفطر، في اليوم الذي رُزِق فيه بحفيدة فتاة وقد كانت الأولى، هتف للعم زكريا الجزار أن يقدم لكل سقا كيلو من اللحم الجيد هدية منه لنا لأنه حظي بحفيدة فتاة، لمدة شهر كامل لم تغب الابتسامة من على شفتيه.

آه يا عمي الذي أحببت، يا رجلًا بين الذكور، كيف أمضي في يومي من دونك؟ كيف أقبع في بازان لا يحمل صداك؟ لأول مرة في حياتي أعِي ما هو الموت والفقد، لم أعلم أنه مؤلم هكذا، لقد رحل هو من هذه الحياة دون أثر يُذكر له، اليوم بعد العشاء سوف يُدفن تحت الأرض التي لا تعيد من تَبْتلع، أسأبكِي كل أحبتي هكذا ذات يوم؟ بل هل سيبكينِي أحد ذات يوم؟ أولي محبون؟ ماذا عن أمي؟ هي بالتأكيد تحبني، والعم عثمان،تحبني، والعم عثمان، وربما منال أيضاً، لو رحلت عن هذه الحياة، فهل ستبكيني هي؟ أستبقى على ذكراي أم تمضِي قدماً؟

شعرت بحركة عنيفة تصدر من جسدي لأنتفض من مكاني، فأدركت أن النوم قد باغتني، أدرت رأسي لأجد أمي تقف خلفي تنظر إليّ شزرًا:

كيف أبقَى في بازان لا يصدح فيه صوت شيخنا بالتهديد والوعيد؟ هو أنبل رجل عرفته في حياتي، لقد قدم لنا العيديات في كل عيد أضحى، فتح لنا البازان لنجتمع فيه متسامرين في ليالي عيد الفطر، في اليوم الذي رُزِق فيه بحفيدة فتاة وقد كانت الأولى، هتف للعم زكريا الجزار أن يقدم لكل سقا كيلو من اللحم الجيد هدية منه لنا لأنه حظي بحفيدة فتاة، لمدة شهر كامل لم تغب الابتسامة من على شفتيه.

آه يا عمي الذي أحببت، يا رجلًا بين الذكور، كيف أمضي في يومي من دونك؟ كيف أقبع في بازان لا يحمل صداك؟ لأول مرة في حياتي أعِي ما هو الموت والفقد، لم أعلم أنه مؤلم هكذا، لقد رحل هو من هذه الحياة دون أثر يُذكر له، اليوم بعد العشاء سوف يُدفن تحت الأرض التي لا تعيد من تَبْتلع، أسأبكِي كل أحبتي هكذا ذات يوم؟ بل هل سيبكينِي أحد ذات يوم؟ أولي محبون؟ ماذا عن أمي؟ هي بالتأكيد تحبني، والعم عثمان،تحبني، والعم عثمان، وربما منال أيضاً، لو رحلت عن هذه الحياة، فهل ستبكيني هي؟ أستبقى على ذكراي أم تمضِي قدماً؟

شعرت بحركة عنيفة تصدر من جسدي لأنتفض من مكاني، فأدركت أن النوم قد باغتني، أدرت رأسي لأجد أمي تقف خلفي تنظر إليّ شزرًا:

ـ ما الذي تفعله هنا صاغِر؟ لم لست في البازان تسلم الماء؟

ـ لا أرغب العمل اليوم أمي فأنا لا أقوى على هذا

ـ اسمع يا ولد أنت المعيل الأساسي لهذا المنزل، لم أعد أستقبل الذكور كما في الماضي، لذلك بات دخلي شحيحاً، فما تحضره أنت للمنزل هو ما يُعيلُنا، لذلك سوف تنهض من هذا الفراش وتتوقف عن التصرف مثل النُّفساء ثم ستذهب لعملك فلا أقبل أن يقل المال الذي نصرفه لأن بغلاً مثلك يتكاسل.

ـ أمي مات العم زقر اليوم، أرجوك فقط اليوم دعيني أبكِ رحيله، أعدك أن أضاعف عملي في الغد.

رفعت يدها للأعلى فأغمضت عينيّ مثل عادتي استعداداً لتلقي الصفعة التي هوت عليّ كالصاعقة.

ـ ليحترق في جهنم، ما شأني في موت هذا العجوز أو ألف غيره؟ ليمتْ أو يذهب في الداهية .

جذبتني من عنق قميصي جاذبةً إياي من الأرض ثم دافعة بي صوب فناء المنزل

ـ وكأن آخر همومي هو مواساةُ غبي مثلك، امتلك بعض الرجولة وتوقف عن النحيب مثل المولولات، واكسب لقمة عيشنا.

دفعتني لخارج الباب، لأهوي على الأرض الطينية التي غطتني حينها صفعت الباب خلفها شاتمة بكل ألوان الشتائم الممكنة.

سرت بين أزقة جدة الرطبة والخاوية على عروشها، بلا روح غيري تجوب الطرقات، لم أعد للبازان، وما كنت فاعلاً ولو عنى هذا أن أخالف أوامر أمي لأول مرة في حياتي. تحت ستار من المطر جبت خاوي الفؤاد، وفيما ضرب البرق كغضبي، دوى الرعد ببغضائي لكل هذا العالم ولكل الوصب الذي يلم بي دون طريقة لمداواته.

توقفت في مكاني متأملاً المخلوق الصغير الذي يقف في طريقي، هريرة بالكاد تجد القوة للوقوف على قدميها الصغيرتين المرتعشتين من زخات المطر الباردة، وقفت الهريرة أمامي دون أي خوف ناظرةً إلى، بغتة تردد صوت مواء عال، التفت إليه لأجد قطة مستظلة من المطر تقف على أربعتها تنظر إلي ثم إلى هريرتها ومن خلفها ثلاث هريرات أخريات، غيرت موضع وقفتي حيث بت أنظر للقطة الآن لتصدر هسهسة حادة كشرت فيها عن أنيابها، إلا أنها لم تبرح مكانها، لقد هددتني من بعيد دون الابتعاد عن صغارها الآخرين الذين احتموا بها، لماذا لا تتحرك هذه القطة لحماية هريرتها بالقرب مني؟ أتفضل حماية الثلاثة الآخرين على حمايتها؟ أو أنها لا ترغب حماية هريرتها مني؟ لأتذكر ذلك السؤال: هل ستبكيني أمي لو مت؟

من دون أي تفكير مددت يدي نحو الهريرة عند قدمي، لتنطلق القطة نحوي مسرعة، وفيما قفزت عليّ ركلتها بقدمي بكل قوتي لأشعر بشيء من عظامها يتحطم لتقذف أرضاً بمكانٍ ليس ببعيد .

حينها بدأت القطة في يدي بالمواء بحزن وغرزت أنيابها الصغيرة في يدي، إلا أني لم أحررها، نظرت إلى القطة الملقاة أرضاً وهي تموء في ألم ومن حولها هريراتها الصغار، لقد بدا عليها الألم إلا أنها ظلت تحاول الحراك لحماية هريرتها في يدي، هل ستبكي هذه القطة هريراتها؟

ومن هذه الفكرة أحكمت قبضتي على رأس الهريرة في يدي ولوحت رأسها بسرعة وعنف شديدين لأسمع صوت عنقها يكسر من دون أن تصدر هي أي صوت، فقد نفقت بين يدي وبحركة أيسر من التنفس فقدت حياتها، ومع هذا أطلقت القطة مواءً مُحطمَ الفؤاد طويلاً، إلا أنها لا تقوى على التحرك من مكانها.

أما أنا فقد خالجني شعور لم أعرف له مكانًا قط، لقد كان ذاته الشعور الذي اجتاحني حين حطمت أنف ذاك الفتى قبل أربع سنوات، إلا أن ما يجتاحني الآن أعظم، هو إحساس عنيف كاسح، إنها لذة القوة والسيطرة المطلقة، شعور أغرقني بالحياة لأرغب بالمزيد منه.

رميت الهريرة الميتة من يدي، وخطوت صوب الهريرات الأخريات حيث والدتهن، وفيما مددت يدي على أولاهن هسهست القطة مجدداً، لأشعر بالنشوة من خوفها، اقتلعت الأولى من الأرض أحملها في يدي، لتنقض علي الهريرتان الأخريان، إلا أنهما لا تؤذيانني بأي شكل كان .

وبالعنف ذاته لويت عنقها، لتلفظ روحها بين يدي، كالممسوس بجان رغبت بالمزيد ، لأركز انتباهي للثالثة، فيما ظلت القطة تموء في شجن ومع كل مواء لها يتفاقم جنوني محطماً معه عنق الثالثة، ومع إمساكي بالرابعة قامت القطة بِعضّ يدي لأركلها مجدداً فتقذف لمكان بعيد، إلا أنها لم تمت بعد، وبعد آخر نحيب للهريرة في يدي لوحت عنقها ميتة.

حملت الهريرات الأربع في يدي سائراً بهن حيث القطة الدامية والتي بالكاد تلفظ أنفاسها، لقد توقفت عن المواء والهسهسة، وضعت الهريرات أمامها وأكاد أقسم إنها تبكيهن، جلست على الأرض أمامها في نشوة مُسكرة أراقب موتها، ليس شعوراً بالشجن أو الذنب من صنيعي، إنما هي رغبة لأتلذذ بهذا الشعور لفترة أطول، بالرغم من أني قتلت قططاً فحسب إلا أن الجبروت الذي شعرت به غمرني حد التخمة، لربما لن أتمكن من الشعور هكذا مجدداً أبداً، ولعلي أفعل ولكن قبل كل شيء أريد تخليد هذه الذكرى، أن أحفر هذا الشعور داخلي ولا أنساه يوماً، إذاً هذا ما يعنى أن يكون المرء سيد قدر مخلوق ما، هذا ما شعر به باسل عندما ضربني، هذا هو شعور والدتي عندما أهابها، لا عجب أنهم لن يتوقفوا يوماً، فأنا لهم مثل ما كانت هذه الهريرة لي، ضعف يمدهم بالقوة، عجز يشبع طغيانهم.

وحين زفرت القطة آخر أنفاسها نهضت من على الأرض تاركاً إياها مع هريراتها حيث هي، وسؤال ظل يلوح في بالي، هل حمتنِي أمي تلك الليلة أم أن أمراً آخر قد حدث؟ أكاد أقسم إن ذكرياتي تخوننني.

-٦-

وقفت الحشود جميعها مترقبين قدوم المذنبين، ثلاثة جناة حُكم عليهم بالقصاص، بين وفد من رجال الأمن ساروا، بخطوات متثاقلة متقاربة، أيديهم عقدت خلف ظهورهم التي كُسِرت كما أعناقهم التي لم تر غير الأرض أسفل منها، أصوات الأغلال التي كانت محكمة حول أكعابهم لحنت معزوفة موتهم. هيئتهم بدت مكسورة حد السخرية، كما لو أنهم يحملون وزر العالم على عواتقهم، وحين جثوا على ركبهم فوق الحصير، انتفضت أجسادهم ذعراً لما هو وشيك. أهو الموت ما يخشونه؟ الرحيل كما الفناء؟ لماذا يتشبثون بهذه الحياة؟ لربما فكرة الموت الموحش من دون رؤية وجه يألفونه هي ما تحرق وجدانهم مسببة هذه الدموع، أو لعل زوالهم لمجرد ذكرى هو ما يخيفهم، أن يمسوا ذكرى تمر على عقل مخلوق ما من حين لآخر، فمنهم من يدعو لهم بالرحمة، وآخرون يرجون أن يذوقوا ويل العذاب لما اقترفوه من ذنب وإزهاق روح، أيّاً ما يكن، في عيني بدا المشهد جماليّاً بطريقة ساحرة.

قال تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} أقدم المدعو حمد بْنُ ياسر على قتل شقيقه سلطان بْنِ ياسر وبإحالته للمحكمة الكبرى صدر بحقه صك شرعي يقضي بثبوت ما نسب إليه شرعاً وصدقت اعترافاته.

تحدث أحد رجال الشرطة الذي وقف أمام الحشود ومن خلفه الجناة الثلاثة، ثم انتقل لفعل الأمر ذاته مع الجانيين الآخرَيْنِ حيث إن أحدهما قتل زوجته، والآخر قتل رفيقاً له. ظلت أصوات الحشود تصدي في الأرجاء بين نكران لجرائمهم، وبين طلب للعفو، أو رجاء لتنفيذ القصاص عليهم. أما أنا فلم أبعد ناظري عن العم عثمان يقف خلفهم حاملاً سيفه في يديه ينظر إليهم دون أي شفقة أو تردد في عينيه، كيف يمكنه أن يكون بهذا التناقض؟ هو لم ينم الليل كله مهموماً باكياً على القصاص القادم، عدا أنه يقف هنا مثل الجبار الذي لا يعرف الرأفة، أهو ذاته الشخص الذي سينام كالأموات بعد الانتهاء من القصاص؟

أقبل أحد رجال الأمن صوب عوائل الضحايا فبدأ بأولهم طالباً منهم العفو عن القاتل والصفح عنه، إلا أن العائلة أبت وطالبت بالحصول على حقهم في الدماء فلقد انتظر ورثة المقتول أربعة عشر عاماً حتى بلغ أصغرهم الرشد لإقامة الحد، لا يهم إن كان القاتل هو عمهم من لحمهم ودمهم، لا يعنيهم أن عائلة والدهم ستتبرأ منهم، هم يرغبون حقهم في دماء والدهم المهدورة، كما ثأراً للشقاء الذي عانوه، وهو أمر أعيه جيداً: فقدان السند ضنك لا ينتهي.

أسرتا الضحيتين الآخرين حملوا الإجابة ذاتها، راجين الدماء حقَّ من سلبوا منهم، بين كل هذا الزخم وقف العم عثمان كالتمثال الحجري، دون أن يرمش له طرف. ثم تحرك أحد رجال الأمن نحو المذنبين ليعصب أعينهم فيغشى على بصرهم، وكل منهم يرتعد في موضعه، نظر الشرطي المسؤول عن إقامة الحد نحو العم عثمان ليومئ له ببدء تنفيذ الحكم، ليتحرك السياف خطوة للأمام مستلّاً سيفه قائلاً:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ردد أول الجناة خلف جلاده، ليعيدها العم عثمان مرتين أخريين ليرددها الآخر بصوت باهت مرتعد وأنفاس متلاشية من بين حروفه، ومع آخر كلمة وكزه السياف في ظهره لينتصب ظهره تلقائيّاً، ليرفع الجلاد سيفه صوب السماء ليبرق لوناً أزرقَ فور أن أصابته أشعة الشمس، وبحركة أسرع من لمح البصر هوى السيف ومعه فُصل عنقه ليهوي الرأس على الأرض ويخرّ الجسد جثة متناثرة الدماء، تعالت الصرخات والشهقات في الأرجاء بل إن بعض المحتشدين لاذوا بالفرار والقليل منهم خروا مغشيّاً عليهم، أما السياف فلم ينتظر لحظة واحدة منتقلاً للمذنب التالي، ملقناً إياه الشهادة ثلاث مرات، ليهوي السيف مرة أخرى مجتزّاً عنقه.

وسط كل ما يحدث راقبت في ذهول وافتتان لروعة المشهد القائم أمامي، الدماء تتطاير ملوثة ثياب العم عثمان، الأرض التي لم تحتضن دماء المذنبين لينتشر عبيقها في الأرجاء حتى تكاد تصيبني بسقمٍ عليّ عزيز، نبضات قلبي المتسارعة في اندفاع منتظرة تدحرج الرأس التالي، هذا الجبروت الذي رأيته في السياف كان ذاته الشعور الذي شعرت به عند قتل أولئك الهريرات، إلا أنه متعاظم حتى التهمني، شعرت بابتسامة تتسلل لوجهي من فرط النشوةِ كما حماسي، ولم أبذل أي جهد لمحاولة إخفاء ذلك.

في هذه السكرة رأيت السيف يبرق لمرةٍ ثالثة فيما هوى ليصيب عنق المذنب الأخير، ليتعالى صوت من بين الحشود:

ـ أنا أعفو عنه!

وبفرق شعرة عن العنق توقف السيف في مكانه دون فصل الرأس، ليبعد السياف ذاته كما سيفه بسرعة عن عنق القاتِل، لتتعالى التكبيرات في السماء وينطلق أحد رجال الشرطة ممسكاً القاتل من ذراعه رافعاً إياه عن الأرض، إلا أنه لم يَحُلَّ العصبة عن عينيه، أما العم عثمان فلقد أخرج من أحد جيوب ثوبه قطعةَ قماشٍ سوداء مسح بها الدماء عن سيفه اللامع لتهوي قطرات قرمزية على الأرض فيما

تشرّب القماش الباقي منها دون أي أثر يذكر، حينها رفع العم عثمان رأسه للسماء متمتماً بشيء في سره، من دون أي تأخير تم اقتياد القاتل صوب إحدى سيارات الشرطة لإعادة نقله، أما الجثتان فقد تم تغطيتهما وحملهما في "الشرشورة" التي انطلقت بهما.

اعتلى العم عثمان إحدى سيارات الشرطة وقد أومأ لي للحاق به، لأفعل دون تردد، انطلق بنا أحد الضباط بين الحشود منطلقاً دون أن ينبس بكلمة واحدة، أشحت بعيني صوب العم العثمان لأراه كما عهدته، ذلك الرجل ذا الفؤاد الكبير، لقد زال الجبروت ليحل مكانه الشفقة والإنهاك، إلا أنه ظل يردد بهمس:

ـ الحمد لله، الحمد لله، اللهم لك الحمد على هذا التيسير، اللهم لك الشكر على هذا العفو.

لا بد أن همسه قد طال أذن الضابط الذي ظل يحمد الله أيضاً على العفو الذي أعتق رقبة بشري.

عدا أني لم أكن راضياً أبداً، ظللت في مقعدي أنظر من النافذة في وجم، لقد رغبتِ رؤية رأس آخر يسقط، تمنيت لو أن هذا السيف في يدي أنا أطيح به بالرؤوس، أن يكون ثوبي أنا من يتلطخ بالدماء بدلاً من العم عثمان.

لم يغمض لي جفن تلك الليلة، ولم يكن السبب هو وجود رجل في المنزل مع والدتي، فلم يعد ذلك ذا تأثير علي، إنما ظل مشهد القصاص يعيد ذاته في عقلي مرات لا تحصى، في كل مرة يزداد المشهد وضوحاً كما يزداد معه تعطشي للفتك.

عصر اليوم التالي وجدت لذاتي مجلساً مع العم عثمان لشرب شاي العصرية، لتقبل علينا منال تحمل معها الضيافات، بالرغم من أنها لم تتغنج يوماً أو تتصرف بطريقة أنثوية فاضحة إلا أنها دائماً ما سرقت انتباهي بجسدها الممشوق الذي تستر بثياب فضفاضة لا تُظْهر تقاسيم جسدها، عدا أن أكثر ما سحرني هو صوت أساورها تُلحّن صوت قدومها أغنية لا يملها قلبي.

بعد أن شربنا أول كأس من الشاي في صمت بدأ عمي بالحديث معي:

ـ ألديك ما تقوله صاغِر؟ تبدو الكلمات أسيرة في فمك .

ـ عمي بعد أن رأيتك البارحة شعرت برغبة في أن أصبح سيافاً مثلك، لذلك أرغب منك أن تقودني للطريقة التي عليّ أن أتبعها من أجل أن أمتهن هذه المهنة.

صمت العم عثمان لثوانٍ ناظراً لي بدا كما لو أنه يدرس تفاصيلي

ـ لماذا ترغب في أن تصبح سيّافًا ؟!

لقد هِبت هذا السؤال، بالتأكيد ما كنت لأخبره الحقيقة، أنى لي أن أفعل؟ ما كان ليفقه هذه الرغبة العارمة التي تجتاحني، فحتى أنا لا أعيها، عدا أني لا أهابها، وأرغب بها حرة من كل قيودها وأغلالها، لعلها تخيف غيري، لربما هي غير سوية ولا مطابقة للفطرة في نظر البشر، إلا أنها شهوة بي تأصلت، ولأجل أن أنال مرادي عليَّ أن أُقدم للعم عثمان الإجابة التي يتطلع إليها، تلك التي ستشفي فضوله كما تريح ضميره:

ـ عندما كنت صبيّاً سألتك عن سبب انتقائك هذه المهنة يا عمي، وبالرغم من إجابتك لي حينها إلا أني لم أفقه تماماً أسبابك،لكن البارحة كانت لي كالبرهان لما قلته.حياة البشر عبء ثقيل،سلب الحياة،فصل الرؤوس،كما فتك الأرواح ليس بأمر يسير،عدا أن إحقاق الحق، وتقديم العدالة للمتضررين هو شعور يبعث على الارتياح، لقد أقمت شرع الله،ورددت الحق لأهله،هذا أجلُّ من أي أسىً قد يصيب وجدانك.كما لست أنسى العفو الذي منع الموت عن أحدهم، إيجاد الغفران بين السخط والبغضاء،أمر كهذا بتطلب الكثير من القوة، لقد استشعرت عظمة الفؤاد البشري،أمر كهذا يجعلك تنسى مساوئ الحياة وتدرك أن الصفح أمر يحتاج لقوة أعظم من أي ظُلم.

كلمات رددتها مثلما سمعتها من الأشخاص حولي البارحة، كما أخبرني بها العم عثمان قبل سنوات طوال، لست أعني أيّاً منها، فجُل ما أبتغي هو حمل السيف البارق بين يديَّ.

مجدداً أخذ العم عثمان يدرسني بعينيه كمن يحاول إيجاد اليقين في الشك، عدا أنه لم يُجب وأخذ يرتشف الشاي في صمت حتى انتهى من فنجانه الثالث، ثم أخيراً نطق قائلاً:

ـ عليك الانتظار حتى تبلغ من العمر الثامنة عشرة، ولم يتبقَّ الكثير على ذلك، ثم اذهب إلى الإمارة وقدم طلباً لتصبح سيافاً، لا أعلم متى سيصلك الرد كما أني لن أتدخل في هذا الأمر أو أفضلك على غيرك من المقدمين، وإن حصل وتم قبولك فستمر بمرحلة تدريب، فهل أنت أهلٌ لذلك؟

ـ بالتأكيد أنا أهل لهذا الأمر لن أخيب ظنك عمي؟

قفزت من مكاني مقبلاً رأس العم عثمان الذي أردف:

ـ صاغِر، ما أنت مقبل عليه ليس بـ وزر هيّن، ولا هي بنشوة السيطرة كما الجبروت، هي حياة بشر نسلبها وإن كان هذا على حق، إلا أن حياة الإنسان تظل ثمينة، هذا ما يفصلنا نحن السيافين عن المذنبين، إن لم نوقن هذا، فيوماً ما سنكون في الطرف الآخر من حد السيف الذي سوف يهوي على أعناقنا.

-٧-

غداً أول يوم تدريب لي كسياف، لقد تم قبولي أخيراً بعد طول انتظار، عدا أني لم أخبر أمي بعد، وهذا ما يثير الرعب في، أنا أفضل من أي مخلوق آخر أعلم ما يعنيه التصرف دون إذن منها أو موافقتها، ولقد اتخذت خطوة مهمة كما جريئة دون حتى إخطارها، ولهذا أنا على يقين تام بما هو مقبل علي الليلة، سوف تنهال علي بصفعاتها وشتائمها التي لا تنتهي، عدا أن هذا أمر ليس علي بجديد أو عسير، لتفعل بي ما تشاء وبعد أن تنتهي نوبة سخطها، سأحكي لها عن المال القادم صوبنا وكيف ستغدو حياتنا كريمة، سأخبرها عن أحلامي بشراء ذهب لها، كما ثياب جديدة من السوق عوضاً عن تلك التي تخيطها بيدها مراراً وتكراراً، ثم عن السيارة التي سأبتاعها ما أن أحظى بما يكفي من المال، كل ما لم نتمكن من الحصول عليه من قبل وكل النعيم الذي سيهوي علينا أضعافاً كلما هوى سيفي على عنق أحدهم، إذا لم أدعُ الله من قبل فسأفعل الآن، ليتضاعف عدد القتلة وعدد الراغبين في حقهم في الدماء وليكن لسيفي نصيب من كل هذا.

ذلك المساء اقتربت من والدتي التي لم تطلب تعليق أي دثار أبيض منذ وقت طويل، ولست أعلم سبباً لهذا إلا أني سعيد بتوقف كل الأنين والقذارة التي فاحت من منزلنا. وضعت إبريق الشاي أمامها لترمقنِي بنظرة تعجب مشمئزة، لأتبسم أمامها قائلاً:

ـ رغبت شرب الشاي معك إذا لم تمانعي هذا.

ـ ومتى شربت الشاي معي لترغب بهذا الآن؟

هنالك مرة أولى لكل شيء، وبما أني رجل الآن فأرغب السمر معك.

أدارت بعينيها في حركة ملل، إلا أنها أومأت لي لأصب الشاي لها لأفعل بسرعة، أعلم يقيناً أنها تشعر بالوحدة، لطالما فَعَلت، هي لا هي لا تملك زوجاً تسكن إليه أو تسامره في ظلماء الليل، لا صديقات تزورهن أو تفضي بما في جعبتها معهن بل هي بالكاد تخرج من باب المنزل مرة أو اثنتين في العام وللضرورة القصوى، والدتي بلا عائلة أو أقارب تشد أزرها بهم، لذلك تعاظمت وحدتها مع السنين ولعلها باتت أشد عليها الآن بعد أن توقف توافد الذكور عليها، لذلك قبِلت بوجودي معها، أمرٌ لم تسمح به من قبل أبداً، لولا وجود وجبة أتناولها معها لما رغبت في رؤيتي.

قدمت لها الشاي لترتشف منه بهدوء، وفي سكون الليل لبثنا بصمت دون أي حوار يدور بيننا، وما الحديث الذي يمكنني أن أتبادله معها؟ هي ليست مهتمة بما يدور معي في يومي، كما أنها بلا أحداث جديدة في يومها، لكن لا بد لي أن أنهي الأمر الذي بين يدي الآن، جلست باستقامة ثم سعلت بقلق:

ـ أمي أريد أن أخبرك عن فرصة عمل قد مُنِحت لي، وأرغب بأخذ موافقتك إذا لم تمانعي، فأنت تعلمين أني لا أخرج عن طوعك ولا أتصرف دون موافقتك.

ـ اختصر صاغِر فلا صبر لي عليك.

ـ في الحقيقة العم عثمان وجد لي شاغراً للعمل كسياف مثله، أخبرني أني أملك المقومات لهذا، كما أن المال جيد، لذلك أدخل اسمي في قائمة المتدربين من أجل السيافة، فما هو شورك في هذا أمي؟

ما كنت لأخبرها الحقيقة يوماً، لن أخبرها أني من تقدم لهذه المهمة بنفسي وما كان للعم عثمان يدٌ في أي شيء، بهذه الطريقة سيكون غيظها مني أقل، لأنها سوف تعلم أني لم أتصرف دون إذنها، لقد وجدت هذه الطريقة مُجدية مؤخرًا، لقد بت أكذب عليها كثيراً لأتلافى سخطها علي، ورغم أني أفشل أحياناً إلا أني أنجح في أوقات أخرى، ويبدو أن هذا اليوم سيحالفني الحظ أيضاً.

ـ هل ستجني الكثير من المال؟

نظرت نحوها لأجد أن عينيها تتلألأان بهجة .

ـأجل أمي، سوف يكون المال وفيراً جداًّ حتى أنك لن تعودي بحاجة لحساب ما سيكفينا لآخر الشهر، سيغدق علينا المال غدقاً ليكون لدينا فائضٌ منه للشهر التالي، راتبي سيصل للآلاف، بل ومع كل قصاص أقوم به أحظى بدفعة مالية كبيرة، أتصدقين هذا أمي؟

رأيت ابتسامة لم أرها من قبل ترتسم على شفتيها، ثم دفعت بجسدها ببطء لتقترب مني، لأجفل حيث أنا ويتملكني الرعب، ها هي صفعتها قادمة صوبي، أغمضت عينيّ بسرعة كما عادتي، إلا أن الألم لم يهوِ علي، ولمفاجأتي لمست والدتي وجنتي بلطف جعلني أنتفض ذعراً لأمر أجهله، لأفتح عينيّ على مصاريعهما مبهوتاً بمشهد وجهها قريبًا مني مُتبسماً، رغبت بدفع يدها بعيداً عني والهرب منها، هذا الشعور الذي منحتني إياه لمستها كان غريباً بشكل مخيف للغاية، شعور لم أعتده ولا أعلم له مكاناً أو مُسمّىً، هو عارم مرير حتى خشيت الانهيار تحت وطئه، بالرغم من أن كل كياني صرخ آمِراً إياي بالفرار إلا أني لم أخضع له واكتفيت بوضع يدي على يدها بلطف وفي الأوان ذاته أزحتها من على وجنتي باضطراب تملك أطرافي حد الارتعاد، إلا أنها لم تتوقف هنا، بل لقد شدت على يدي بلطف كمن لا ترغب في تركها .

ـ صاغِرِ يا ولدي الحبيب، لقد أصبحت رجلاً يُعتمد عليه، كنت أعلم أن كل حبي لك واعتنائي بك سيثمر في المستقبل وها أنت ذا رجلاً يُشد به الأزر، لقد أحسنت تربيتك والاعتناء بك، يبدو أن كل مشاقي سوف تجازى الآن، أخيراً يا غالية لقد نلت أجر صبرك.

ـ إذاً أمي أنت لا تمانعين أن أبدأ العمل كسياف، أليس كذلك؟

ـ لا يا بني الحبيب، إن كان هذا ما ترغب به أنت فافعل ما تريده، المهم أن نحيا حياة جيدة، وأن تتذكر الاعتناء بوالدتك في كبرها.

ـ بالتأكيد يا أمي، فأنا أحيا من أجلك أنت.

ـ إذاً متى تبدأ العمل بني؟

ـ غداً يبدأ تدريبي، لذلك ائذني لي، عليّ الخلود للنوم حتى أستيقظ مبكراً.

ـ دعني أحضر لك العشاء قبيل النوم حتى تكون أكثر نشاطاً عندما تستيقظ.

ـ لا داعِيَ لإرهاق ذاتك أمي، سأتناول الإفطار قبل انطلاقي غداً، والآن تصبحين على خير.

لم أنتظر أن توقفني مجددًا، لقد نهضت من مكاني مسارعاً الخطا لدورة المياه مغلقاً الباب خلفي بسرعة لأفرغ معدتي كلها حيث أقف

ظللت أتقيأ حتى ما عادت قدماي تحملانني، كلما تذكرت لمستها لي، هيئتها كما كلماتها عدت أتقيأ حتى آلمتني معدتي، بدأ جسدي بالارتعاش كما لو كان ينفض عنه سمّاً يقتله.

لقد كرهت تلك الدقائق القلائل، لطف يدها التي لمستني أحرقني، نظرتها الحنون أغرقتني حتى الموت، كلماتها لم تجد مكاناً في عقلي أو فؤادي، لِم أشعر بالاشمئزاز منها؟ هل اشمأززت من حبها لي؟ لقد أحبتني من قبل، أنا موقن بهذا، عدا أن صورة الود الجديدة أصابت روحي بالسقم، كلماتها لي كانت مثل لغةٍ لم أسمعها قبلاً فلم أفقهها، هي لم تدعنِي ابني من قبل، لم تتحدث معي جملة لم تشمل اللعان أو الشتيمة يوماً، أمي حرّمت علي حق اختيار قدري من قبل، لقد اقترحت صنع الطعام لي، آخر مرة تناولت شيئاً من صنع يدها عندما كنت في السادسة من العمر، لماذا تغير لون حبها لي؟ ولِم أمرضني هذا التغيّر؟ ألا يجب عليّ أن أبتهج من هذا الحب الذي تمنيته شغفاً منذ نعومة أظافري؟ أما يتحتم عليّ البكاء كالطفل شوقاً لها؟ هي من كانت دائماً قريبة مني إلا أنها أبعد المخلوقات عني، لقد اشتقت إليها دائماً، لهذه اللمسات والكلمات، إلا أني وجست منها حين ظفرت بها، أهي متأخرة للغاية؟ أكانت صادقة؟

هل سأعتاد هذا الحب الجديد يوماً؟ بل أأنا جدير به حتى؟

"لا يا صاغِر، حبها لك يتعاظم، لقد قست عليك وأنت غلام لأن حمايتك كما تربيتك كانت على عاتقها، ثم أنت لست بأيسر الفتية في التعامل، لقد عانت الأمرين بسببك، فأنت بليد، ضعيف بلا فائدة، كيف تجرؤ على الاشمئزاز من والدتك وعطفها؟ بل أنى لك أن تمرض منها؟ يا لك من خوّان جاحد! لذلك أنت لا تستحق حبها لك، ولا الابتسامة التي منحتك إياها، لقد أضعت كل ودّها عبر التقيؤ هذا، تذكر تلك الليلة وما قامت به من أجلك، تذكر يا صاغر يا أنذل من في الوجود."

ذاتي الطفلة الحمقاء تعيد النظر عبر شقّ الباب، لتُجْذَب لداخل الحجرة قسراً، ثم تثبت أرضاً بعنف خالص، وذلك الجسد الممتلئ يقبع فوق بدني الهزيل الصغير، لست أرى تقاسيم وجهه إلا أني لن أنسى يوماً تلك النظرات الشبقة تنظر إلي تتفحص جسدي اليافع المرتعش، تلك الأنفاس الكريهة تزداد حرارة تحرق جسدي مع كل زفير، وقطرات العرق النجسة تتساقط من أطراف أنفه، أما ذاتي الفتيّة فهي تحاول الفرار والابتعاد من وزر الذكر الذي يكاد يحطمها، وبكل ما في من رعب نظرت إليها، مناشداً إياها لإنقاذي من الذعر الذي لم

أعرِف ولن أعرف له نداًّ يوماً، لقد بادلتني النظرات، لقد أُحكِمت عيننا معاً، هي خلاصي ومنجاتي، أنا أذكر جيداً تتمة هذا الكابوس، بل إنها ذكرى لا تكاد تفارقني، ولكن لم يكذب هذا الكابوس؟ لم يتغيّر؟ أهذه نظرات أمي لي؟ أتشعر بالتردد؟ أعلم أنها ستنقذني، فلم تلونت عينها بغضاء لم أجد لمثلها قتوماً؟

انتفضت من نومي ذعراً مع أذان الفجر، نهضت متثاقلاً لأتجه صوب المسجد مُدعياً الصلاة، ومع شروق الشمس بدأ فصلٌ جديد في حياتي.

-٨-

وقفت في الساحة التي أحاطها العديد من البشر، منهم المُتهامس وبعضهم الصامت من هول ما هو قادم، أما أنا فقد انتصبت خلف ظهر مُنكسر ورقبة مُطأطأة، هي ذاتها التي سأجتزها اليوم إن لم يحل أحد بيني وبينها بعفو تافه. بعد بضع دقائق كانت كالأبدية بين ذكر ذنب الجاني وطلب الصفح من أصحاب الدم، أقبل علي مسؤول القصاص يخبرني أن أُقيم الحد، لتتسارع نبضات قلبي حتى أصدى وقعها طُبولاً في مسمعي، أمسكت مقبض السيف في يدي بإحكام دون أن أستله من غمده، بعد أن تم عَصْبُ عيني المحكوم عليه اقتربت صوبه، مُلقناً إياه الشهادة ثلاث مرات ليرددها بصوت مرتعش يكاد يتلاشى، ثم وكزته بغمد السيف الذي رأى نصله الشمس الآن، ليرتفع ظهر الجاني، وبحركة أسرع من طرف العين وقوةٍ جبارة هويت بسيفي صوب عنقه مُجتزًّا رأسه الذي هوى للأرض مُقبلاً الثرى، تناثرت الدماء على الأرض كما لونت ثوبي الأبيض، لترتفع أصوات البشر من كانوا قبل ثوانٍ صامتين، تعالت التكبيرات، الشهقات، والدعاء، أما أنا فارتعد كل كياني كما روحي.

لقد شهدت القصاص من قبل، كما رأيت جثث المحكوم عليهم أثناء التدريب، عدا أن هذا لم يَكُن له أي وقع في فؤادي أو روحي، عدا أن ما يستحكم عليّ الآن هي سطوة الجبروت ، لقد سلبت بشريّاً حياته

أمام مرأىً من الخليقة وشهود من رجال الأمن، أزهقت روحاً دون أن يردعني أحد، بلا استهجان أو عواقب لما فعلت، تحقيق هذه الرغبة التي أزهقت روحي كان جُلَّ رجائي وأحلام ليلي كما نهاري، أشعر كما لو أن جسدي يطفو في السماء مُراقباً ما يحدث، هذه الثياب التي تلونت بلون الدم الزاهي، أصوات البشر الخائفة، الجسد الملقى عند قدمي، تلك الدماء تقطر من حد سيفي الذي أرجو أرجحته مجدداً، أتعطش لضرب عنقٍ أُخرى أتلهف للمزيد فما زلت لم أرتوِ بعد.

صوت أحد رجال الأمن استلني من نشوتي الحالمة:

ـ هل أنت بخير صاغِر؟

أشحت بنظري صوب رائد زميل لي في تدريب السيافة، رجل ذي فؤاد جبان واهن، لم يحتمل عبء إزهاق روح أحد أو سلب حياة بشر، لذلك امتنع عن التدريب مُكْتفِياً بعمله كشرطي، رأيت القلق في عينيه وكدت أن أنفجر ساخرًا من ضَعْفه إلا أني لم أُفق بعد من سَكْرتي لأنظر إليه بعينين مدهوشتين، ليهمس بقلق:

ـ صاغِر امسح الدماء من سيفك وهيا نُعدْك لمنزلك.

أحلت نظري للسيف بأسىً، وكم تمنيت أن أبقي الدماء عليه، ليحمل جبروتي شهادة مُتلونًا باللون القرمزي ، أُريد أن أنقش ذكرى كل هذه المشاعر على حدِّه فأذكرها كُلما نظرت إليه ، عدا أني أعلم أن هذا مستحيل فأول ما يتحتم علي القيام به هو مسح الدماء من نصلي

وإعادته للغمد، سحبت قطعة قماش بيضاء من جيب ثوبي المُلطخ بالدماء، لأرميها على بداية السيف حيث النصل، ثم أحكمت يدي على القماش ومررته بحذر على مد النصل ليتلون القماش بالدماء التي تسارعت بالانسلال من حد سيفي كلما دفعت القماش للأسفل، وما أن وصلت لآخر السيف حتى تساقطت آخر قطرات الدماء على قدمي هاجرةً سيفي البارق ناصعاً تحت أشعة الشمس التي لونت حده لوناً أزرقَ كلما ضربته. أعدت سيفي لغمده ثم اعتليت السيارة مع رائد، ليقود بنا في صمت لبعض الوقت.

ـ بالرغم من أنك كنت جلوداً على مشاهد الموت خلال التدريب، إلا أن مشاهدة القصاص مختلفة تماماً عن فعل القصاص ذاته، لا بد أن الأمر شق عليك، فحياة البشر ليست بهينة، حتى لو كان مُذنبًا.

ـ أجل هذا صحيح، المشاهدة ليست مثل الفعل ذاته.

كلمات قلتها صادقاً، عدا أني لم أصحح له ظنه، لم علي؟ فلا أحد سوف يفقه ما أشعر به، الجميع يتحدثون عن قدسية الحياة وكم هي ثمينة، ولكن لم عليها أن تكون ثمينة؟ لم يتوجب عليّ أن أشعر بالشفقة عند أخذ حياة أحدهم؟ الجناة بالتأكيد لم يشعروا بذلك، هم قتلوا دون أي تحفظ أو تردد، كما سأفعل أنا، لعلي بليد ثقيل العقل، إلا أني وجدت منفذاً لإشباع هذه الرغبة العارمة، شعور السيطرة، الجبروت، كما احتكار حياة أحدهم، هذا هو مُتَنفسُ سخطي الذي لم

يهدأ يومًا في حياتي، لأول مرة مُنذ أذكر وجودي أشعر بهذا الارتياح، الطمأنينة والسكينة، كما لو أن كل ما مررت به في حياتي قادني لهذه اللحظة، لليوم الذي أشعر فيه بحقيقتي النقية التي لا تشوبها شائبة أو تختبئ خلف الخوف، أعلم يقيناً أني لن أتبدل عن ذاتي الجبانة، عدا أن صاغِرِ الحقيقي يظهر لومضات فقط في لحظات كهذه، لا أعلم متى سوف يتاح لي أن أقتل مجدداً إلا أن ما أشعر به الآن سيغذي روحي لوقت طويل للغاية.

بين أزقة الحي المتهالك سارت سيارة الشرطة الفاخرة، هذا التناقض الجلي بين الحداثة والعراقة المتهاوية مُذهل، أعين الأطفال تتبع سيارة الشرطة التي تحمل داخلها ثاني سياف ولدته هذه الأزقة، من كان في يوم ما ذليلاً صاغِراً، بات الآن همساً يُنطقُ بخوف بين ألسنة أهل الحي الذين استنكروني ووالدتي من قبل، أما اليوم فلا أحد منهم يجرؤ على النظر صوب عينيّ حتى، وأنى لهم أن يفعلوا؟ ذكور هذا الحي يعلمون ما اقترفوه في حق والدتي والوكزات الفاسقة كما المفاخرة فيما بينهم أيهم اعتلى جسد غالية البارحة، نساء الحي اللاتي صفعن الباب في وجهي وأنا طفل ثم فتحنه عندما احتجنَ الماء الذي أوصله لهن، عدا أن هذا لم ينهَهن عن رشق الكلمات في وجودي "ابن الفاجرة" هذا ما تهامسنه بالقرب مني ، ثم هنالك الفتية من عمري من آذوني كما حلا لهم حتى أوقفتهم بقبضتي إلا أن هذا لم

يمنع الضحكات الساخرة التي تعالت كلما سرت بالقرب منهم جارًّا حماري مُحملًا بالماء، لكن الآن لا مكان لأي هذا، خشيَني الذكور كما خشوا عمى عثمان، فما عادوا يدعوننى إلا بالسيد صاغِر أو حضرة صاغِر، نساء الحي بلَعْن ألسنتهن وقصصن ألسنة أبنائهن الصغار عند ذكر السياف الذي يتناول طعامه بثمن دماء يُريقها ثم ينام ليلاً قريراً.

توقفت السيارة أمام منزلي لأهبط منها حاملاً سيفي بيميناي وفارداً عن صدري بفخر فيما أشاح المارة بأعينهم عني وعن الدماء التي لونت ثيابي، أما الفتية فقد هربوا باكين بعيداً عني .

ـ هل تحتاج شيئاً يا صاغِر قبل أن أعود للمركز؟

ـ لا، شكراً لك على إيصالي رائد.

ـ لا تقلق هذا عملنا، فلا بد من حماية السيافين مثلك.

تبسم رائد فيما اعتلى سيارته مجدداً منطلقاً بعيداً، لأخرج مفتاح منزلي من جيبي مُقبلاً صوب الباب وقبيل أن تطاله يدي سمعت همساً لطيفاً ينادي اسمي، ليرتعش كياني ناظراً للباب الذي أعلم أنه يخفي خلفه صاحبة الصوت الرنان، لأقبل إليها ببطء كما حذر

ـ ما الأمر منال؟

ـ أبي يخبرك أن ترتشف شاي العصر عندنا اليوم ما لم تكن مُنهكًا من عملك، هو يعلم أن اليوم هو أول قصاص لك، لقد كان قلقًا عليك، لذلك ارتح قليلًا وعد لاحتساء الشاي عندنا.

قالت قولها فيما حركت الباب لتغلقه لأستوقفها بسؤال خالجني منذ قررت أن أصبح سيافاً:

ـ ألا تخشين من ذاتي القاتلة المضرجة بالدماء؟

سمعت صوت ضحكة مكتومة خلف الباب، كما لو كان سؤالي أحمق مثلي لتجيبني دون أي انتظار أو حتى مبالاة:

ـ ولم علي؟ أنت صاغِرٍ لا شيء فيك مخيف.

ومع هذا أغلقت الباب لينهار حبي لها لهاوية بلا قاع، هو ينسكب غامراً إياي دون اكتفاء، كيف يمكن ليوم كهذا أن يصبح أفضل؟ لقد تحررت روحي بحد سيفي، ثم أسقتها منال شربة السعادة التي لا تنضب.

دخلت منزلي ولا أكاد أشعر بالأرض أسفل مني، لتستقبلني والدتي بوجهٍ بشوش هو سقمي، عدا أني أحكمت السيطرة على ذاتي فما عدت أتفاعل معه كما أول مرة.

ـ كيف كان قصاصك اليوم بني؟

ـ لا بأس به، لقد قصصت رقبة أحدهم فحسب.

ـ انظر لثوبك تلوث بالدماء، اخلعه حتى نقوم بغسله لك، وخذ قسطاً من الراحة لا بد أنك منهك من القصاص، ونحن سنقوم بإعداد وجبة طعام تسعدك.

لم أجبها واتجهت صوب حجرتي أنزع عني ثوبي، وأقدمه لأمي، التي أعلم أنها لن تكلف ذاتها عناء غسله، بل ستقدمه للفتاة الصغيرة سعاد،

تلك التي تأتي من عائلة معدومة بالكاد تجد طعاماً يكفي إطعام كل أفرادها البالغ عددهم عشرة، لذلك تقدم فتاة في الثانية عشرة على العمل في منزلنا حيث تعاملها والدتي أسوأ معاملة، هي تلقي عليها الشتائم كما تضربها كلما رغبت بهذا، كل ما امتنعت عن فعله بي افتعلته بالطفلة، وما كنت مانعاً إياها من فعل هذا، فسعاد تستحق هذه المعاملة كما استحققتها أنا.

بالرغم من لطف أمي معي ورِقتها إلا أني أجد التعامل معها الآن أو الوجود معها عسيرًا للغاية، أجد صعوبة بالغة في تقبل وجهها الجديد، ليس وكأن مشاعري وحبي لها قد تغيرت، فهي ما تزال عالمي كله وأنا كلي لها، عدا أن شيئاً ما مفقود لست أعلم ما هو، ولأعوض هذا الشعور القاتل أمطرت أمي بكل ألوان رغد العيش، أحضرت لها الفتاة لتعمل في المنزل بدلاً عنها، ابتعت لها أساور من ذهب خالص تحلي بها يدها، ومذياعاً يؤنس وحدتها، كما قمت بشراء سيارة لي كي أتمكن من أخذها حيث ترغب، ولم أتوقف عند هذا فقد رممت المنزل المتهالك ليبدو كقصر جديد البناء، ومع هذا إلا أن الفجوة في داخلي لم تمتلئ. كلما رأيت ابتسامة ترتسم على ثغرها، إذا بفؤادي يقذف لمكان أبعد عنها، كل يوم تتعاظم هذه المسافة، لا أعلم كيف يمكنني أن أحب شخصاً بهذا القدر إلا أني أمقت الوجود معه في الآن ذاته .

أخذت مقعدِي المعتاد في منزل العم عثمان الذي استدعاني للاطمئنان علي لذلك لا بد لي أن أرقَى لمستواه في الإنسانية، عليّ اصطناع ما يتمنى من مشاعر تظهر مدى تأثري بأخذ حياة إنسان، وهذا ما سأمنحه إياه، صورة عن سياف تشبهه.

ـ كيف تشعر بعد القصاص، صاغِر؟ لقد كان الأول لك.

ـ لم أعلم أن الأمر سيكون هكذا يا عمي بالرغم من أني شهدت القصاص عدة مرات، عدا أن المشاهدة تختلف عن الصنع لطالما رأيتك قُبيل القصاص شاهدت ما تمر به كل مرة تستعد فيها لِقَص عنق أحدهم ولم يفقه عقلي واقع ما تمر به ظننتك رجلاً ذا ضمير عظيم فحسب.

ـ والآن؟

ـ الآن أنا أعِي ما مررت به كل مرة تَشهر بها سيفك، نبضات القلب التي تنقض عليك حين تقبض السيف بيديك، وذلك الزمن المتباطئ مع النصل الهاوي صوب العنق، ثم المقاومة التي تشعر بها في أطراف أناملك عندما يصيب النصل العظام، إنها مقاومة أسرع من نبض القلب لكنها عقيمة لا تنقذ عُنق صاحبها من الموت المُحتم، وحين يهوي الرأس أرضاً يقابلني الوجه ذو العينين المعصوبتين، أكاد أقسم إني أشعر بهما تنظران إلي ذعراً من تحت العصبة،حتى وهما بلا حياة إلا أن الذعر هو كل ما حملتاه معهما في آخر لحظاتهما الخوف من الموت ومني.

نبضات قلبي متسارعة، وصوتي بالكاد يجد القدرة للخروج من بين أنفاسي المسلوبة مني، إلا أن يد العم عثمان مُدت لكتفي لتهدئ ذعري، أو ما ظنه ذعراً، ما أشعر به الآن هو الجوع والشهوة العارمان اللذان يطغيان علي لأعيد الكرة وأقتل أحدهم، وعمي المسكين ظن أن هذا من تأنيب ضميري، لو أنه يعلم أني بالكاد أمتلك ما يسمى الضمير، ذلك الشعور الذي يكون رادعاً للبشر عن الشرور، هو مقياسهم للصواب والخطأ، إنه مِعيار لم ينشأ داخلي قط، لطالما كان رادعي الأول هو الخوف، ما منعني حتى هذا اليوم من القيام بالأفعال التي يدعوها البشر بالشنيعة أو غير الأخلاقية هو الخوف ممن حولي، أولهم أمي التي صاغت قيودي من جزع تجذر بي، ثم هنالك الذكور الذين أخشى طغيانهم علي، لذلك لم أجرؤ يوماً على التحرك خارج الحدود التي رسمها المجتمع كما البشر، لو أن هذا الخوف لم يُزرع بي، لو لم أمتلك هذه الأغلال التي تُقيّد غريزتي وصاغر الحقيقي داخلي، فما العلم ما أنا قادر على فعله من دون رادعٍ أو ضمير ؟

-٩-

قِصاص اليوم سوف يكون مُختلفاً عن أي قصاص أقمته سابقاً، فلأول مرة لا يوجد فؤاد يتعاطف مع الجاني، ولم يلتمس الضابط المسؤول أهل الدم من أجل العفو، بل إن رجال الأمن وقفوا مانعين الحشود الناقمة من الاقتراب للقتال، الكل متعطشون لتمزيق روحه وقذف العذاب بكل جزء من بدنه، هو من اغتصب وقتل خنقاً فتيةً تتراوح أعمارهم بين السادسة والحادية عشرة. الحشود تلعن وتشتم القاتل الذي لم تُفارق الابتسامة الساخرة ثغره كمن يستهزئ بألم من حوله، كما لو أن جرائمه والأرواح التي حصدها لم تكن إلا مُتعته الخالصة، في هذه المرحلة من حياتي قطعت العديد من الرقاب حتى تلاشت نشوة الجبروت والقوة، مُخلفةً وراءها جوعًا لا يمتلئ، ظمأً لا يرتوي، وشهوةً لا تشبع، في كل مرة أقوم بالقِصاص فيها أرى المذنب يرتعد خوفًا، بعضهم يبلل ذاته، قليل منهم يكون في حالة هستيرية يصرخ مُطالباً بالعفو، إلا أني لم أقابل يوماً قاتلًا مثل هذا، هو فخورٌ بما اقترفه، لا يخشى الموت، كما لو قد ضمن مكانه فى الفردوس، هذا الرجل يسير مُتخايلاً، مُتبسماً، ماتِعًا، آلا يعي هذا المجنون أنه مُقبل للموت؟

ركع المجرم على الأرض طواعية ليتم عصب عينيه، لقد بدا رجال الأمن في حالة اضطراب منه ومن جنونه الغريب، وخوفاً من تفاقم

الوضع أمرني الضابط المسؤول بإقامة الحد، لأسرع الخطا صوب المذنب فأنطق بأول شهادة له

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

ـ أتعلم متعة النظر في عينَيْ ضحيتك أيها السياف؟

ارتعدت في مكاني كما فعل كل من كان قريبًا منا بما يكفي ليسمع حديثه، ولأول مرة يُصيبُني الهلع في ساحة القصاص لأختلس نظرة سريعة صوب رائد القابع بالقرب مني، لأرى أن ذعراً أكبر تمكن من روحه، نظر كلانا للضابط المسؤول الذي أشار لي بهدوء لأُكمل:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

لا بد أنك تعرف متعة القتل على الأقل، وإلا لما أمسيت سيافاً، عدا أن متعة القتل تتلاشى مع الوقت أيها السياف، فلا بد من إيجاد طريقة لإشباع الرغبات قبل أن تلتهمنا.

شعرت كما لو أن روحي عارية أمام كلماته التي جردتني من الدثار الذي اسمه صاغِر، لقد مسّ أكثر أسراري كما رغباتي شؤماً، تلك الشهوة الغريزية التي تكاد تفقدني رزانتي وعقلي، ذلك الرعب الذي يُكبلني فما عدت قادرًا على الخروج من حدوده؛ ترنحت في موضعي وارتعدت أطرافي، وإذا برغبة خاطفة تمر بي، رغبةٍ بتحرير هذا المخلوق الذي يفقه تماماً ما أنا عليه، ليس شفقة على حالينا بل طمعاً ليدُلني على سبيل النجاة من هذه الهوة التي تبتلعنِي حيّاً، هذه الأحلام

التي تراودني بالقتل مرارًا وتكرارًا، كما الأقنعة التي ظللت ألبسها حتى ما عدت أعرف ذاتي الحقيقية، ورداء البشرية الذي دثرت حالي به منذ الصغر فما عاد يسعني، بل هو مهترئ مُمزق من كل مكان، بالكاد يحجب حقيقتي التي توشك أن تندفع مسعورة صوب كل البشر، آه أيها الخوف الجميل لمَ لا تفارقني وتحررني؟

انتفضت على صوت رائد الحازم:

ـ صاغِر أنه الأمر الآن .

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

ـ تذكر أن تنظر لعينَيْ ضحيتك التالية أيها السياف فلا متعة أفضل من رؤية الحياة تغادر عينَيْ أحدٍ ما.

ومع هذا تدحرج رأسه على التراب وتطايرت دماؤه، لتخمد كل الأصوات من حولي، فيما عدا كلماته التي تردد صداها داخلي فما عدت أسمع غيرها، هويت بسيفي عليه لأحمي ذاتي منه، لأحافظ على ما بقيَ من ستري وغطائي، إن فقدتُ أغلالي فأنا من سيكون حد السيف على عنقه تالياً.

بعد هذا القصاص نمت كالأموات حتى غروب الشمس وذلك الصوت يتردد في منامي دون كلل، أرى ذاتي متقوقعةً في بقعة مظلمة أحتضن خوفي بين الضوء الذي أحاط الفضاء، لأستيقظ على صوت طرق باب صاخب تتبعه أصوات متعالية في المنزل، انطلقت مسرعًا

لأرى ما يحدث، وإذا بأذني تطربان من سماع صوت منال قادماً من مدخل المنزل، لأسرع الخطا، فيما عدلت من شعري المتناثر من أثر النوم، ليصل صوت والدتي الساخطة إلى مسامعي سارقة مني بهجتي. بالرغم من أننا عشنا حياتنا كلها في هذا الحي، وبيتنا ملاصق لبيت العم عثمان إلا أن والدتي لم تقابل منال أو والدتها يوماً، حتى حين كنت أنا الضيف الدائم في بيتهم إلا أن أمي لم تُلزم نفسها عناء شكرهم أو حتى تبادل تحية بسيطة، ولكن هذا لا يعني أن صيتها لم يصل إلى مسامعهم أنا واثق دون أدنى مكان للشك أن العم عثمان وعائلته يعلمون علم اليقين ما هي مرتكبة من أفعال إلا أن هذا لم يؤثر يوماً في حبهم أو استقبالهم لي.

ـ من هذا الذي طرق الباب علينا في هذا الليل؟ من لا يعرف الحياء هكذا؟ سعاد من على الباب يا فتاة؟

ـ هي تقول إنها هنا من أجل عمي صاغِر، اسمها منال

ـ لا يعرف ابني أحداً باسم منال، من أنت يا هذه؟ هل أتيت طامعة في مال ابني؟ هل سمعت أنه غني بالمال والمكانة فأتيت تطلبين بعضَ المال؟

ـ لا شيء من هذا خالة غالية، أنا حقّاً أحتاج صاغِر الآن

ـ انظروا لهذه الفتاة العديمة الحياء والتربية، من هذه الفتاة التي تصرخ مصرحة برغبتها في رجل هكذا؟

هبطت الدرجات متخطياً بعضها، كي أمنع والدتي من فعل أمر يحرمني منال، أو قبل أن تتلفظ بكلمات تصفها هي دونَ محبوبتي، لذلك عليّ كبح غضبها بسرعة

ـ منال! ما الأمر؟

صرخ وجهها سعادة خففت من حدة القلق والخوف المخيمين عليها، لتصرخ اسمي ببهجة، لأرتعد كما لو أن فتيلاً طويلاً جداً بدأ بالاشتعال في مكان ما بداخلي.

ـ من هذه الفتاة الوقحة يا صاغِر؟

لم تنادِ أمي اسمي منذ وقت طويل، فمنذ بدأت عملي في السيافة أصبحت تناديني بُنّي، لذلك سماع اسمي يخرج من فمها بازدراء بعد كل هذا الوقت أيقظ في داخلي الذعر كما الرضا، كما لو كنت أنتظر هذا الازدراء منذ أمد.

ـ هذه منال يا أمي إنها ابنة العم عثمان جارنا.

ـ ماذا تفعل ابنة جارنا "المحترمة" هنا؟

صرّت على أسنانها عند كلمة محترمة رغبة منها بالإشارة أن منال النقيض عن ذلك، ويبدو أنها فقهت الأمر لتحمر خجلاً من ذاتها إلا أنها استفاقت من هذا الخجل بسرعة لتهتف:

ـ صاغِر أمي مريضة جداً، وأبي يطلب منك أن تأخذنا للمستشفى فهو لا يقوى على قيادة السيارة الآن.

قبل أن أجيب بالموافقة إذا بأمي تصرخ بأعالي صوتها لتُسمع الجيران:

ـ وهل ابني سائق عندكم؟

انتفضت منال في مكانها لتطأطئ رأسها أرضاً، لأندفع أنا بسرعة قائلاً:

ـ عودي لمنزلك منال، سأبدل ثيابي وآتي فوراً، ثوانٍ فحسب.

أضاء وجهها سعادة لتنطلق دون قول كلمة واحدة، وما أن صفعت الباب خلفها حتى هوت صفعة أمي على وجهي ليدوي صوتها في أركان المنزل الذي لم يتلحن بصوت ضربي منذ أعوام.

لم أجفل أو أنتفض، لم أتفاجأ، بل لعلي رجوت هذه الصفعة، وكم كانت حميمة، معها شعرت بالأغلال المتآكلة في روحي تتغالظ، تقيدني حد الاختناق، ثم تكبح جماحي.

ـ أتجرؤ على تجاهل كلماتي يا صاغِر؟ أم تحسب أنك سيد نفسك لمجرد حملك السيف؟ أنسيت من أكون؟ أم أن اللطف أعماك وأنساك كل تربيتي لك؟

ـ لم أنسَ ولن أنسى مكانتي أمي، أنا فقط أقدم معروفاً لشخص أدين له بما نحن فيه، أنسيتِ أن العم عثمان هو من قدم لي عمل السياف؟ نحن نحيا هذه الحياة الآن بفضل توصياته، لذلك لا بد من رد الدين، أنت لا ترغبين أن يقول أحد إن الخير الذي نحن فيه من فضله، أليس كذلك؟ لاترغبين بفضل أحد عليك، لذلك أنا أقطع لسان أي أحد عن الحديث عن والدتي فلا يجرؤ مخلوق على التجمل علينا.

وضعت يدها على وجنتي حيث صفعتني ليقشعر بدني، لتُضيف بصوت مقزز كما لمستها:

ـ آه ابني اللطيف، أنت تفكر بوالدتك في كل الأوقات، هذا صحيح، لقد أنشأتُك على هذا، بالطبع ما كنت لتضع أحداً فوق والدتك، بالتأكيد كل ما تفعله هو من أجلي أنا فقط، اذهب بني وسدد دينك لجارنا فلا تطالنا ألسنة الناس.

لم أنبس بكلمة واحدة، فقط ابتعدت بهدوء عنها صوب حجرتي مبدلاً ثيابي ثم جارّاً قدمي حيث سيارتي، التي تقف بين باب منزلي ومنزل العم عثمان، ثم أطلقت البوق منذراً إياهم بوجودي مستعدّاً لأخذهم للمستشفى.

وقفت في رواق المستشفى أنتظر أي خبر من العم عثمان أو منال، كما أعلم أني من سيوصلهم عائدين للمنزل، هذا إن كان هذا ممكناً، فمما شهدت في السيارة كانت حال الخالة نبيلة سيئة للغاية، هي تتلوى من الألم، كما أن صوت أنينها لم يتوقف طيلة الطريق. بعد ما يقارب الساعتين، خرج العم عثمان من غرفة الطوارئ والإعياء يسيطر على هيئته، نظر إلي لتتسع عيناه في تعجب:

ـ صاغِر! أما زلت هنا؟ ظننتك عدت للمنزل فلقد تأخر الوقت.

ـ كيف لي أن أعود وأتخلى عنكم في هذا الوضع العسير؟

ـ أعتذر لإخراجك من منزلك بهذه الطريقة والعجلة، ولكنك الابن الذي لم أحظَ به.

وجدت الدموع مكانها في عينيّ، إلا أني أسرعت بإزالتها قبل أن يبصرها العم عثمان الذي كان ينظر لساعة الحائط مراقباً الدقائق تتسارع.

ـ وأنتم عائلتي عم عثمان، طمئني على خالة نبيلة، ماذا قال الطبيب؟

ـ على ما يبدو أن عليها أن تخضع لجراحة، فلديها حصوات في المرارة، هذه المرأة ستفقدني صوابي حقًّا؛ لقد كانت تتألم بصمت منذ وقت طويل، لم تخبر أحداً أو تبدِ ألمها لأحد ظنت أنها مجرد تقلصات، لكن أي تقلصات تكون مؤلمة هكذا؟ لطالما كانت نبيلة شديدة على الألم، لطالما كانت صبوراً...

توقف العم عثمان عن الحديث لأن عينيه تحدثتا حبه ورحمته لزوجته بطريقة ما كان للكلمات أن تصفها، هذا العم لغز لا يمكن فهمه أبداً، من سياف جلود لعاشق مرهف الفؤاد، لأب أحن من أي أم في الوجود.

-١٠-

مر يومان منذ أُدخلت زوجة العم عثمان المستشفى، وقد كان يقوم على رعايتها مع منال، أما أنا فقد بقيت في خدمتهم قدر المستطاع، أردت أن أترك أثراً جيداً عليهم، لأجل الأمل الذي أحمله داخلي بأن نكون يوماً عائلة حقّاً، أن تكون منال لي زوجة. إنه أمل مؤلم لا مثيل له، بالرغم من أمنيتي التي لم أحكِ عنها لأحد، إلا أن جزءاً مني يعلم أن هذا الأمر مستحيل، من قد يمنح ابنته لعائلة مثل عائلتنا، لأم زوج ذي صيت ملأ الحي لسنوات طوال، حتى وإن أحبني العم عثمان أو اعتبرني كابن له، إلا أن ابنته وحبه الحقيقي لمنال وليس لي، كم الأمل العقيم مؤلم!

بعد أن أدخلت خالة نبيلة المستشفى بيومين أقبلت شقيقتها لزيارتها والاعتناء بها مع منال التي لم تر النوم أو الراحة منذ تلك الليلة. اليوم توقفت سيارة العم عثمان أمام منزلهم يترجل منها مع ابنته ويدخل كلاهما للمنزل مغلقين الباب خلفهما، بالرغم من حنيني لكوب الشاي من يد معشوقتي ومسامرة عمي، إلا أني أعلم أن الأفضل أن لا أقلق راحتهما بعد هذا المجهود المضنِي، كما أنه لا بد لي أن أخلد للنوم مبكراً الليلة، لأشد رحالي للمدينة غداً من أجل قصاص علي تنفيذه بأحدهم، وفيما كنت أستلقي على فراشي مناجياً النوم إذا بضوء يخترق نافذتي المطلة على الشارع والتي تسترق النظر على جزء من

فناء جاري، ليعتريني الفضول متسللاً بهدوء نحو النافذة لأرى من يشعل ضوء السيارة في أوائل الليل، فأنا أعلم أن عمي لا يخرج ليلاً؛ ولمفاجأتي كان العم عثمان يركب سيارته بهدوء ملوحاً صوب باب المنزل لا بد أنه يلوح لابنته مودعاً إياها، لينتابني الفضول متسللاً من حجرتي صوب الدور السفلي، متجنباً نظر أمي، وفيما اقتربت من حجرتها سمعت صوت عبد الحليم يطربها فما عادت تهتم لشيء آخر، تنفست الصعداء متابعاً مسيرتي صوب السلالم ومنها للباب الأمامي وبخطوات قَلائل كنت أمام منزل عمي أطرق الباب بهدوء فآخر رغباتي هي أن يلحظ أحد من سكان الحي وجودي ليلاً عند منزل يخلو من رجاله، كما أعلم يقيناً أفواه البشر التي ستتحدث بما يطيب لها دون يقين أو بينة، لتتحور الأقاويل مع كل لسان تنتقل إليه، دقائق وأتاني صوت منال من خلف الباب:

ـ من؟

ـ أنا صاغِر، أتيت أزور عمي وأشرب معه الشاي إن أمكن.

لم تكن زيارتي في هذا الوقت بالأمر الغريب فما هو بأواخر الليل ليكون عمي نائماً، كما أني اعتدت السمر عند العم عثمان في الأشهر الأخيرة الماضية، حيث كنا نبقى برفقة بعضنا بعضاً حتى ما يقارب منتصف الليل.

ـ أعتذر يا صاغِرِ أبي ليس في المنزل، يمكنك المجيء غداً إن شئت.

ـ عسى ألا يكون مكروه قد وقع؟

ـ لا، الأمور على ما يرام لقد ذهب لتسليم الطعام لأمي في المستشفى.

ـ حسناً إذاً هلا أبلغته سلامي؟ وأخبريه أني أتجه للمدينة من أجل قصاص، فإن احتجتم إلى شيء من هنالك فلا تترددوا بالطلب، ليلة سعيدة.

ـ شكراً لك، صاحبتك السلامة.

قالت قولها هذا لأسمع وقع أقدامها يرتحل مبتعداً عن الباب كما لو كانت في عجلة للابتعاد عني، لأشعر بخيبة الأمل تصيب فؤادي كنار كاوية، لأجر قدميّ صوب المنزل بتثاقل، مستلقياً فوق سريري أراقب السقف المهترئ بلا غمضة جفن، لتمر الدقائق ثقالاً حتى عاد الضوء ليخترق نافذة حجرتي، إلا أني لم أتحرك حتى أو أرمش، عدا أن هذا تغير ما أن سمعت صوت طرق على باب منزل العم عثمان، لأهرع واثباً من فوق سريري وصوب النافذة أختلس النظر، ويا ليتني لم أفعل!

الضوء المعلق فوق باب المنزل تدفق بلطف مضيئاً تلك البقعة الوحيدة في الشارع حيث وقف ذلك الشاب يطرق الباب بلطف وهدوء، تساقط الضوء عليه مظهراً إياه كالنعمة الإلهية التي طال

انتظارها من قِبَل شخص ما، ونقمة لمخلوق مثلي، تحت ذلك الضوء بدا النقيض عني، بجسد معتدل الأبعاد، ليس هو ذلك المربوع أو الطويل مثلي، بشرة حنطية مثالية، شارب ولحية مهذبان للغاية، وعلى رأسه وضع الغترة والعقال بإتقان تام، لم أستطع تبين معالم وجهه، عدا أني أعلم أنه سوف يبدو وسيماً في نظر أي فتاة، ولعل منال إحدى تلك الفتيات، عدا أنها ليست مثلهن، أنا أعرفها حق المعرفة هي فؤادي النابض، أنفاس وجدي، معشوقة روحي من الشباب حتى الكهولة. ثم سمعت صوتها يتغنى دلالاً من خلف الباب:

ـ من؟

ـ هذا أنا يا منال، فيصل، افتحي الباب.

سمعت صوتهما بوضوح من حيث أنا وقد ساعد في ذلك سكون الليل السافل.

أرجوك منال لا تفتحي الباب، لا تقتُلِي آمالي وتغتالي إيماني، منال يا كُلّ رجائي في الحياة، أنت الأمل الذي يُحييني، يا صوت غدي، كما كل أحلامي، أتضرع إليك كما لم أتضرع لخالق من قبل، لا تكوني مثلها، أنت لست فاسقة، منال يا نقاء الحياة وعِفتَها، أرجوك لا تكونِي في أحضان الذكور مُرتمية، لا تفتحي الباب، لا تحطمي أغلالي.

إلا أن الباب فُتح بسرعة، ومعه تهشّم أحد أغلظ أغلالي، لأشعر بالوحش يتلبسنِي بابتسامة مِلؤها الرضا، رغماً عن اللمم الذي اعتراني، قهراً عن الوصب الذي فتك أضلعي والسعير الذي أحرق كل كياني،كان هنالك ذلك الرضا الخبيث، المريض، كما الساحر، لم أعلم له سبباً، إلا أنه وجد ليقودني خارج الحجرة وبين أحد أزقة الشارع لأقف تحت عمود ضوء محترقٍ كما آمالي، في هذه العتمة تلاشيت، أنظر بعينين غائرتين تتربصان فريستهما بصبر مطلق، بأنفاس هادئة تمُد جسدي بالحياة الفاتنة، أنى للموت أن يكون مليئاً بالحياة هكذا؟ قبل لحظات لفظ صاغِرِ الضعيف آخر أنفاسه، واستيقظ صاغِرِ الحقيقي داخلي، أهذا ما يدعونه بيقظة الموت؟ أم أن هذا هو الانبعاث؟ لا أعلم ولا أرغب أن أعلم، لقد تحطمت الأغلال، أو أحدها على الأقل، فلم التفكير؟ لم كَبْحُ الذات؟ انطلق صاغِرِ، افعل ما يشتهيه فؤادك ويشبع جوعك.

بهدوء وبصبر لم أعهدهما بذاتي انتظرت، حتى باتت الدقائق ساعات، ثم فجأة فُتح الباب وخرج منه الرجل بابتسامة ملؤها الرضا والسعادة، خرج بهيئة مختلفة عن تلك المهذبة التي دخل بها، لقد حمل غترته على كتفه، وعلق عقاله على ساعده، خصلات من شعره خرجت من تحت كُوفيته المحكمة على رأسه، أغلق الباب دون النظر للخلف، دون حتى أن يتوقف عن السير، كما لو أنه أنهى ما رغب به ورحل،

لقد شهدت هذا المشهد مرات لا تحصى كل مرة خرج فيها ذكر من منزلنا بعد أن أشبع شبقه في والدتي، أجل هم يبتعدون دون النظر حتى، تلك الابتسامة ذاتها ترتسم على محياهم، ابتسامة الرضا القذرة، هذا هو كل ما أحتاج لأعرفه، فلا يقين مثل هذا.

ركب المدعو فيصل السيارة وأدار محركها ثم انطلق مبتعداً عن المنزل، فيما بقيت حيث أنا أتنفس الظلماء، بلا أي مشاعر تخالجني، بلا غضب أو بغضاء فقط الرغبة الملحة التي تتزايد وتتعاظم، مازلت أكبحها ليس خوفاً، بل النقيض، فكلما طال الانتظار كان الرضا أعظم.

أخيراً عم السكون الحي، لأخطو أولى خطواتي من بين الظلام وصوب فريستي، طرقت الباب بهدوء، دقائق وأتى صوتها الرذيل من خلف الباب:

ـ من؟

ـ أنا صاغِر.

ـ ما الأمر صاغِر؟

ـ لقد هاتفني العم عثمان من المستشفى وأخبرني أن آخذك إلى هنالك بسرعة.

ـ لماذا؟ ما الأمر؟ هل أصاب مكروه والدتي؟

ـ لا أعلم أخبرني أن آتي بك على وجه السرعة.

ـ حسناً دعني أرتدِ عباءتي.

لم تكن إلا لحظات وهرعت منال لخارج المنزل مرتميةً على المقعد الخلفي لسيارتي لأنطلق مسرعاً لخارج الحي، من حين لآخر أسترق نظرات لها من خلال المرآة، لاحظت قلقها حيث كانت تنظر للخارج بعينين دامعتين راجيتين، وتانك العينان ذواتهما نظرتا إلي عبر المرآة عدة مرات لتلتقي أعيننا، لم أخفض عينيَّ أو أُشحْ بالنظر كما كنت أفعل، بل ظللت أحدق إليها مجرّداً زيفها مُبصراً حقيقتها التي أُعميت عنها لوقت طويل جدًّا نظرت إليها طويلاً لأنبئها أني أعلم كل شيء عن فعلتها وفجورها، وكما لو أنها تعلم ظلت تبعد عينيها متلافية النظر إلي، وفي كل مرة يزداد اضطرابها

ـ صاغِر، هل أخبرك أبي ما بال أمي؟

ـ لا لم يفعل.

ـ لماذا هاتفك أنت ولم يهاتفني أنا؟

ـ لا أعلم، لقد فعل فحسب.

شعرت بالشك يتسلل داخلها، لتنظر للخارج مرة أخرى، فيتحول اضطرابها لذعر فتصرخ بي:

ـ إلى أين نذهب صاغِر؟ هذا ليس طريق المستشفى.

لم أجبها مكملاً طريقي بين شوارع جدة المقفرة من أي عين قد تشهدنا ليلاً.

ـ صاغِر، هل أضعت الطريق؟ لم نحن في هذه الشوارع الفارغة؟ صاغِر، إلى أين تأخذني؟

وحين تلبسها الخوف من صمتي، مدت يدها صوب الباب جاذبة المقبض، إلا أنه أبى أن يُفرِج معها، حيث إني أغلقت القفل فور صعودها للسيارة، عدا أن قلقها منعها من سماع صوته.

حينها بدأت بالصراخ وضرب زجاج السيارة بكلتا يديها، وبالرغم من خلو الشوارع من العربات إلا أن هذا لا يعني أن أحداً لن يسير فيها ليشهد فتاة تصرخ ذعراً، لذلك زدت من الضغط على الدواسات متسارعاً في الطريق، إلا أنها بدأت بركل مقعدي مما جعلني أندفع بعنف للأمام عدة مرات، حتى كدت أفقد السيطرة على السيارة، ليشتعل غيظي فاقداً هدوئي ملوحاً ذراعي للخلف علها تصيبها وتخرسها أو توقف حركتها إلا أنها ابتعدت حيث لا أطالها، وبحركة سريعة ماكرة أمسكت ذراعي لتغرز أسنانها وأظافرها فيها لأتأوه من الألم، وفي سخطي جذبت ذراعي للأمام بعنف ومعها اندفعت منال للأمام حتى منتصف جسدها، لتصاب بالذعر لتُقلل من قوة فكها المحكم على ذراعي لأعاود جذبها بسرعة حتى تحررت من أنيابها، وبالعنف ذاته دفعت بذراعي صوب منال ليصيبها مرفقي في وجهها قاذفاً إياها للخلف مجدداً، أوقفت السيارة بسرعة في ذعر شديد، ورجاء فيّ يصرخ بعدم موتها، لم أُنزل عدالتي بها بعد، لم أُنفذ رغباتي

فأنا أتعطش لتحطيمها حتى لا يبقى شيء منها.

أدرت جسدي صوبها، لأرى الدماء غطت وجهها، لا عجب من هذا فلقد شعرت بأنفها كما أسنانها تتحطم بمرفقي، وضعت يدي أسفل أنفها لأجد الهواء يخرج منه، فأتنفس الصعداء بهجة من تجدد أملي كما كما اقتراب موعد حكمي عليها.

استأنفت القيادة وهذه المرة ابتعدت عن الطريق منطلقاً للخلاء هناك لا أخشى أحداً، لا مخلوق يوقف بطشي، حيث يتردد صدى صرخاتها لحناً أتعطش لسماعه طرباً.

-١١-

انحرفت عن الطريق المُعَبّد وصوب الخلاء الأكحل الموحش، لقد فقهت الآن لمَ يفتعل البشر رذائلهم في الليل، لِم تهافت الذكور إلى أمي ليلاً دونَ النهار، لأن الليل يواري شهواتنا كما مساوئنا هو يحجب عنا أي ضمير أو خوف من المخلوقات، يقدم للبشر شعوراً بالتحرر من كل القيود، فلا أعين تبصر ولا ضمير يؤنب فهو يلتهم كل شيء حتى نتجرد من حدود الصواب والخطأ، فهو امتداد لظلام أرواحنا ورغباتنا المنحرفة التي توسوس لنا من مكان خفي.

فيما سرت في الخلاء فوق الحصى التي تسببت باضطراب عربتي سمعت أنيناً من المقعد الخلفي، لأعلم أن منال بدأت تستعيد وعيها، وبما أننا بتنا بعيدين عن أعين الخلق أوقفت سيارتي في الخلاء المقفر. خرجت من السيارة وتحركت صوب الباب الخلفي حيث منال التي لم تستعد كامل وعيها بعد، فتحت الباب وبسرعة قبضت على ذراعها اليمنى ومن بعدها اليسرى لأضمهما معاً بعنف، فأسمع تأوهها، ثم انتفض جسدها مذعورة لتصرخ إلا أني أحكمت قبضتي على ذراعها صارخاً:

ـ إما أن تخرسي أو أحطم ذراعيك الآن.

لتبتلع صرخاتها فورًا، إلا أن جسدها المذعور كان يرتعد بعنف عظيم، مددت يدي صوب الشماغ المعلق على كتفي جاذباً إياه بعنف، ثم

أحطته حول رسغي منال عدة مرات محكماً عقده على رسغها بقوة حتى تأوهت باكية، جذبتها من عباءتها لخارج السيارة، إلا أنها لوت جسدها يمنة ويسرة في محاولة التملص مني، يا لها من حمقاء! فما قدرتها بالمقارنة بي أنا الرجل وليس أي رجل، بل السياف العظيم الشديد البأس؟!

دفعت بها صوب الأرض حيث يضرب ضوء السيارة، لأرى الذعر في عينيها، وشفتاها الداميتان ترتعدان وجلاً، كما جسدها الصغير الذي لم يفتأ ينتفض، ومن بين دموع عينيها ناجتني:

ـ صاغِر، أرجوك لا تؤذني، أتوسل إليك فك أسري، أنا منال، أنا جارتك، أنا الفتاة التي لم تر منها أي سوء، تذكر أبي الذي أحبك وعاملك كما ابنه، تذكر أمي المريضة والتي تنتظرني في حجرة المستشفى.

لم أفتح فمي بكلمة، ناظرًا إليها بجوع خانق، أتفحصها من رأسها لأخمص قدميها، فريستي التي أنتظر الارتواء بدمائها، ولكن ليس بعد، ليس بعد ما زال هنالك شيء مفقود في كل هذا، ما زال هنالك الرغبة في المزيد، أريد أن أرى المزيد من الخوف في عينيها، أن أسمعه في صوتها، أشعر به من جسدها الفاتن، أريد أن أشعر بتحطمها كليّاً على يدي، أطمع بالمزيد ولا أعلم كيف أُوجد هذا المزيد.

ـ هل ستقتلني؟ صاغِرِ هل ستقتلني؟ لماذا تفعل هذا؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟ أرجوك صاغِرِ أعدني للمنزل، لن أخبر أحداً بما حدث، سأخرس لباقي عمري، فقط أرجوك أعدني ولا تهتك عِرْضي.

ومع آخر جملة فقدت كل السيطرة على ذاتي، أعِرْضُكِ الذي تخشين مني أن أهتكه؟ ألست أنت من باعت ذاتها؟ من ارتمت في أحضان الذكور؟ عن أي عِرض تتحدثين؟ لقد فقدت هذا الحق حين أمسيتِ مثلها، لقد حافظت عليك وصنتك في روحي، لم أدنسك حتى في خيالاتي، أو أعْرِضْكِ داخل رغباتي القذرة، إلا أنك أنت من كانت دنيئة، أنت من كانت داعرة، إن حصل عليك غيري فلا داعِيَ لكبح ذاتي، فأنا أيضاً سأحصل على شيء منك لإفراغ نزعاتي.

انقضضت عليها بكامل رجولتي، لتتعالى صرخاتها، ويتخبط جسدها بعنف أسفل مني في محاولة الفرار، فيما أغلقت عن ساقيها بقوة، إلا أني دفعت بذاتي داخلها بعنف كبير، لتشهق شهقة واحدة، ثم يتلاشى صوتها لأنين مكتوم، ومن حولي انتفض جسدها بعنف غير مسبوق، رفعت عيني لأراها، فأجد الألم كما الرعب في عينيها، لتكتسحني هذه النشوة العظيمة بالسيطرة، القوة، الجبروت، كما الرجولة التي لم أشعر بها يوماً لأدفع بذاتي نحوها أكثر لتحرر أسنانها المغروزة في شفتها الدامية وتطلق صرخةً رنّ صداها في الخلاء المقفر إلا من الجان .

ومع هذا تعاظمت غريزتي مُحتكِمةً إياي، فما رغبت أكثر من هذا الرعب الكامن في عينيها، لقد شعرت بروحها كما كيانها يتحطمان تماماً أسفل مني، وفي ثورتي أطبقت يدي على عنقها لأحكم قبضتي عليها، فيتبدل رعبها لهلع استحكم عليها، دافعة بقدمها على الأرض في محاولة للهرب مني، لأُضيّق قبضتي أكثر فأكثر، حتى غابت أنفاسها كما أنفاسي، وفي تلك اللحظة تذكرت آخر وصاياه لي:

"تذكر أن تنظر لعيني ضحيتك التالية أيها السياف فلا متعة أفضل من رؤية الحياة تغادر عينَيْ أحد ما"

أجل! هذه هي المتعة، هذه النشوة التي طال بحثي عنها، هذا البريق الذابل، الأنفاس التي أسلبها، هذا الهلع في العينين، الأطراف المتخبطة في محاولة يائسة للنجاة، هي تتخبط بعنف، تنظر إلي برجاء أخير في عينيها، نظرة توسل، لي أنا، أنا السياف، أنا الجلاد، أنا الموت، أجل! أنا الموت متجسداً على الأرض، ولسوف أسلبها من هذه الحياة قهراً.

توقف جسدها عن التخبط، هطلت دموعها من عينيها اللتين فقدتا بريقهما، وثقلت أطرافها، لتنبثق نشوتي كما رجولتي لاهثاً من أنفاس الحياة التي سلبتها، لأهوي على جثتها الميتة ملتقطاً أنفاسي فيما رحلت أنفاسها هي، وتوقف نبض قلبها، بجسد يُسلب دفؤه في ليل هذا الخلاء.

أبعدت نفسي عنها، ناظراً إليها وإلى الجمال الذي صنعته، العدالة التي حققتها، كما المعروف الذي صنعته للعم عثمان بأني قتلت عاره. لوقت طويل وقفت فوق جثتها أتأمل صنعي، أبحث عن الحزن داخلي، عن آثار للندم أو حتى الخوف، إلا أني لم أجد أيّاً من هذا، فلقد امتلأ جوعي حتى ما بات هنالك مساحة لأي مشاعر أن تحشر ذاتها في هذه التخمة التي لا أعلم كم ستطول، إلا أني ما كنت لأجوّع ذاتي مجدداً، ما أنا بحارمٍ إياها هذه المشاعر أبداً، فلقد ظلمت ذاتي لوقت طويل، لقد سجنتها وجردتها من حقوقها لكن ليس بعد الآن، حتى أنت يا أمي لن أخضع لك بعد الآن، فلقد ولد صاغرٍ جديد هذه الليلة.

جذبت الجثة من القدمين ودفعت بها صوب القبر الذي حفرته بيدي، هي لا تستحق الدفن، فالأرض أطهر منها،رغبت أن أدع جسدها الفاسق للحيوانات لتلتهمه، إلا أن فكرة تعفنه وتحلله داخل الأرض كما الدود يلتهمه بدت مرضية أكثر بالنسبة لي. حين هوت الجثة للأرض ألقيت نظرة أخيرة صوبها لأرى أن عينيها ما زالتا مفتوحتين، وبالرغم من أنهما فقدتا الحياة إلا أن الرعب فيهما لم يَزُل حتى بعد الممات، لتسري في رعشة محبوبة وترتسم ابتسامة على شفتيَّ، قائلاً وداعي الأخير لها:

ـ الرعب لا يفترس الأبرياء يا منال.

تولیت عن الحفرة بعد أن ألقيت عليها التراب، ثم اتجهت لحقيبتي في صندوق السيارة، فلقد وضعتها هنالك استعداداً لسفري، ولقد صب هذا في مصلحتي، فهيئتي قذرة بالدماء والأتربة التي اعتلتني، لذلك نزعت عني ثوبي، واستبدلت به آخر بعد أن نفضت التراب عني، ثم اتجهت صوب مقدمة السيارة أجذب قارورة الماء التي جهزتها لسفري، فشرعت بغسل وجهي من الأتربة، كما يدي من آثار الدماء التي خلفتها أسنان الميتة، أخيراً أخذت من درج المقعد الأمامي علبة كبريت كنت أحتفظ بها للتدخين سرّاً في سيارتي من حين لآخر، أشعلت أحد الأعواد ثم وضعته على الثوب، لأعيد الكرة عدة مرات حتى اشتعل الثوب الدامي محترقاً بهدوء في الليل، لتعبر رياح باردة لطيفة حيث أنا فتساعد على اشتعال النيران أكثر فيما داعبتني ببرودتها مخففة عني الحرارة التي تسري في كامل جسدي من فرط مجهودي السابق، من كان يعلم أن القتل من دون السيف منهك هكذا، إلا أنه يمنح شعورًا بالرضا عظيماً.

أدرت محرك سيارتي، مبتعداً عن الموت، وعائداً لطريقي صوب المدينة، حيث القصاص الآخر في انتظاري.

-١٢-

أديت عملي وأقمت القصاص على مُذنب في المدينة، إلا أنه قتل لم يمنحني أي نوع من المشاعر ولا حتى أبهتها، عدا أني لم أمانع فما تزال الليلة الماضية بكل تفاصيلها وأحاسيسها محفورة داخلي أنا أحياها بكل حذافيرها مع كل نفس أتجرعه، أعاود عيش اللحظة مراراً وتكراراً دون كلل أو ملل. قدت سيارتي عائداً لجدة، وما أن أقبل العصر إلا وأنا أسير في حيي العتيق والذي طالته أصابع الزمن، فيما اقتربت من المنزل رأيت سيارات عديدة تقف أمام منزل العم عثمان بما في ذلك سيارة الشرطة، أمر كنت على استعداد له لقد درست كل أقوالي كما أفعالي عدة مرات في ارتحالي ذهاباً وإياباً.

ما أن هدأ هدير محرك سيارتي حتى هبطت منها متجهاً صوب منزل العم عثمان، فمن الطبيعي أن أذهب إليه سائلاً عنه وعن سبب هذا التجمع، فإن لم أفعل لبدوت مشبوهاً خاصة أن كل الحي يعلم من أكون للعم عثمان وما هو لي. طرقت الباب ولم أنتظر إجابة لأدخل حيث إن باب المنزل كان مفتوحاً على مصراعيه، سرت متصنعاً الحذر لدخولي منزلاً لم يأذن لي سيده بالدخول، منادياً بصوت مسموع:

ـ يا ولد، السلام عليكم، عم عثمان هل أنت هنا؟

أقبل عليّ شاب يبدو أنه يكبرني ببضع سنوات، ولسبب ما بدا شبيهاً جداًّ بذلك الرجل الفاجر المدعو فيصل، إلا أنه ليس هو، عدا أن رؤيته فاجأتني كما أصابتني بالاضطراب للحظات:

ـ من أنت؟ وكيف تدخل لمنزل دون إذن أصحابه؟

حمل صوته العدائية، القلق كما الإرهاق الذي بدا جليًّا على هيئته.

ـ بل يجب عليّ أن أسألك أنا عمن تكون، ما الذي تفعله في منزل العم عثمان؟

ـ يبدو أنك الجار الذي ظللنا نبحث عنه منذ البارحة، أنت صاغر، أليس كذلك؟

عاد الاضطراب لي، لماذا قد يبحثون عني؟ هل رآني أحد من سكان هذا الحي التعيس آخذ منال من منزلها؟ هل شهد أحد رحيلنا معاً؟ أم أن أحدهم تبعنا ورأى الحادثة كلها؟ أيعقل أني لم أنتبه لوجود أحد يتبعنا؟ أحقّاً أنا غبي لهذه الدرجة فلا ألحظ سيارة تتبعنا حتى الخلاء؟ ماذا لو أن منال نجت من الموت وزحفت خارج قبرها قاصةً لهم فعلتي؟ لكنني رأيتها ميتة، شعرت بأنفاسها تخبو كما نبضها يتوقف، أكان كل هذا وهماً؟ أهذه نهايتك يا صاغِر؟ روحي لتفر من جسدي ذُعراً، تسارعت الدماء في جسدي حتى شعرت أن كل نبض ينبضه قلبي يحطم ضلعاً من أضلعي، بدا لي أن العالم ساكن وصاخب في الآن ذاته، تباطأت دقائق الزمن، وانتفض جسدي أسفل ثوبي وقبل أن

أطلق العنان لقدميّ بالفرار إذا صوت العم عثمان يأتي من خلف الشاب:

ـ صاغِر، أهذا أنت بنى؟

مع كلمة بني أفقت من سَكْرةِ هلعي، ما دام العم عثمان يناديني هكذا فهذا يعني أن لا عِلم لأحد بما افتعلت، أني بأمان وسري لم يفضح، "اهدأ صاغِر، تنفس الصعداء واستعد رزانتك، فهذا الاضطراب سيفضحك، تذكر أنت لم تكن هنا، لا تعلم شيئاً، افعل ما تجيده أكثر من أي شيء آخر، ألا وهو النجاة."

خطوت صوب العم عثمان متجاهلاً الشاب الواجم أمامي،لأصعق من هيئته التي لم أر لها مثيلاً من قبل، لقد بدا أشعثَ، كهلاً، ومهموماً.

ـ أجل عمي أنا هنا، ما بالك لم تبدو مهموماً؟ هل أصاب مكروه الخالة نبيلة؟

ـ أين كنت منذ البارحة يا صاغِر أنا أبحث عنك في كل مكان؟

ـ لقد ذهبت للمدينة من أجل إقامة القصاص على أحدهم، ألم تخبرك منال بهذا؟

ارتعد جسده مع ذكر اسم ابنته، وامتزجت عيناه ما بين حسرة وأمل لينطق مبهوتاً:

ـ أتحدثت مع منال؟ متى؟

ـ البارحة عمي، أتيت لأشرب الشاي معك وأرى إن رغبت بشيء من المدينة، إلا أن منال أخبرتني أنك لم تكن موجوداً فأخبرتها أن توصل سلامي لك، ما الأمر عمي؟ أصبتنى بالقلق.

اقترب الشاب من خلفي قائلاً:

ـ متى كان هذا؟ متى تحدثت مع منال؟

تمنيت لو أنتزع الحياة منه، ولكن تمالكت ذاتي فهذا ليس بالمكان أو الزمان المناسب.

ـ قرابة الساعة الثامنة تقريباً، هلا أخبرني أحدٌ بما يحدث؟!

ترنح العم عثمان وانحنى ظهره، ليهب الشاب صوبه يأزره، ثم قاده بلطف لداخل المنزل حيث رأيت شابين آخرين وثلاثة من أفراد الشرطة الذين أعرفهم بحكم عملي معهم.

جلس العم عثمان على أحد المقاعد ليتجه الشاب محادثاً الشرطة بما قلته فيما اقتربت من عمي أحاوره:

ـ عمي بالله عليك أخبرني ما الذي يحدث لقد أقلقتني.

رفع عمي رأسه بحزن وكسرة، ناظراً صوبي بعينين دامعتين ذابلتين:

ـ لا نجد منال يا صاغِر، لقد عدت للمنزل البارحة عدا أنها لم تستقبلني بابتسامتها المعتادة، في البداية ظننتها نائمة من فرط الإرهاق لذلك لم أتفقدها حتى لا أقلق راحتها، لكن عندما لم توقظني للفجر كما العادة اتجهت لحجرتها لأطمئن عليها، عدا أنها لم تكن موجودة، لا أثر لابنتي يا صاغِر.

تصنّعت القلق كما الصدمة، كما لو أنني لست بقاتلها البارحة.

كيف يحدث أمر كهذا يا عمي؟ ماذا تقصد بأن منال مفقودة؟ لقد رأيتها البارحة، لقد حاورتها قبل ساعات فقط!

اغرورقت عينا العم عثمان بالدموع التي تساقطت فيما أطلق شهقات من بين آهاته، جسده الضخم ارتعد كجسد كهل سرقت منه الحياة غليظ شبابه، بدا مشهده مختلفاً عن عهدي به، وفي داخلي ذلك الشعور الذي يوصف بالشماتة، لِم أشمت به؟ لا أعلم، أأشعر بالسخط من ذاتي التي شعرت بالشماتة من أقرب البشر لي؟ لا، لست أملك خيط مشاعر واحداً يتصل بالإنسانية في هذه اللحظة، هذا الاصطناع والتصنع جميل جداً، ليس كالذي كنت عليه من قبل، ذلك التصنع المريض، فهذا القناع يعجبني لأنه يسخر من غيره ويستحقر حماقتهم وعقولهم الصغيرة، إنه تَصنع مُجرد من الخوف.

اقترب أحد رجال الشرطة طالباً مني أن أرافقهم للقسم حتى أدلي بأقوالي ولم أتردد في ذلك، صعدت في سيارة الشرطة ليتبعنا الشاب الذي في منزل العم عثمان، لا أعلم من يكون إلا أنه يبدو كأحد أقارب العم لذلك أعلم أن لا مكان لي بينهم.

ـ نعتذر عن القيام بهذا يا صاغِر، فأنت فوق الشبهات، ولكن الإجراءات تتطلب منا أخذ أقوال الجميع وتسجيلها في محضر رسمي.

ـ لا داعِي للاعتذار حضرة العميد، أنا أعلم أنك تقوم بالواجب، كما أني مستعد لفعل أي شيء من أجل عمي، فأنت تعلم مكانته عندي.

ـ أجل، لا يخفَى على أحد علاقتك بالسياف عثمان، وهذا ما سيجعل إفادتك هي الأهم.

أعدت سرد الأحداث كما ذكرتها قبلاً، دون أن أذكر أو حتى أهمس بوجود الرجل المدعو فيصل في المنزل، وذلك لسببين أولهما أني سأضع ذاتي في مكان تساؤل عن سبب تلصصي على منزل جاري، أما الأمر الآخر والأكثر أهمية فهو رغبتي في رؤية وجه العم عثمان عندما أذكر هذا الحدث بطريقة عرضية، كما لو أنه أمر ليس ذا جلل، إنه مجرد كوب شاي آخر.

لِم أرغب في إتعاس العم عثمان هكذا؟ الرجل الذي أُحبه جداً، من قام بتربيتي والاعتناء بي دونَ العالم؛لم تبهجني تعاسته؟

ـ لأنه عَميُّ البصيرة، لم ير الفاسقة التي تقطن تحت سقف منزله، تلك المنحلة التي أحبها أكثر مني أنا، لقد احتلت من فؤاده ما لم أجرؤ أنا على التمني، ما ظننته حبّاً كان مجرد شفقة لا أكثر، أنا أعلم هذا الآن، هو لم يحاول حمايتي من إِساءة الأطفال لي في الصغر، لم ينههم أو يمنعهم من ذلك، لم يسألني يوماً عن النُّدب التي حملها جسدي بسبب والدتي، عثمان حتى لم يقتدني من يدي صوب المدرسة لأدرس مثل باقي الطلاب، لم يشترِ لي يوماً ثوباً واحداً حتى

عندما سرت بثياب ممزقة مرقعة، أين الحب في تجاهله لي عند احتياجي له، ثم التقرب مني عند حاجته لي، أكان أخذي للصلاة في كل فرض أسلوبه في إبراء ذمته أمام ربه؟ أم أمام أبي الذي أوصاه عليّ قُبيل الموت؟ بالنسبة له لم أكن إلا إبراء للذمة وتطهيراً للضمير، أراد إجابة يجيب بها ربه إن سُئِل عني، رغب بحجة وقد صنعها، فأين الحب بين الذريعة؟ وأين كانت هذه البصيرة عني؟ ليتني قتلت منال قبل سنين طوال، ليتني حررت أغلالي الغلاظ، أشعر كما لو أنني أرى الحياة والبشر كما ذاتي لأول مرة، هذه الأنفاس التي أستنشق هي أنقى ما دخل صدري ومع كل شهيق أجد غشاوتي تنقشع كما الأغلال تنحل.

عرض الشاب إيصالي مجدداً لمنزلي، بعد أن انتهت الشرطة من أخذ أقوالي، فوافقت بتواضع وكلي بهجة برؤية وجهه قد ازداد قتوماً عندما لم يجدوا أي خيط أمل يوصلهم لمنال. كان طريقنا ملؤه الصمت الخانق لسائقي أما أنا فقد استمتعت بسماع زفراته اليائسة تغادر هاربة من صدره من حين لآخر، أصابعه المضطربة تنقر على المقود بتململ، صوته الحانق قائلاً: أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كل أفعاله الضئيلة محل سخريتي كما بهجتي، كم هو أحمق جاهل، لا يعلم أن من يجلس بجانبه هو من سرق منال، هذا السياف الذي يقطع الرقاب لإحقاق الحق، أوجد عدالته على منال، لمِنَ الممتع أن

أرى الاضطراب كما التساؤلات تنهش أرواحهم، باحثين في كل الأرجاء طارحين آلاف الاحتمالات، متخبطين في هذا الجهل القاتل بلا مجيب أو مطمئن لأفئدتهم، داعين الله أن يعيد إليهم ابنتهم أن يقر أعينهم بها، غير عالمين أن المفترس بينهم، يحمل في ثناياه كل الإجابات، أنه حفر في باطن عقله ما حدث بكل لحظاته وتفاصيله حتىأحقرها، لا يعلمون المتعة التي أحظى بها في تعاستهم والمجهود الذي أتكبده حتى لا أصرخ بأعالي صوتي أني من اغتصبها وسلب منها حياتها فيما راقبت الضوء يسرق من عينيها، لكن لكل شيء أوانه وما تزال متعتي في بدايتها فحسب.

دخلت منزلي يستقبلني الصراخ والشتم، أمر أيقنت وقوعه، وبخطاً كبيرة متسارعة أقبلت صوبي بهيئة رثة كما لو أن الجنون قد طالها:

ـ صاغِرِ أيها الفاجر الذليل، أين ذهبت؟ كيف لك أن ترحل دونما إخباري؟

نظرت لهيئتها لتعتريَني الشفقة كما الازدراء منها، كل حبي لها كما خوفي منها قد اندثر، فلقد دفنته داخل ذلك القبر معها.

ـ ها أنا ذا هنا، فلا داعِيَ للصراخ والانفعال، فلقد سئمت هذه الأفعال.

رأيت فيما تطاير الشرر من عينيها وأطلق فمها زمجرة ساخطة، لتنطلق صوبي كمن يتلبسها الجان، باسطة ذراعيها دافعةً بهما صوب عنقي

لتزهق روحي، ولأول مرة بدت ضئيلة جداً، بالرغم من أن بدني أضخم منها بعدة مرات إلا أني لم ألحظ هذا الفرق قَبل هذه اللحظة، لو أني أحكم قبضتي على عنقها لحطمت حنجرتها دون جهد يذكر، لكن لا! عليها أن تشقى معي كما كانت هي شقائي، سأذيقها ما أذاقتني إياه.

أحكمت قبضتي على معصميها مانعاً إياها من الاقتراب مني، لتتأوه من قبضتي التي آلمتها، وحين سمعت أنينها شعرت بالمرض يضرب معدتي قاذفاً بي صوب تلك الليالِي التي تَغَنت بأنينها الفاجر، ومن غير وعي مني شددت على ساعديها أكثر لأسمع فرقعة من أحدهما، عندما تحول الأنين لصراخ أفقت على ذاتي مطلقاً سبيلها لتهوي على الأرض ترتعد، فيما تلحف شعرها حولها. نظرت إليها في ذعر من ذاتي التي كادت أن تعود لماضٍ لم أرغب معايشته مجدداً، أما هي فقد نظرت إليّ بعينين لم أعهدهما فيها، إلا أني رأيتهما من قبل، هما تشبهان عينيْ تلك القطة عندما قَتَلتُ هريرتها، بدت محطمة، مهزومة، كما واهنة.

نظرت إليّ كمن ترجوني الشفقة، لم تحمل عيناها خوفاً أو فاجعة، مدت يديها المرتعشتين صوب ذيل ثوبي قابضة عليه بأناملها الضعيفة بقوة، واضعة جبهتها على أطراف ثوبي تنتحب وبصوت مرتعش تحدثت:

ـ لا تهجرني لا تنبذني، لا تحطم فؤادي مجدداً، لقد عشت حياتي كلها لا يعرف فؤادي سواك، لقد انتظرتك وانتظرتك أكثر، إلا أنك لم تلتفت إلي، لقد رحلت حقّاً وأخذت معك كل شيء لقد قضيت علي وأهلكتني كما أهلكت روحي، أرجوك لا تتخلَّ عني، يا كل من أحب وأبغض.

تأججت نيران غيظي، إلا أن فضولي كان أعظم، أعلمُ عِلم اليقين أن هذه الكلمات ليست موجهة لي، هذا الرجاء كما هذا الانكسار ليس مني أو من أجلي، هي تُحدث شخصاً آخر لم يكن أنا، من حطم هذه المرأة الصلبة القاسية؟ من سرق عقلها حتى باتت تراه فى؟ لأجد الكلمات تخرج من فمي قهراً عني:

ـ ما الذي تتحدثين عنه؟ أنا لم أهجرك؟

ليست هذه الأسئلة التي رغبت في طرحها إلا أني خشيت طرح الأسئلة الصحيحة فأحصل على إجابات تقتلني، وكما لو أنها استعادت وعيها من جنونها، أرخت قبضتها عن ثوبي، رافعة عينيها صوبي بخشوع، ومن بين دموعها تبسمت بذُلّ:

ـ عمن سأتحدث؟ عن والدك بالتأكيد، لقد رحل وتركني بمفردي، لقد هجرني

ـ هو قد مات ولم يهجرك، بالتأكيد تعلمين الفرق بين الاثنين! ليس وكأنه اختار الموت وتركنا بمفردنا.

عضت شفتها في صمت كما لو كانت تحاول بلع الكلمات داخلها، ثم نهضت متثاقلة من على الأرض ناظرة لعيني بشوق وشجن:

ـ صحيح هو قد مات منذ أمد، منذ خمسة وعشرين عاماً

ـ لقد مات منذ ثلاثة وعشرين عاماً، لقد كان عمري عاماً عندما توفي، تذكري عمري وسنوات رحيل زوجك على الأقل.

ـ لا هو قد مات منذ خمسة وعشرين عاماً، أنت فقط من لا يعلم.

ضقت ذرعاً بهذا الحديث الفارغ معها وما كنت لأجادلها عن عمري، فأدرت ظهري لها متجهاً للدرج

ـ أيّاً ما تريدين، أنا متعب من السفر، سأصعد إلى حجرتي للنوم.

سمعت صوت خطواتها تتحرك بـ تلقلق خلفي، إلا أني لم أعرها أي اهتمام وفيما ارتقيت الدرجات أتاني صوتها المرتعش من خلفي:

ـ صاغِر، أنت لن تهجرني، أليس كذلك؟ أنت لن تنساني وتنكر وجودي، أهذا صحيح بني؟

نظرت إليها من فوق كتفي، لأقول بتضجر:

ـ لا لن أفعل

استطردت الصعود لأنهي جملتي بصوت خافت لا تسمعه:

ـ ليس الآن على أي حال، فلم أفرغ منك بعد.

-١٣-

مر يومان منذ عودتي من المدينة، وما زال البحث عن منال قائماً، والدتها ما تزال في المستشفى تعاني الجنون لفقدان ابنتها وخشية عليها من الموت لم يخرجها عثمان من هناك، فيما ظل يبحث كالمجنون عن ظل ابنته عن ريح تحمل شذاها، أما الحارة فقد انشغلت بنقل القيل والقال عنها، ملطخين بسمعتها وشرفها الوحل، لقد كان هذا السبب الوحيد لذهابي للمسجد من دون عثمان، رغبت سماع ما تتناقله الألسُن عن هذا الاختفاء الغامض، وخيوطه التي تدل على احتمال واحد، فتاة هربت مع رجل تحبه، فتاة بَغِيّة قصمت ظهر والدها ملطخة شرفة. إلا أن كل هذه الأحاديث باتت مملة لي، كما أن المتعة التي كنت أحظى بها تتلاشى لذلك وجدت أن الوقت مناسب لتجديد متعتي وإلقاء النبأ الصاعق على عثمان.

في يوم بعد صلاة المغرب، ذهبت لمنزل جاري الذي لم يجرؤ على الذهاب للمسجد منذ اختفاء ابنته، لعله لم يصدق أنها قد هربت مع رجل ما، ولكن الآن وقد مضت ثلاثة أيام على اختفائها دون أثرٍ يُذكر أو جثة تظهر، لا بد أن الأمر بات بيناً له هو الآخر ولو أنكره بكل نياط فؤاده، على غير العادة لم أجد ذلك الشاب ماجد والذي بت أعرف اسمه من زياراتي المتكررة في اليومين الماضيين، جلست بالقرب من عثمان المنكسر ظهره، أراه ينظر للأرض بعينين فارغتين من الحياة، وعقل بالكاد يحضره.

ـ عمي، أأنت بخير؟ أعلم مشقة ما أنت به، إلا أن عليك التماسك، من أجل خالة نبيلة ومن أجل منال التي لا بد أنها تحت هذه السماء.

نظر إلي بعينين زجاجيتين خاويتين من المشاعر ومن بين شفتيه المتشققتين تمتم:

ـ أنا أفقد كل شيء صاغِر، لا أجد خيطاً يقودني لابنتي التي هي وجودي كله، ولست قادراً على النظر إلى زوجتي التي تفقد عقلها من الجهل الذي نغرق به، لسنا نعلم كيف هي أيام ابنتنا.

ـ لا تفقد الأمل يا عمي، ولا تستمع لأقاويل أهل الحي، منال ليست ما يتهامسون به عنها.

بدأت بالتمهيد لضربتي التي ستقتله، الآن سأخبره عما رأيته في ذلك اليوم، لأراه محطماً كليّاً، وفي تلك اللحظة لمعت عيناه يقيناً منقطع النظير، وانتفضت الحياة به متحدثاً بالقوة التي عهدتها منه:

ـ لا يهم ما يقوله سكان هذا الحي القذر عن ابنتي، لو أن كل سكان هذه الأرض قدموا إليّ يشهدون برؤيتهم ابنتي مع أحدهم، فلست أصدقهم لست أصدق في ابنتي، هذه منال، ابنتي، تربية نبيلة، هي ابنة رجل لم تنكس ولن تُنكِّس رأس أبيها أبداً، ولسوف أقتل أي مخلوق يأتي بذكرها بغير ذلك، لهذا لست أذهب للمسجد، ليس لأني أواري شرفي المحطم، بل لأني أخشى ارتكاب جريمة في أحدهم، فليست ابنتي أنا من يُتحدث عنها وعن شرفها بسهولة، ولسوف يعلم الجميع يقيناً أن ابنتي ليست قصة يعلِكُها أهل الحي لتسليتهم.

شعرت بالذعر يتسلل إلي، هل أنا قادر على ذكر ما أرغب به؟ هذا الرجل لا يملك ذرة شك في ابنته التي اختفت من دون أثر، ليس يسمع فيها حديثاً سيئاً وحزنه ليس من أجل شرفه، بل ذعراً على قدر ابنته. أأنا شجاع لأتحدث؟ أهي بسالةٌ أم ضرب من الجنون؟ إذاً لأكنْ حذراً في حديثي، لأزرع الشك قليلاً به ثم أراقب بحذر ما سيحدث.

ـ أتفق معك في هذا يا عمي، فلا أحد يعرف منال مثلنا، لكن يظل عقلي يقذف بي من مكان للآخر، أعلم أن منال ليست ما يُقال عنها، ومع هذا فإن التحقيق الجاري يؤكد أنها رحلت وفق إرادتها فلم تجد الشرطة أي أثر لنزاع أو شجار، لم يسمع أحد من الجيران شيئاً، فماذا حدث حقّاً؟ من هذا الشخص الذي تثق به منال لترحل معه؟ وأين هي الآن؟ ولكن يا عمي هنالك ما يشغل بالي بهذا الشأن وأرغب أن أخبرك به أنت أولاً...

فجأة فُتِح باب المنزل ليدخل شاب جعل كل عصب في جسدي يَنْفِر، هو ذاته ذلك الشاب الذي وقف تحت الضوء كالنعمة الإلهية، من رحل تلك الليلة سعيداً بعد ما حصل منها على ما يشبع نزوته، لِم يُقبل هنا كما لو أن له من هذا المنزل نصيباً؟ أنى له أن يظهر ذاته الدنيئة لوالد الفتاة التي لطخ شرفها؟ بسببه كان عليّ أن أقتل منال، بسببه هو احترق فؤادي، لقد كان حبها هي وليس أنا، أنت السبب في كل ما فعلت، لست نادماً عليه ولكن إن تحتم علي لوم أحد فهو أنت.

أحيلت عينا عثمان صوب الوافد وبرقت عيناه بقليل من الأمل، ناهضاً من مكانه صوب فيصل الذي يبدو عليه الإعياء كما الإحباط.

ـ أوجدت شيئاً يا فيصل؟

ارتعد جسدي عندما ذكر عثمان اسمه، ألم يكن مجرد رجل آخر؟ أهو أكثر من مجرد طارقٍ للباب؟ من هو لعثمان ومنال؟

نكس فيصل رأسه صوب الأرض في ذل قائلاً:

ـ لا شيء يذكر، لا أثر لها على وجه الأرض، لا أجدها تحت هذه السماء.

سقط عثمان على ركبتيه منتحباً ومن بين دموعه قال برجاء:

ـ يا الله استودعتها لديك أمانة أنت أرحم بها منا فإن قبضتها فارحمها وإن رددتها فاحفظها بعينك التي لا تنام، وإن كان من تحت السماء جباراً، فاقبضها إليك يا رحيم ولتحتوِها الأرض رحمة ممن فوقها يا الله.

جلس فيصل عند عثمان واضعاً يده على كتفه المرتعش يخفف عنه ليجيب بأسىً:

ـ لو أنني بقيت معها تلك الليلة، لو أنني لم أخرج للسهر مع رفاقي ذلك المساء، أنا آسف هذا خطئي، هذا خطئي لأني لم أحمِها.

تسارعت نبضات قلبي لتغلي الدماء داخل عروقي، شعرت بالذعر يلتبس كياني، أيعقل؟ أمن الممكن أني تسرعت في الحكم؟ أغبائي مستحكم حتى أني أسأت فهم الأمر؟

ولأول مرة في حياتي البائسة أدعو الله في سري:
يا الله، أرجوك لا تدعها تكون عفيفة أتوسل إليك لتكن منال ما اعتقدت بها، يا الله أدعوك بأول دعاء في حياتي كلها، ارحم روحي من معرفة حقيقة مخالفة لما في عقلي، ولتستر عليّ بِسترِك الذي لا ينكشف
إلا أن دعوتي ارتدت إليّ قبل أن تصل للسماء حتى، حين أردف فيصل:
ـ كان لا بد لي أن أرعاها جيداً حتى وإن كانت أختي بالرضاعة إلا أنها تظل أختاً لي، كان لا بد لي أن أحميها كما أحمِي شقيقتي من والديّ، أنا آسف.
توقف كل العالم لثوانٍ، تلاشت نبضات فؤادي حتى كاد قلبي أن يفقد نبضه، لست أشعر بجسدي أو عقلي، وبت أنظر دون بصرٍ يفقه ما يراه، كل ما تراءى لي هي تلك الأعين الميتة تنظر إلي فيما واريتها بالثرى، تردد صوت أنفاسها المختنقة في أذني وتزلزلت الأرض تحتي كما لو أن جسدها المنتفض أسفل مني، شعرت بكل صفعات الحياة تتوالى علي مجدداً، هي تصيبني دفعة واحدة لتسري الآلام فيّ مجرى الدماء المتدفقة صوب فؤادي وعقلي، لأشعر بالفزع يتحرك بشراييني واجداً طريقه صوب فمي، حتى كاد يُقذف منه كصرخة مدوية، إلا أن ما منع هذه الصرخة من الهرب هو شعوري بألم لا يرحم في ظهري، أهذا هو معنى "قُصِم ظهري"؟ كيف يمكن له أن يُقْصم من دون تأثير خارجي؟

ولكنه قُصِم فعلاً، أنا من قصم ظهره بنفسه، عليّ الفرار من هنا، الآن وحالاً، فلست أقوَى على خنق الصرخة مدة أطول، الآن وبسرعة قبل أن أخِر على قدمي معترفاً بكل ما ارتكبته في حق تلك الفتاة، قبل أن أصبح في الحد الآخر من السيف.

هرعت خارج المنزل في خطاً مُتسارعة متجاهلاً كل ما يحدث من نواح للعم عثمان الذي كنت قاتله، الخطوتان اللتان كانتا بين منزلي ومنزل عمي بدتا كما لو كانتا دهراً لا ينتهي، ومع كل خطوة غابت أنفاسي أكثر، غُشيَ بصري أحلك، وتسارعت الصرخات صوب فمي لأضع يدي عليه حابساً خطيئتي من الفرار، صفعت باب المنزل بسرعة وأحكمت إغلاقه، فكل ما تبادر لذهني هو منع أي أحد من الدخول إلى هنا وإلقاء القبض علي، بالرغم من أنها فكرة غبية مثل صاحبها إلا أنها كل ما تبادر لذهني، عليّ أن أحمي نفسي من ذاتي، عبرت الفناء راكضاً ومنه صوب الدرجات التي تقودني لحجرتي لأغلق الباب خلفي ومعه هوت قدماي للأرض لأتكئ على الباب، الآن قد غادرت أنفاسي تماماً من جوفي، ليحل الذعر متسابقاً صوب فمي وقبل أن أهتك ستري فتحت فمي واضعاً ذراعي فيه وبكل ما في من قوة عضضت على أسناني لأكتم صرخاتي هارباً من وصبٍ فتك بكل كياني، عليّ أن أصاب بألم أشد مما أشعر به في جوفي الآن، لأزيد من ضغط أسناني على ذراعي وأتذوق طعم الدماء في فمي إلا أن هذا ليس بكافٍ، ليس بعد ما زالت روحي تحترق، وذعري يفتك بي، أريد الهرب من ذاتي إلا أن لا مهرب لي مني، فأنا أضعف من أن أجابه ذاتي.

بدأ العالم يتلاشى لسواد، لست أعلم هل هو من فرط الألم الذي أكيله على ذاتي، أم أن عقلي استسلم من محاولة العيش في هذا الواقع، أو لعلها روحي قررت الهرب من هذه الحياة التي تبغضني، الآن بات العالم ساكناً ومظلماً إلا من صورة جسدها الذي اِنتهكت حرمته ومن صوت أنفاسها تسلب منها .

-١٤-

مطأطئاً رأسي للأرض ذرفت دموع الأسى والحسرة على روح خالة نبيلة زوجة العم عثمان ووالدة منال، لم تتحمل تلك المرأة المسكينة فقدان ابنتها التي لم يعلموا بعد تحت أي سماء هي، ولكن قد أعلنت الشرطة التوقف عن التحقيق بعد أسبوع كامل من البحث، فلقد تم الاستنتاج أن الفتاة خرجت من منزلها برغبتها الكاملة، نصف حقيقة لا يعلم غيري تتمتها، والآن شرف منال بات علكة تُحكى على كل لسان، باتت عبرة لأهالي الحي وجدة كي يحفظوا بناتهم ويمنعوهن من الخروج، ليقوموا بالاتعاظ ويزوجوا بناتهم مبكراً قبل أن يجلبن العار على أسرهن، قبل أن يكن السبب في طأطأة رؤوس رجالهن، باتت منال عبرة لكل من يعتبر، الفاسقة التي تلحفت بالعفاف والحياء، هذه هي قصة ابنة السياف الذي لم يعرف كيف يحافظ على عرضه.

لو علِم أحد بالحقيقة فحسب، ولكن من سيقصها عليهم؟ أأنا الرعديد سأفعل؟ أأحكم على عنقي بحد السيف؟ لا وألف لا، لقد ارتكبت خطأً متسرعاً، هذا ذنب أعترف به، الشك بها وقتلها كان ذنبي بكل تأكيد، ولكن أيقع كل اللوم علي؟ لا أعتقد هذا، لأن هذا عمل القدر الذي كتبها ميتة على يدي، كما أن منال مخطئة أيضًا، ما كان عليها استقلال السيارة معي، حتى وإن كنتُ رجلاً عرفته طيلة حياتها فما أنا لها بمحرمٍ أو قريب، كان عليها أن تكون أكثر يقظة من هذا، لذلك جزء من اللومِ يقع عليها.

أما الجزء الأكبر فهو على والدتي التي أفسدت عقلي، بعضٌ مني يؤمن أن النساء غير عفيفات، البعض الآخر يجزم أنهن ضحايا الحياة والذكور والمثير للسخرية أني أثبت هذا الأمر بأفعالي.

حين تبدلت طريقة تعامل والدتي معي، أصبت بالاضطراب الذي لا أعلم كيف أفر منه، كل شيء بات مختلفاً عما أعرفه، مُلئت حياتي بالأضداد المتصارعة، فما بت أعلم الحقيقة من النفاق، الحق من الباطل، هي من حطمني في صغري ثم عصفت بي في شبابي، والأمرّ من كل هذا أني لا أجد الجرأة لمجابهتها بعد الآن، ذلك الجبروت الذي نلته بعد قتلي لمنال تلاشى، فلَم أقوَ على الاقتراب من أمي بعد.

الآن باتت أغلالي أغلظ من ذي قبل، لقد كبلت ذاتي كما لم يفعل مخلوق، أغلال وسلاسلُ أُحكمت بطبقات من الذعر لا تنتهي، عليّ أن لا أفقد هذا الخوف كما الوهن، لأبغض ذاتي حتى لا أمنحها حق الشعور مجددًا، لأظل أسيراً داخل هذا الظلام المقفر، لا حقّ لي في تلك المشاعر، التحرر، الجبروت، كما النشوة، تلك اللحظات التي أسرتني وأيقظت روحي باتت ندماً لا يمكن أن يتكرر، لأحيا كما الأموات، فأنا حي لأني لم أمت بعد.

فرغ المنزل من المعزين الشامتين الذين أتوا فقط ليروا انحناءة رأس العم عثمان من شرف ابنته، إلا أني أعلم جيداً أنه يؤمن ببراءتها وعفتها حتى هذه اللحظة ما زال يثق بها، حتى عندما تخلى أقرباؤه كما إخوتها عن هذه الثقة هو لم يتزعزع عن يقينه، لقد سمعت فيصل يحكي لأحد أشقائه أن تصرف منال بدا غريباً ليلة زارها لقد مازحته طالبة منه الذهاب لأصدقائه حتى يتسنى لها النوم مبكراً، لعلها رغبت منه الرحيل حتى يتسنى لها الهرب، كم البشر منحطون!

ما كان ليجرؤ على قول هذا أمام العم عثمان الذي فقد عائلته وعالمه، وما أنا على هذا الذنب بمتين، لذلك قررت أن أبتعد عن هذا الحي وذلك المنزل، أريد الفرار من خطاياي، من ذكرياتي كما آلامي، سبب بقائي اندثر، إن بقيت هنا فلن أتمكن من المضى قدماً، سأرى منال فى عينَيْ والدها عند كل لقاء، سأترقب سماع صوت أساورها بين خطواتها في الفناء، أنتظر صوتها يناديني من بين شقوق الباب، تلك الفتاة قد فنيت، دفنتها تحت الأرض علي أن أتقبل هذا وأتعظ من زلتي، لكني غير ملزم بالعيش في معاناة، لقد كان قدرها أن تموت على يدي، ومن أنا لأخالف القدر؟

طرحت مقترح الانتقال من هنا لوالدتي التي لم يتبدل حالها عمّا سبق، إلا أنها تقبلت المقترح فوراً، كما لو أنها أيضاً ترغب الفرار من هذا المكان المليء بالأسى، حارةٌ نضخت بمساوئ البشر، ألسنةٌ تجلد كسوط يمزق الروح، نفاق ورذالة نجست أيامنا، وبيت كبير متهالك موحش كما هي أفئدتنا الميتة. وجدنا بيتاً كبيراً لننتقل إليه ولم نتأنَّ في البحت فكلانا يرغب الفرار من هذه الحياة، وقد كنا لنفعل فوراً لولا أن الخالة نبيلة وافتها المنية، لأبقى هنا قهراً، في محاولة بائسة لإثبات بصيص ندم داخلي، عدا أن اليوم هو آخر أيامي هنا، هذه الليلة أرتحل من هذا الحي الوضيع، مانحاً ظهري لكل قاطنيه، ذكرياته كما بؤسه.

لم أتمكن من توديع العم عثمان الذي انزوى كبقايا إنسان في حجرته قبل انتهاء العزاء حتى، ولم أرغب توديعه، لتفترق طرقنا من دون أي حوار أو مساءلات، لأختفي من هنا كما لم أكن.

عدت للمنزل مرة أخيرة مغلقاً الباب خلفي بسكون، وبهدوء حذر سرت في أركان هذا الصندوق المهترئ، جررت قدمي بحذرٍ قلق كما لو أني أخشى إيقاظ الذكريات النائمة ووحوش الماضي، هذه الجدران الخرساء رددت صدى ليلى لحنًا موجعًا لا ينتهى، حتى بعد توقف الفجور إلا أن اللحن ما زال يجوب داخل هذا البناء مُنتقلاً من جدار للآخر يقفز بين الحجرات، كما لو أنه صوت البيت ذاته، ليجعلني أنتفض من نومي راجياً الرحمة. هذه الأرض الباردة احتضنت وجهي المرتطم بها عدة مرات، لقد تلونت بدمائي غالباً كما حملت عليها وقع أقدامي الهاربة من الموت القادم لي، هذا المطبخ الذي لم يعلم صاحبته إلا في آخر سنوات بدا كالصحراء الخاوية من الحياة، هل كان المنزل دائماً موحشاً هكذا؟ لطالما بغضته أكثر من أي شيء آخر، إلا أنه كل ما أملك من أبي الذي لم أعرفه، لذلك سأبقي عليه لبعض الوقت فحسب، ليس كحنين أو صونًا لذكرى أب، إنما أرغب به شاهداً على كل ذنب وقع داخله، ليكونَ مقبرة وصبي كما أحلامي.

أغلقت الباب خلفي، وسرت عبر الفناء لأجد بقايا من العربة التي استخدمتها أثناء عملي في البازان ليصيبني الحنين لأيام كدت أنساها، بل لعلي فعلت، ركبت السيارة وقدتها صوب البازان الذي بات الآن مجرد حوضٍ فارغ من الحياة، هبطت من سيارتي أجول بنظري في الفناء الذي كان يدب بالحياة حتى في أوقات الليل، هنا كان يسمر السقاؤون في الليل، هنا أصبحت رجلاً، في ذلك الكوخ الصغير تعرفت على العم زقر الذي منحني أول فرصة في حياتي. في حرارة الصيف و قسوة الشتاء.

كنت آتي هنا كل يوم دون استثناء أحمل الزفة أملؤها بالماء ثم أثبتها على عربتي ليجرها البغل بين الأزقة، أكاد أسمع صوت الماضي يشدو في البازان، لكنه تلاشى كما كل شيء، الآن معظم من خطت قدماه هذا البازان بات تحت الأرض، فهي تبتلع من نحب دائماً، تلك الأيام التي قضيتها هنا كانت أسعد أيام حياتي، بالرغم من إنهاكي، وحتى عندما كان المردود شحيحًا إلا أني كنت سعيداً بحق، لعلي لن أشعر بالسعادة هكذا مجدداً، وداعاً أيها الحي التعيس، وداعاً أيتها الطفولة البائسة، وداعاً أيتها الذكريات بكل صورك، ووداعاً عم عثمان، لتكن حياتك مديدة، عسى أن لا تعلم الحقيقة يوماً.

-١٥-

جَلستْ على حافة الفراش بهدوء خالص، رائحة عطرها الجريء ملأت جدران الحجرة وخيمت عليها، هذه الرائحة صارخة وكثيفة لدرجة الاشمئزاز، اختلست النظر إليها عدة مرات وقد بدت في عيني كالمهرج، بذلك الشعر الذي اعتلى رأسها متطاولاً بطريقة غريبة، ذلك الثوب الأبيض والذي كان منتفخاً من الأكتاف حتى جعلها تبدو ضخمة، بل كل الثوب كان منتفخاً بطريقة مفرطة مما جعل حركتها صعبة، وقد زاد الخمار الطويل من سوء الأمر، فلقد رأيت رأسها يميل للخلف عدة مرات أثناء سيرها بسبب الخمار الذي تثاقل على الأرض من خلفها، ثم هنالك تلك المساحيق التي لونت وجهها، أقسم إنها لم تدع لوناً لم تستخدمه في وجهها الذي تلون بالأبيض لدرجة الشحوب، وعيناها اللتان تصبغتا بألوان لم أعلم بوجودها وليس هذا فقط بل لقد امتد اللون لخارج جفنيها حتى كاد يلامس منابت شعرها، هذا فضلاً عن اللون الزهري الذي تبعثر في وجهها واللون الأحمر الذي لون قليلاً من أسنانها كما شفتيها.

أهذا أمر طبيعي بالنسبة لها؟ أعلي أن أرى هذه المهزلة كل يوم فيما تبقى من حياتي أو حياتها؟ لم وافقت على هذا الشيء المريع؟ الزواج والاستقرار يا لها من سخرية!

منذ وجودي لم أعلم إلا الفوضى في حياتي الخارجية منها وتلك التي تتصارع داخلي بلا هوادة، بالرغم من أن الفوضى الخارجية باتت نادرة إلا أن ما تصارع داخلي يتعاظم مع الأيام هي أعاصير هوجاء لم تهدأ أو تخمل ولو لعشية واحدة.

بعد قليل من الصمت الذي أحكم على الحجرة قالت بصوت مكسور:
ـ سوف أقوم بتبديل ثيابي والاغتسال.
ثم نهضت من الفراش متثاقلة صوب دورة المياه ليصفعني عطرها حين مرت بالقرب مني. أخذت مكانى على الطرف الآخر من السرير متنهداً من هذا الموقف الذي تم اقتيادي إليه بغير رغبة مني.
كل هذا بسبب اللواء مسعود، ذلك الرجل الذي اعتدت التقاءه والعمل معه أثناء القصاص، لم أختلط معه كثيراً نظراً لاختلاف مهامنا، عدا أني سمعت الكثير عنه من رجال الشرطة الذين يترأسهم، هو مسؤول لا يليق بالجلوس في منصبه، دائماً ما يرمي بأعباء العمل على من حوله، رجل كسول متثاقل، غير أنه لحوح ولا يحمل أي حس للحياء أو الكرامة فيه، وقد أثبت هذا عندما بدأ بالاحتكاك بى على صعيد شخصي.
بدأ كل شيء ذات ظهر يوم حار كنت أنظف سيفي من الدماء التي صبغته، مجرد إجراء رتيب اعتدت تكراره دون أن ألحظ حتى، فمنذ أحكمت أغلالي لم يعد للدنيا طعم أو إحساس أنا حي بلا سبب أو هدف، جز الأعناق مجرد عمل أقوم به بغية الحصول على المال الذي يشبع جشع أمي التي لا تمتلئ أو تمل الطلب. اقترب مني اللواء مسعود ذو الشارب المتناثر والقبعة المائلة فيما قام بتعديل جراب مسدسه المعلق على حزامه والذي اختفى بدوره أسفل معدته الثقيلة، هو ذو هيئة غريبة غير متناسقة فلقد كان قصيراً بالمقارنة مع باقي الرجال، نحيل العظم إلا أنه امتلك تلك المعدة البارزة من جسده والتي جعلت حركته غريبة بعض الشيء، تفصد العرق من جبينه متلألئاً تحت أشعة صيف جدة، ليزيله بخرقة بالية حملها بين يديه.

ـ سياف صاغر، سوف أقوم بتوصيلك للمنزل اليوم.

إيصال رجال الشرطة للسيافين هو إجراء متبع بعد كل قصاص وذلك لحمايتنا من أي شخص يرغب الانتقام للمذنب، إلا أن هذه لم تكن مهمة للواء كبير مثل مسعود، لذلك بدا الأمر مريباً ليس فقط لي، بل لكل الموجودين بمن في ذلك رائد الذي كان ينتظرني خلف مقود السيارة لإيصالي كما المعتاد فقد كانت هذه دائماً مهمته التي اتخذها طواعية.

ـ شكراً لك أيها اللواء، ولكن أعتقد أن هذه مهمة تافهة لشخص بمقامك.

ـ لا تقل هذا، فلا أحب لي من قضاء وقت مع رجل مثلك.

لم أع ما قصده مسعود إلا أن ابتسامته التي تلونت باللون الأصفر أصابتني بالسقم، وبالرغم من رغبتي العارمة بالرفض إلا أني لست بمكانة تسمح لي بهذا، أومأت موافقاً لأخطو صوب الباب الأمامي حيث اعتدت الجلوس بالقرب من رائد والذي بدأت آلفه، إلا أن اللواء الذي جلس في المقعد الخلفي هتف لي:

ـ صاغِر هذا المقعد لا يليق بمكانتك، فاجلس في الخلف هنا معي.

استرقت نظرةً لـ رائد الذي أحكم نظره للأمام ولم يلتفت لي، إلا أني لاحظت أنه قام بنقر سبابته على المقود، حركة اعتاد القيام بها عندما يزعجه أمر ما، تنهدت داخلي فيما أخذت أسير بخطوات متثاقلة صوب الباب الخلفي، جلست في الخلف حيث أشار اللواء لتنتقل السيارة متحركة بين الحشود حتى باتت أرض القصاص بعيدة عنا، وبعد قليل من الصمت بدأ مسعود حديثه:

ـ صاغِر، لقد عملنا كثيراً معاً من قبل، إلا أن هذه أول مرة أتبادل معك الحوار خارج ساحة القصاص، ولطالما أعجبت بذاتك الهادئة والرزينة، كما انضباطك في العمل.

سمعت كلماته بازدراء من نفاقه، أعلم يقيناً أنه يطمع بشيء مني، أيقول إنه معجب بي؟ منذ متى؟! لقد عرفت هذا الرجل منذ كان عقيداً، ولطالما استصغرنِي، رأيت هذا في عينيه، كما تصرفاته، لم يلق السلام يومًا، وإن فعل فلقد خرجت من بين أسنانه قهرًا، وفي كل مرة أتلطخ بالدماء أو أمسحها عن سيفي ينظر إلي مشمئزّاً كما لو كنت وحشاً مسعوراً للدماء، عدا أنه ليس مخطئاً في ظنه، لقد تملكني هذا الجوع حتى بات جزءاً لا ينفصل عني، لقد بات أنا وأنا هو، فما عدت أميزه عن باقي ذاتي، تلبسني حتى أفقدني اتصالي بالواقع، أمضي أيامي كمن يغرق ببطء داخل مياه ضحلة لست قادراً على الوقوف على قدميّ، ولا أهوي للقاع فأفنى، أنا بين هذا وذلك، أرى حياة لست بطائلها هاوياً لموت ليس مهلكاً إياي.

استمر مسعود بالثناء علي خاصة وذم باقي رجال الشرطة عامة وكل ما تمكنت من قوله هو بضع كلمات تافهة لمجاراته، أخيراً ألقى بالحديث الذي جعلني أنتفض في مقعدي.

ـ صاغِر سمعت أنك وحيد والدتك وسندها الوحيد في العالم، كم أنت حقّاً مثال للرجل الشهم والابن البار، وفي الحقيقة ظللت أمتدحك لزوجتي لوقت طويل حتى أنها شعرت أنه يجب على عائلتينا أن تتعارفا، وأنا أشاركها الرأي، فالناس الطيبون مثلكم قليل، لذلك أرجو أن تحدد يوماً نأتي فيه أنا وزوجتي لزيارتك أنت ووالدتك الكريمة والتي لا بد أنها سيدة فاضلة لتربي ابناً مثاليّاً مثلك.

شعرت بابتسامة سخرية ترتسم على شفتيّ رغماً عني، هذا ما هرب مني، فلقد أمسكت ذاتي عن الصدح بالضحك من قوله سيدة فاضلة، وابناً مثاليّاً؛ أيٌّ من هذين الوصفين ينطبق علينا؟

ما عدت أتبين ماهيتنا نحن الاثنين، تارة تكون الذعر الذي يترصد ذكرياتي، أو ضحية لقسوة الحياة والبشر، ثم وجود علي أن أكرس كل كياني كما أيامي له، ومن حين لآخر يتربصنِي الشيطان موسوساً لي بعضَ البغضاء الدفينة لها، إلا أن أمراً واحداً أكيدٌ، هو أني لم أجرؤ يوماً على مخالفتها أو رفع نظري إليها. أما هي فلقد باتت ذات حدين إما أنها شبح يجول في المنزل كذكرى لما قد كانت عليه قبلاً، تنظر إليّ كمن يبحث عن طيف شخص رغبت به يوماً ما، أحياناً تمسي كإعصار نار متلهب تنخرط فى أمسيات واجتماعات بلا نهاية، عدا أنه هنالك واقع يفرض ذاته علينا، في نظر أعيننا بتنا غريبين، نتلافى الاقتراب أو الوجود في المكان ذاته، نفر بعضنا من بعض كما لو أننا نخشى إيقاظ آلام رتيبة وذكريات تناسيناها، إلا أنها تعاود الانقضاض علينا فور أن نتنفس الهواء ذاته، فأين هي الأم الفاضلة والابن البار فينا؟

لم أجد القدرة لرفض مسعود الآن، إلا أني أبلغته برغبتي في تحديد الموعد مع والدتي ثم العودة إليه بموعد على أمل أن يفقد اهتمامه ويدعني وشأني.

بعد بضعة أيام دق هاتف منزلي وبحكم العادة أجابت والدتي فمعظم الاتصالات تكون قادمة من دائرتها الاجتماعية، فيما ظللت حيث أنا على الأريكة أستمع للمذياع، لأنتفض على صوتها الصارخ باسمي بغضب شديد:

ـ صاغِرِ! كيف لك ألا تخبرني عن الدعوة؟ أتجرؤ على تهميشي في منزلي؟ أم هل أبدو لك كعجوز شمطاء لا تعي ما يدور حولها؟ أتدرك شدة إحراجي حين أخبرني عن حديثه معك بشأن زيارتنا؟! لقد بدوت كالحمقاء والجاهلة بسببك، بل لقد تشمت بي ذلك السافل! وهذا بسببك أيها الغبي.

رأيتها تنفث النار من عينيها فيما انفعل كامل جسدها كما لو أن ناراً قد أصابته، ثم مدت يدها لإناء زجاجي وقذفته صوبي بسخط، أما أنا فلقد أبعدت ذاتي عن مسار الإناء الذي ارتطم بالجدار متناثراً على الأرض، ليس أول ضحية لغضب والدتي ولن يكون آخرها، على الأقل لم تعد تفرغ بغضبها على جسدي، وما هي قادرة على ذلك فأنا أفوقها حجماً بعدة مرات.

ارتعد جسدها من شدة غيظها، فوَجِلت أنا، بالرغم من أنها لا تؤذِي جسدي إلا أن ذعري منها حفر داخلَ شراييني النابضة هو يسري مني مسرى الدماء، حتى وأنا الرجل الناضج بهيئة تجعل من حولي حذرين مني إلا أني خفضت من عينيّ مطأطئاً رأسي للأرض، وبصوت يتذلل لها كالطفل الراجي للرحمة تحدثت إليها:

ـ ما كنت لأجرؤ على تهميشك أو التسبب في إحراجك، من المتصل؟

أقسم إني رأيت ابتسامة انتصار كما استصغار هادئة ترتسم على طرفي شفتيها، إلا أنها محتها بسرعة قائلة:

ـ أخبرني أنه اللواء مسعود، كما أخبرني أنكما تواعدتما على زيارته هو وزوجته لمنزلنا، ولقد كان ينتظر التأكيد منك إلا أنه لم يسمع منك منذ بضعه أيام فخشي أن يكون مكروه قد أصابك أو إياي لذلك قام بالاتصال للتحقق من سلامتنا والنظر في موعد الزيارة.

تمنيت لو أن مسعود أمامي الآن لأستل سيفي مزخرفاً إياه بدمائه، كم وددت انتزاع أحشائه وعقدها حول رقبته، ذلك الوغد، الوقح، الماكر والخبيث، لقد قررت تجنب هذه الزيارة والتملص منها قدر الإمكان حتى يمل هو مني ويدعني وشأني، إلا أنه حصل على مراده، أنى له أن يهاتفني في المنزل؟ يحادث والدتي ويضعني في الأمر الواقع؟! لقد فرض ذاته عليّ وعلى منزلي، والآن هذه ستكون زيارة واحدة من عديد ستتبعها وما أزال أجهل غايته من الاقتراب مني حتى الآن، ما السبب الذي يجعله كثير الإلحاح والجرأة هكذا؟ عدا أن هذا ليس الوقت للتفكير فسأعلم بغايته لاحقاً، الآن عليّ أن أجد طريقة لأهدئ والدتي قبل أن يخر السقف على رأسي، أخذت نفساً عميقاً، ليهوي كتفاي للأسفل.

ـ هذا الرجل كاذب وذميم، أنت خير من يعلم كيف هم الرجال يا أمي، أنا لم أدعه للمنزل، بل أنا حتى لم أعده باللقاء، هو شخص أعلى مني مكانة ولطالما ازدراني ولم يعرني أي اهتمام، إلا أنه رغب بالتقرب مني فجأة فارضاً ذاته علي، ولم أستطع منعه فهو في النهاية رئيسي وليس لي طاقة لرفضه وإلا فسأخسر عملي ومصدر رزقنا. لا أعلم أنى له الجرأة أن يهاتفنا هنا؟ وكيف له أن يحادثك هكذا؟ كيف له أن يدعو ذاته وأسرته لمنزلنا قهراً عنا؟

تحدثت بالطريقة ذاتها التي لطالما سمعتها منها، أنا ضحية، أنا أضعف من الرجال حولي، هو من فرض ذاته علي، فعلتها من أجلنا من أجل أن نحيا، أعذار سمعتها خلال نشأتي، فبت أكررها لها، فما أنا مختلف عنك وما أنا أقوى من صاغِرِ الذي عهدته.

ـ هو حقّاً مثال لكل الرجال، ولكن لا تعبث معه فلا داعيَ لتفقد عملك أو يتضرر حالنا بسببه، على أي حال لقد أخبرته أنه يمكنه المجيء في عطلة هذا الأسبوع، ليأتِ ولننتهِ منه، حقّاً كيف له أن يزدرينا؟ سوف أريه هو وزوجته أي نوع من النساء أنا، وأني لست سهلة الانقياد.

انطلت الحيلة عليها وبدلت غضبها عليه بدلاً مني، ولكن هذا لا يعني أن غيظي منه قد هدأ، ولست بقلق من أفعال أمي، ففي نهاية الأمر ليس لدى اللواء مسعود أي قوة لإنهاء عملي، وأيضاً هي لن تفعل شيئاً يجعلها مكروهة، بل لعلها تتذلل بطريقة ما إليهم ترضيهم وتوسع دائرتها الاجتماعية أكثر. لماذا أشعر بأني أقف على شفا جرف سحيق؟ لقد دفع بي مسعود لجرف لا أعرف نهايته، أتمنى أن أتمكن من الهرب منه، وإلا فإني سأهوي لقاع لا أعرف مدى امتداده.

أتى اليوم الموعود، لتهتم أمي بكل تفاصيل الزيارة، من أجود أنواع الضيافات، للبخور، وحتى إنها ابتاعت العديد من الحاجيات الجديدة من أطباق وفناجين قهوة كل هذا لتبهر الضيوف المقبلين إلينا بمدى كرمها وكريم حياتنا. أقبل علينا مسعود مع زوجته التي دخلت صوب مجلس النساء فيما مكثنا أنا واللواء في مجلس آخر أقل شأناً من الأول وذلك لأني لا أحظى بصحبة أو رفاق، لم أفعل من قبل ولست راغباً بهذا الآن، لذلك ألفت وحدتي محتضناً فراغ روحي.

ظل الضيف يتحدث كثيراً في شتى أنواع الموضوعات محاولاً إظهار أنه ذكي أو ملم بكل أمور الدنيا، أما أنا فقليل الحوار بطبيعة الحال إلا أنه تحتم عليّ مجاراته، ومع كل دقيقة تمضي أشعر أن الحُجرة التي نحن بها تضيق الخناق علي، كما لو أن مسعود يسلب الهواء مني، ساعة تليها ساعة، ازداد اضطرابي ليجد مكانه في ساقي التي تتحرك بوتيرة قلق نافد الصبر، حتى الطعام الذي تناولناه لم أستطعم منه شيئاً كل ما رغبته هو معرفة سبب هذه الزيارة المشؤومة والتي تسلبني سكوني.

ـ صاغر، ألا تفكر بالزواج بعد؟

لهو سؤال أحمق؛ زواج؟ يا لها من مهزلة ممتعة، لم أفكر يوماً في الارتباط مع أحد، لم عليّ أن أفعل؟ لست أرجو النساء، كما أخشى أن أتوق لهن، فهذه الرغبة والشهوة غدارة قاتلة، أفقدتني من أحببت من قبل، كما أنها نجس، لقد بغضت أنين الليل حتى النخاع ولست أرغب به في حياتي مجدداً، ثم ماذا بعد ذلك؟ أبناء؟ ولم قد أحظى بهم؟ لأسمع البكاء والعويل في منزلي، لألعب دور أب لا أفقه كيف أؤديه، ليُطلَب مني تقديم حب لا أجده في فؤادي مهما بحثت، وهل وجودهم سيروي هذا الجوع؟ أوجودِي مع امرأة سيقتل تلك النزعة التي تزورني في أحلامي هامسة لي أن أستسلم لها؟ أن أعيد الكرة سالباً امرأة ما حياتها، لولا خوفي لفعلت أقسم إني أكاد أفعل، عدا أن أغلالي أغلظ من كل رغباتي.

ـ لست أفكر في هذا لواء مسعود، فكما تعلم ليس لأمي أحد بعدي في هذه الدنيا ولست أرغب تركي لها وحيدة أو في عوز لمخلوق، يكفيني أن أهب حياتي من أجل رضاها وسعادتها.

كلمات لم تكن كذبة عدا أنها افتقرت للإخلاص.

ـ أيا ليت كل الرجال مثلك صاغر، ولكنك لم تعد صغيراً بالسن كما أنك تحتاج لمن يحمل اسمك من بعدك ويحملك في الكبر، والله ما تقدمه لوالدتك سيعود إليك بالخير أضعافاً مضاعفة.

تبسمت سخرية، كما لو أن أمراً كهذا ممكن! هذا الخير لم يَعبُر في حياتي من قبل، يُقال: كما تدين تدان. لكن لماذا تحتم عليّ سداد دين لم أطالِب به؟ طالبتني الدنيا بسداد ديني لها منذ الصغر لذنب لا أذكر ارتكابه، لربما كان وجودي بحد ذاته ذنباً يتحتم عليّ أن أسدده بالتعاسة ما دمت حيّاً.

ـ الله كريم لواء مسعود.

اكتفيت بقول هذه الكلمات لأنهي النقاش الذي بغضته، عدا أن هذا الرجل الثقيل الظل لم يفقه رغبتي بالصمت ليردف:

ـ والله أنت من خيرة الرجال، وأعتقد أنك ستكون مناسباً للزواج من ابنة أختي، هي فتاة صغيرة في السن عمرها يقارب السادسة عشرة، والزواج من فتيات صغيرات مناسب للرجل حيث إنه يسهل عليها التأقلم وتربيتها تحت كنفك، تلك الفتاة يتيمة ووحيدة والدتها، إلا أنها جميلة، مهذبة وست بيت، يقال: اخطب لبنتك ولا تخطب لولدك. وتلك فتاة ربيتها منذ طفولتها وأرغبها سعيدة ولا أحد أفضل منك ليسترها ويسعدها. ما رأيك أن تقول تم، وتدعني أدبر الزواج بينكما؟

هذا الرجل حقّاً لا ينوي إنهاء الحديث، لماذا يحاول بيع ابنة أخته لي، لا يهم ما يصفها به، أنا فقط لا أرغب الزواج كله، لماذا يلح على أمر يخصني ولا يعنيه؟ هل انتهى رجال جدة كلهم ليختارني؟ هنالك من هم أفضل مني من رجال الشرطة والذين يمتلك مسعود معهم علاقة وطيدة أو على الأقل سبق وتعامل معهم لمدة أطول، فلم أنا دون الذكور؟

ـ أكرمك الله لواء مسعود، وهذه شهادة منك أعتز بها، دعني فقط أخابر الوالدة، وما يختاره الله هو الخير.

أرجوك لتتوقف عن الكلام وتغادر منزلي قبل أن أجلب سيفي ليذوق دماءك البغيضة مثلك.

دقائق أخرى ثم رحل الضيوف من المنزل لأشعر بأن كل طاقتي قد سلبت مني، راغباً بالانعزال بمفردي في حجرتي في الظلام العزيز علي، عدا أن لوالدتي رغبة أخرى لتستدعيني حيث حجرتها. وجدتها تجلس على السرير وقدماها ممتدتان للأمام، بدا كما لو أنها تفكر بموضوع شائق، ليهوي كتفي في إنهاك مما أعلم يقيناً أنه قادم،

ـ صاغر، تلك المرأة فاتحتني بأمر قبيل رحيلها، أخبرتني أنهم يبحثون عن عريس لابنة أخت اللواء وأنه رشحك أنت لحسن أخلاقك وسمعتك.

ـ أتيتك لأجل الأمر ذاته أمي، لقد تحدث معي اللواء في الأمر ذاته، وهل لك أن تتفضلي وتسمحي لي بإبداء رأيي في هذا الأمر؟

ـ ومنذ متى لك رأي بعد أمري؟

ـ ليس لي قول بعد قولك أمي، ولست أجرؤ، إنما طمعاً مني بعدم الابتعاد عنك وتركك وحيدة.

ـ أنت حقّاً غبي! تلك الفتاة ستعيش في منزلنا هنا، لن ترحل خارج هذا المنزل وتتركني.

ـ ولكن يا أمي هل أنت على استعداد أن تشاطرك امرأة أخرى المنزل وتقلق راحتك؟ أنا فقط أرغب أن أراك سعيدة.

ارتطم وجهي بوسادة قذفت صوبه، لأطأطئ رأسي أرضاً صوب الحكم الذي حُكم عليّ بسبب مسعود، امتلأت غيظًا وبغضاء لحياة لا تمنحني حق الاختيار في أبسط الأمور، ثم تعالى صوتها صارخة:

ـ لماذا تعارض أمري؟ أتعلم ما قد يقوله الناس عن حالك؟ أترغب أن تلتهمني ألسنة الناس قائلين إن ابن غالية ليس برجل؟ هو لا يشتهي النساء أو يرغب بهن،لربما يتداول بينهم أني أنا من أخشى مشاطرتك مع امرأة أخرى تسلبك مني لذلك لم أزوجك بعد، أو لعلهم يقولون إنك ليست براغب بالنساء لأنك تهوى الرجال، كل هذا وأكثر ينتقل بين ألسنة الناس، يتهامسون اسمي واسمك، أترغب أن يدنس اسمي هكذا؟ أن أُمْسي قصة وخزياً بين ألسنة أهل جدة، أن والدة السياف العظيم لم تُجِد تربية ابنها أو أنها تسببت بكرهه للنساء، أفق أيها الغبي البائس! ستفعل ما أمليه عليك دون جدال، ستتزوج من الفتاة، حتى لو لم تعجبك لتكف ألسنة الناس عني، فأنت لست برجل أو مخلوق ذي شأن ليتم الاستفتاء عن رأيه، تذكر أنت من تكون اليوم، ووصلت حيث أنت بفضلي وفضل مشورتي، فلا تغتر بذاتك وتعتقد أنك أكثر من صاغر .

ـ الشوْر شورك يا أمي وأنا خادمك.

نهضت من الفراش بعد أن قبلت رأسها، أجر جسدي المثقل من أقدار الحياة صوب فراشي، لأرتمي به أملاً أن يزيح عني هذا الوزر الذي يتعاظم. آه أيتها الحياة! آه أيها القدر! إلى متى سيطول طغيانكما عليّ؟ متى تملان مني فارضين جبروتكما على غيري؟ أقسم إنه لم يبق بي شيء يربطني بالبشر، هذه حياة تُحسب عليّ دون أن أحياها، أيها الموت لم لا ترحب بي؟ لم لا تقبضني إليك، لم تنبذني كل الأقدار الجميلة؟ يُقال إن السعادة والتعاسة متشابكتان، يتعاقبان كما الليل والنهار، فأين هي نهاية حبل التعاسة؟ هل خنقت سعادتي سالبة مكانها فى حياتى؟ أو أنى ولدت بتعاسة هى ضعفا ما لدى البشر؟ أسرق أحدهم حبل سعادتي فباتت حياتي ليلاً سرمديّاً بلا شعاع غسق يلوح في الأفق؟ أينمو الأمل في الغد؟ أم أني سأظل أعاني من الآلام ذواتها التي لم تفارقني منذ صرخت أولى صرخاتي في هذا الكون المجحف؟

شعرت بجسدي ذي السابعة يجذب بقوة عظيمة صوب الحجرة التي يفسقان بها، أمسك بـ كتفيّ ينظر إلي كوحش طال جوعه، مستعد لتناول كل شيء حتى العظم، شممت رائحة عرقه النتنة، حدثني بما لم أفقه، فكل ما وصل مسمعي هو صوت المسجل صخباً من أغنية ما، ونبضات قلب تكاد تفر من بين شراييني، نظرت لأمى بذعر، إلا أنه أمسك بذقني قاهراً إياي لأنظر إليه، ترسمت ابتسامة أصابتني بالذعر حتى النخاع، لأتبول على ذاتي لا إراديّاً، ليضحك هو ضحكة ساخرة، محولاً نظره صوب أمي التي لم أعد أميز وجهها، حدثها بشيء لا يصل إلى مسمعي، وقبل أن تجيب، ألقى بي صوب الأرض مثبتاً جسدي على معدتي بقوة، ثم شمر جلبابي.

انتفضت من نومي صارخاً، لأجد أن كل ملاءتي قد ابتلت عرقاً تصبب من جسدي كسقم لا يفتأ يتلذذ بعذابي.

-١٦-

مضى عام منذ خُتِم على قدري مُقترنًا بفتاة تصغرني باثني عشر عاماً، أروى هو اسمها، لم تكن أكثر من جسد يرقد على الفراش بجواري، ذلك الفراش الذي هربت منه قدر المستطاع، لأجد ذاتي أسمر ليلًا بعيدًا عن المنزل أو الصحبة، أنتظر نومها قبل العودة للمنزل أو أفترش الأريكة كي لا أكون بمفردي معها. حتى هذه اللحظة لم أقترب منها أو ألمسها، بل خشيت أن أفعل، في كل مرة رأيت تفاصيل جسدها اليانع يتملكني الذعر، أشعر كما لو أنني أحقر وأقذر إنسان في الوجود، فتلك شهوة تفتقر للكرامة والإنسانية، هي غريزة حيوانية تصيبني بالنجس. كما أن أروى لم تحاول أن تقترب مني بدورها، بدت كمن سيقت لقدر لم تختره هي الأخرى، لم تتودد إليّ أو تحادثني بشيء خارج عن رغباتها، من زيارة والدتها، شراء ثياب أو مستلزمات للمنزل، كلانا تعايش مع الآخر دون توقع شيء. عدا أن المنزل لم يحظ بالسكون ولو ليوم واحد، لقد وجدت أمي طريقة لتشعل الحرب على أروى وإياي بكل الطرق، تلعن طريقة حديثها، تعيبها في لبسها، عاداتها، زيارتها لوالدتها، إنفاقها للمال الذي هو من حقها فقط، وإن فرغت من الفتاة انتقلت صوبي صارخة أني أهملها، أني قذر لا أهتم إلا لزوجتي التي سحرتني، لا يكاد يمضي يوم دون جحيم تشعله أمي علينا. بالرغم من هذا، لم نَشْك همنا بعضنا لبعض يوماً، لم تلجأ لي أو أفعل المِثل، كلانا كَظَم غيظه مبتعداً عن الآخر وعن أمي التي لا يجدي النقاش معها أو مشاحنتها، أمر تعلمته أروى بالطريقة الصعبة.

بعد زواجنا بشهر لم تحتمل الفتاة معاملة والدتي لها كما لو أنها خادمة قدمت للمنزل، هذا فضلاً عن السباب واللعان المستمر، لتهيج أروى:

ـ هذا يكفي أنا لست عبدة عندك، أنا لم أخرج من منزلي لأتحمل هذا النوع من المعاملة، توقفي عن ازدرائي وإلا فإن بيت أمي يؤويني.

وكم كانت حمقاء لتفعل، لتجد فنجان شاي يقذف صوبها مصيباً ذراعها التي نزفت دماء غزيرة، فترتعد أروى في ذعر، لتقبل عليها أمي جاذبة إياها من شعرها متحدثة بتلك الطريقة التي تصيب كل من يسمعها بالجزع، طريقة لطالما حدثتني بها في أوج سخطها، بلا صراخ أو سباب، كل ما عليها فعله هو التحدث بهدوء ونبرة منخفضة، نافثة سمًّا في كل حرف تنطقه:

ـ أتريدين الذهاب لبيت والدتك؟ إذاً افعلي، خذي أغراضك وارحلي، ولنرَ ما سيقوله الناس عنك، فتاة تطلقت خلال شهر من زوجها، لم تم تطليقها؟ هل لأنها لم تكن فتاة في الأصل وقام خالها بتزويجها ليستر على فضيحتها؟ أو ربما هي لم تنشأ جيداً لأنها يتيمة بلا أب يُربيها، لعل والدتها أيضاً مثلها تسيح في أحياء جدة بين هذا الرجل وذلك فهي بلا رجل يشكمها، أو لنقل إن الفتاة قليلة التربية، تصرخ على والدة زوجها المسنة وتضربها، غير أنها سليطة اللسان مع زوجها ولا تعلم كيف تهتم به أو كيف تحتفظ بزوج.

رأيت الرعب يستحكم على الفتاة، لترتعد كما لو أنها تحتضر، ويُخْرس صوت بكائها تماماً، ناظرة صوب أمي كما لو أنها خلاصها من الموت والجحيم الذي يكون هي، لترتسم ابتسامة نصر خبيثة على وجه والدتي ثم تطلق سراح قبضتها عن أروى، لتهوي الفتاة كما لو أنها تحطمت تماماً، استدارت أمي صوبي قائلة:

ـ هيا يا صاغر خذها لمنزل والدتها، هي مستعدة لتحمل كل شيء ولا تحيا هنا، فلنفعل ما ترجوه الأميرة فنحن لا نحتجز أحداً رهينة هنا.

نظرت أروى إلي ترجوني النجاة، تطلب مني السند كما الحماية، أو حتى أن أنقذها من هذا العذاب، إلا أني أشحت بنظري بعيداً حتى لا يطالني سخط الجلاد، كي لا أصاب بمقتل من سمها الذي لا يرحم، هو يقتل ببطء شديد، يترسب في الروح سالباً أنفاساً صغيرة منا يوماً بعد يوم ببطء لموت محتوم. فيما خطوت أولى خطواتي حيث الفتاة المذعورة، رأيتها تنتفض وترتمي عند قدم أمي باكية:

ـ أنا آسفة، لم يكن علي أن أرفع صوتي عليك، أنت بمكانة أمي ويجب عدم التقليل من مكانتك، هي غلطتي أرجوك اغفري لذاتي الصغيرة، لن أفتح فمي مجدداً سأنفذ ما تأمرين به بكل سرور، فقط اغفري هذه المرة، وارحمي ضعف أمي وضعفي.

انتعشت أمي بالحياة التي لم أرها منذ أمد مديد، منذ كنت طفلاً في ذلك المنزل المشؤوم، لقد وجدت أمي فريستها التالية، ضحية لرغباتها الدفينة في تَملُّك شخص ما، سبق وأن حطمتني لدرجة أني بت غير قادر على الحراك أو العيش من دونها، أنا أسيرها من دون أقفاص أو أغلال، والآن سوف تفعل المثل مع الفتاة، ولم أكن مخطئاً فمنذ ذلك اليوم باتت أروى بلا حياة، ترتعد من صوت خطوات أمي، تقضي يومها كله في الحجرة بعيداً عن سجانها، فيما بقي كلانا نزيلين في زنزانتين متجاورتين، نعلم بوجود بعضنا بعضاً إلا أن كلينا مثقل بسلاسل موت وخوف.

قِصاص آخر بلا معنىً، خاوٍ من أي ندم أو ملذة، مجرد رأس آخر يتدحرج بعيداً عن جسده، عبق دماء لم يلمس مني أي مشاعر، يوم آخر في حياة بالية. دخلت منزلي البغيض الذي أمقته بكل نبض ينبض به فؤادي، أتمنى لو أحرقه لجحيم بكل من فيه، وكما العادة استقبلتني أمي بصراخ ملأ الأرجاء:

ـ صاغر أيها الذليل بلا أي رجولة، أصحيح ما تقوله تلك الفتاة الساقطة؟

ـ وما الذي قالته يا أمي؟

ـ إنك لست برجل! أنت لم تلمسها أو تدخل بها بعد، أهذا صحيح؟ أحقّاً أنت معدوم الرجولة لهذا الحد؟ لم تلمس فتاة تنام معك في الفراش ذاته منذ ما يزيد على العام؟

ـ ولماذا قالت هذا؟

ـ أنا من يطرح الأسئلة هنا أيها الوضيع، أجبني الآن!

ـ أجل لم ألمسها بالطبع لم أجد الجرأة لأفعل، أنى لي أن أدخل بها؟ لقد مقت هذا منذ فقهت به، منذ رأيت الرجال يترددون على بيتنا ليلاً، حين تنفست السهك الفاسق ينبعث من حجرتك وحولها، بغضت كل شيء مرتبط بهذا الأمر، ليكن الليل، الأنين، الموسيقى، أو الرائحة، لقد بغضت الذكور كما ذاتي التي قد ترغب بأمر نجس كهذا، استغلال النساء من أجل رغبات منحلة، ألست أنت من ظللت ترددين هذا على مسمعي ليل نهار؟ أنت من حفر في روحي أننا

فاسقون، قذرون، مجرد حيوانات بشرية تتغذى على من هم أضعف منهم، وأنا لست عن ذلك ببعيد، ففي كل مرة أشعر بشيء بسيط من الشهوة يعتريني أرى عينَيْ منال تنظران إلي، تحدثانني من تحت الثرى أني رُعُبٌ قاتل، بالرغم من رحيل الندم الواهن الذي اعتراني بعد أن فتكت بها إلا أن القتل شيء وهذه الشهوة شيء آخر أحدهما خطأ ارتكبته عن عجل، والثاني نزعة تتحشد متعاظمة مع الأيام تُفقد صاحبها صوابه ليبحث عن أي متنفس لها، أما شهوتي أنا فهي إعصار قاتل، إنها صبور تنتظر بهدوء، كلانا ينظر لعيني الآخر بترقب وجس، هي تتربص بي، فما أن أُرخي دفاعاتي متحركاً قيد أنملة ستجذبني صوب الإعصار الذي لن أتمكن من الخروج منه كـ صاغر بعد ذلك.

لكني كظمت غيظي، لم أتفوه بكلمة مما يعتريني، قبضت على يدي قبضة قوية غارزاً أظافري فيها:

ـ أجل يا أمي لم أمسها بعد، وذلك لأني أعتقد أنها صغيرة في السن أنا أنتظر أن تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً على الأقل قبل أن أدخل بها.

ـ وهل هي أميرة ثمينة كي لا تلمسها حتى تصل لعمر معين؟ هي زوجتك امرأة تُخرج رغباتك عليها فقط، أم أنك حقّاً لست برجل لتمتلك أي رغبة في جسد أنثى؟ أم أنك منحط بما فيه الكفاية لتبتغي الذكور عوضاً عن النساء؟

ـ نحن نجس فاسقون، هذا ما ظللت ترددينه عليّ منذ الصغر.

ـ وماذا في ذلك؟ أجل أنت وكل معشر الرجال كذلك، حتى والدك كان فاسقاً، أتعتقد أنك أفضل منهم؟ أم أن تلك الأميرة أطهر من أن تنجسها؟

ـ ولكن يا أمي لم الإلحاح على هذا الأمر؟ ما الذي يهم إن عاشرتها أم لا؟

ـ أنت حقّاً أحمق ذو دماغ بليد، كم مرة عليّ أن أعيد الحديث ذاته لك حتى يُحفر في عقلك، ما الذي سوف يقوله الناس إذا علموا بعدم حمل زوجتك حتى الآن؟ بالطبع سوف يبدأ التساؤل عن سبب تأخر الحمل بالرغم من مضي العام، هل ستجيب بأن الخطأ منها؟ تلك الفاسقة بالتأكيد سترمي باللوم عليك، أنت غير قادر على تأدية واجبك كرجل ومنحها طفلاً، أين سيذهب وجهي حينها من الناس؟ ضع طفلاً فيها، ثم لا يهمني إذا لم تلمسها أو وجدت مبتغاك في الرجال، فقط أثبت لي وللناس أنك رجل، حتى وأنت لست كذلك.

صعدت صوب الحجرة مُتثاقلًا، غير راغب بلقاء أروى أو فعل أي شيء عدا الهرب، إلا أن ثيابي ملطخة بالدماء كما يتحتم عليّ وضع المسدس والسيف في مكان آمن حيث لا أراهما فلا يوسوس لي ظلام روحي باستخدامهما على مخلوق. حاولت فتح الباب إلا أنه مغلق بالمفتاح، طرقت الباب منادياً على أروى لتفتحه إلا أن صوتها الباكي أمرني بالرحيل، لأشعر بصبري ينفد ورغبة عارمة مني لصب جام غضبي على أحدهم، لأهدد الفتاة بصوت حازم صارخ إني سأحطم الباب على رأسها إن لم تفتحه، ثوانٍ قليلة وأسمع بعدها صوت دوران المفتاح داخل القفل، لأدفع الباب بعنف ثم أخطو صوب الحجرة

بسخط، فيما صفعت الباب خلفي ليرن صوته داخل الحجرة وخارجها. اقتربت من أروى التي تلونت وجنتها باللون الأحمر دلالة على أن والدتي قد صفعتها، وشيء مني يشعر بالرضا لهذا العقاب الذي وقع عليها، نظرت إليها شزراً فيما أبقت عينيها للأرض، علمت أنها تهابني لحد ما، بالرغم من أنها شهدت ذلي وهواني عند والدتي إلا أنها هابت السياف في، وكيف لها أن لا تفعل وأنا مضرج بالدماء هكذا، فيما خطوت صوبها ظلت هي تبتعد للخلف بخطاً مذعورة ومع آخر خطواتها اصطدمت أرجلها بالسرير لتهوي فوقه، وقفت أمام الفتاة المرتعدة لبضع ثوانٍ أتنفس غيظي لهيبًا حارقًا.

ـ لماذا أخبرت والدتي أني لم أدخل بك؟ هل فقدت عقلك لتتحدثي بأمر يخصنا لها؟

ـ لقد أخبرتها بالحقيقة فقط.

ـ ولماذا فعلت ذلك؟ ما الحوار الذي دار بينكما لتخبريها بأمر كهذا؟

ـ لقد صرخت بي بأني لست امرأة لأني لم أحمل بعد، لذلك أخبرتها بالحقيقة.

ـ أولم يجد عقلك الغبي إجابة أخرى غير هذه؟ ألم يكن بالإمكان إخبارها أنك ما زلت صغيرة، أننا لا نرغب بالإنجاب الآن، أو حتى أخبريها أنك حامل ثم سنفقد الطفل بعد فترة، أي شيء عوضًا عمّا بُحت به.

انتفضت من السرير بسرعة ناظرة إليّ بحقد دفين لتلتقي أعيننا معًا وكلانا وجد الألم الذي لم ننطق به حتى هذه اللحظة، وبجسدها الذي يكاد يكون ملاصقاً لي شعرت بحرارة سخطها تمتزج معي لتصرخ بي:

ـ ولماذا عليّ أن أتحمل هذا الوزر وحدي؟ ألا يكفِي سجنكم لي في هذا المنزل؟ تعذيب والدتك لي ليل نهار؟ أنت مجرد واهن، جبان، كلب يلوح بذيله لوالدته لإرضائها فقط، لا تنتمي لصنف الذكور، ليس ذنبي أنك نصف رجل، ليس ذنبي أنك لا تستطيع إيقاظ رجولتك، فلماذا عليّ أن أتحمل سخط والدتك علي في حين أنك المذنب الوحيد؟

شعرت بعقلي يذهب مني فور أن تحدثت، أنى لها أن تصفني بنصف رجل؟ أني بلا ذكورة، أهذا جزائي لأني صُنتها ولم أنجسها بي؟ أهكذا تُحسِنُ لي هذه اليتيمة التي لا تملك من يسندها أو يستر عليها غيري؟ من باعها خالها لي حتى أستر عليها، سأريها وأري العالم من هو الذي ليس برجل.

بعنف وانفعال وضعت يدي فوق فمها لأخرسها فيما وضعت يدي الأخرى خلف رأسها حيث عنقها ضاغطاً عليها بقوة حتى لا تفر من قبضتي وتقدمت للأمام لتسقط على السرير وأنا فوقها، لأرى الذعر في عينيها حاولت الصراخ إلا أني زدت من الضغط عليها فيما زفرت من بين أنفاسي اللاهثة صوتاً يخبرها أن تخرس، لتبدأ بالركل أسفل مني فأنفسها تغيب من يدي التي تحجب أنفها وفمها، حركت يدها وصفعتني عدة مرات ثم غرزت أظافرها في ذراعي إلا أنّ قُواها بدأت

تَخِرِ وتسلب منها، لتبدو في حالة تشبه الغيبوبة، وحين أوقفت مقاومتها، نزعت يدي التي تمسك برأسها من الخلف كما حركت يدي الأخرى للأسفل قليلاً لأسمح لها أن تتنفس فيما أبقيت يدي مطبقة على فمها، شمرت ثوبها وحركت جسدي مموضعاً ذاتي بين ساقيها ناظراً لها كالمجنون الظمئ، حركت أروى فخذيها لتغلقهما ذعراً إلا أني وضعت يدي على فخذها الأيمن مانعاً إياها من التحرك، شعرت بفمها أسفل يدي يتحرك في محاولة للصراخ إلا أني وضعت أصبعي على ثغري هامساً بخبث عليّ غريب:

ـ اصرخي لأخبر الجميع أنك لست بفتاة أني لم أجد دماء تسيل منك وأنك مجرد عاهرة، أبقي فمك مغلقاً ودعينِي أرِك من ليس برجل من هو العاجز عن إيقاظ رجولته.

شعرت بجسدها يرتعد ذعراً يُحفزني حتى انتفضت كل غرائزي، ومن دون أي انتظار دفعت بذاتي داخلها كالمسعور لتشهق أنفاسها ذعراً ووصباً من الألم الذي رَغِبْتُ بتنكيله عليها أكثر، أمسكت بذراعي بقوة فيما غرزت أظافرها بها مجدداً، لتصبح حركتي أعنف حين رأيت كامل جسدها يتحرك على إيقاعي وعينيها المغمضتين تذرفان الدموع بأسًا مما يصيبها من نجس، في جنوني استنشقت رائحة آلفها جيداً، إنها رائحة الدماء التي أحببتها يوماً ما،حركت عيني كالممسوس أبحث عن مصدر الدماء لتقع عيناي حيث أتصل بفريستي فأجد قطرات من الدماء تتهاوى منها فيصيبني المس، لا أذكر كثيراً مما حدث بعدها، إلا أني لم أدخر أي مجهود لكبح ذاتي، أطلقت كامل رغباتي وغرائزي كرجل صوب الفتاة حتى ذبلت وباتت كالجثة فوق السرير لا تتحرك، تبللت الملاءة بدموعها، دمائها كما برهان ذكورتي

امتلأت الحجرة سهكاً قذراً، نظرت للفتاة الملقاة على السرير تحتضن ذاتها بعويل كالهمس، كما لو أنها قابلت وحشاً سلبها كل شيء، شعرت بالمرض يصيبني في معدتي، لقد أثبت كلام أمي لي، أنا رجل قذر، كل ما أرجوه هو جسد امرأة لإفراغ رغباتي عليها،لهذا لم أرغب الاقتراب منها، لهذا خشيت معاشرتها، لأني أعلم ما أنا قادر عليه، الوحش الكامن داخلي كما باقي الذكور، أليس هذا ما عايشته والدتي من قبل؟ ما فعلته بمنال؟ إلا أن هذا ليس خطئي، أنا لم أُذنب هي زوجتي ومن حقي معاشرتها كيفما ومتى شئت، هذا حقي، كما أنها حرضتني لأفعل ما فعلته بها، لقد رجتني كي أنجسها، أكان عليها أن تصرخ بي وتقلل من قيمتي كرجل؟ كل ما فعلته هو إثبات ذاتي ورجولتي، كما الحصول على حقي كرجل في زوجته، ألم أشترِها بمال المهر الذي دفعته؟ فليس لها الحق في التذمر. بالرغم مما أظل أردده في عقلي إلا أن قدميّ ترتعدان وسقم معدتي في تزايد، لذلك هرعت صوب دورة المياه متقيئاً ذاتي وفعلتي، أشعر بالقذارة تسري في، تغلفني كجلدي، أرغب نزع الغطاء الدنيء، هذا الدثار الذي تلحفت به منذ صغري، أرجو تحرير ذاتي حتى لا أشعر بالوصب مجدداً، عدا أن ما يختبئ تحت الدثار مخلوق يخيفني حتى الموت.

قمت بغسل جسدي وتبديل ثيابي، خرجت للحجرة لأجد أروى تحت الدثار ترتعد متقوقعة على ذاتها، حفرتُ صورتها داخلي، هذا غل جديد أضيفه لأغلالي المُتنامية، لا أرغب التحرر أخشى الموت أقسم إني لن ألمسها مجدداً حتى لا أفقد كل ما يكبحني، فهذا الطغيان المتأجج له لذة تسبب الإدمان ومعه قدتتلاشى كل محظوراتي لأتحرر من ذاتي الواهنة، وثمن هذه الحرية هو الموت.

-١٧-

أرى أمي كما لم أفعل من قبل، بوجه بشوش، عينين ملئتا حبّاً، ابتسامة لم تفارق محياها ليل نهار، وفاه لم يتحدث إلا بألطف الكلمات وأرقها ممزوجة بضحكة سعادة لم تحظ بها من قبل، نبض وجودها حبّاً لم يتأصل بها قبلاً، بدت كما لو أنها وجدت الحياة بعد وقت طويل، أو لعلها أول مرة لست أعلم، عدا أن كل هذا بسبب أسامة.

ذلك المخلوق الذي لم أتمكن من حمله بين نبضات فؤادي، حب لم يقع في روحي أو وجداني ليس اليوم ولعله أبداً، ولقد رأيت الأمر ذاته من أروى، نظرت إليه كما لو كان بلوتها، هي لم تؤذه إلا أنها لم تحبه، أستطيع الجزم بهذا، رأت فيه الوحش الذي أكونه أنا، حصيلة ذلك اليوم حين فرضت ذاتي عليها لأثبت أحقيتي كرجل، لست نادماً فأنا لا أجد للندم مكاناً في فؤادي فأنا ضحية الزمن، الظروف كما البشر، لم يوجد ولن يوجد مثلي أضحية لجلدات القدر، ولأجد اليقين في هذا بسبب أسامة.

أنجبت أروى ابناً لنا أسمته أمي أسامة، استقبلته بالدموع الوفيرة من يراها يقول إن حبها لي انتقل للصبي، ومن أنا لأشكك في ذلك؟ أمي أحبتني بالرغم من كل شيء لا بد أنها أحبتني بطريقتها الخاصة، فعلت المستحيل لتوفير الطعام واللباس لي، رعتني حتى شبابي، آزرتني في مهنتي ولم تخجل من سيفي البارق أو ثوبي الدامي، بقيت بالقرب مني بعد الزواج لتتحقق أن تكون زوجتي صالحة لي، أن تستحق الارتباط بابنها السياف، حمتني كي لا أصبح همساً بين ألسنة الناس بدفعي لإثبات رجولتي، وقد فعلت لأخرس أي فتنة أكون مركزها، هذا هو الحب العظيم لأمي، لكن لماذا لحبها لي شروط؟

أنى لي ألا أرى ابتسامة كهذه ترتسم لي أنا؟ لقد تُقْتُ لنظرة حنان كتلك، للمسة يد عطوف لا تصيبني بالسقم، لشفاهها تقبل رأسي أو وجنتي، لماذا يحظَى أسامة بكل ما رجته روحي؟ ظمئت حد الموت للحصول على القليل ولو الفتات من هذا الحب الجلي، الخالي من القيود، لم يا أسامة تسرق مني رجائي الوحيد في الحياة؟ لقد ملئت روحي حسداً لك أنت يا ابن الرابعة من العمر.

منذ اليوم الذي ولد فيه الصبي حملته أمي بين ذراعيها ولم تتخل عنه يوماً، هو كجزء من جسدها، امتداد ظلها الذي لا يفارقها، يبيت في الحجرة معها منذ دخل المنزل، قامت أمي بكل حاجيات الطفل البدنية والنفسية ولم تمنحه لأمه إلا إن احتاج للرضاعة، وعلى ما يبدو أن أروى لم تمانع فوجود هذا الطفل جعل أمي إنسانة مختلفة، بتنا أنا وأروى كالمحجوبين عن عينيها، كمن لا ترى إلا طيفين، فكل اهتمامها وحياتها باتا للطفل بين يديها، لتردد دائماً:
ـ سندي الذي انتظرت قدومه، أنت أمل غدي الذي لم أجده في مخلوق، أنت من سيساندني في هذه الحياة وفي الكبر.

وهو قدم لها كل الحب والاهتمام اللذين لطالما رجتهما، لقد لجأ إليها كدرع له إذا منعته والدته من شيء أو إن نهرته عن سوء يرتكبه، لقد تطلع إليها أكثر مما فعل معي أو مع والدته. هذا الطفل صورة مُخالفةٌ لي في كل شيء، بطفولته السعيدة المحمية من أي أذىً، وسادة ناعمة لم تذق طعم الدموع والأسى، لضحكات صدحت بين جدران المنزل الفسيح، وتلك الثياب الجديدة التي لا يكررها أكثر من خمس مرات، كما المدرسة التي يرتادها متعلماً كل ما عليّ حُرم.

بالرغم من هذا هنالك شعور مبهم يخالجني حين أطيل النظر إليه، أشعر بالأسى على هذا الطفل الذي وُجِدَ من صلب مخلوق مثلي، أنا من لا أعلم عن الحب شيئاً لم أستطع مَنحه ما يتطلع إليه، أنا حقاً لم أرغب بالحصول على طفل من صلبي، مخلوق يحمل آمالاً ورجاء منى، فأنا أيضاً حظيت بهذه الآمال من أب تحت الثرى، فما بال هذا الطفل الذي يبصر والده أمامه؟ بالتأكيد هو يتطلع للكثير مني، يرغب حضناً، تربية على الرأس، سنداً لظهره ويداً تمسك به حين يقع، فكيف أمنحه ما لا أفقه؟ أسامة يا من عصفت بوجودي في إعصار جديد أجهله، أنت من عليه آسى، أن تمتلك أبًا حيًّا ميتًا في الآن ذاته، كم سيكون هذا عذاباً لك، وسعادة مريرة لي.

"في أعماق ذلك الظلام، وقفت هناك لفترة طويلة، أتساءل، خائفًا، متشككًا، أحلم بأحلام لم يجرؤ أي إنسان على الحلم بها من قبل."

ظللت أنظر لهذه الأسطر المكتوبة أمامي أكررها مرة تلو الأخرى هي كانت شهادة شقائي، صراعي الأخرس الذي لا أنطق به، كلمات مررت بها في أحد الكتب التي لدي، من كان يعلم أن جاهلاً مثلي يحمل كتاباً بين يديه؟ عندما تتذوق المتعة مرة تستطيع كبح جماح ذاتك بيسر، عدا أني أرخيت قبضتي عن زمام الأمور مرتين، فباتت خسارة ذاتي لمرة ثالثة مجرد مسألة وقت فحسب، رغبت بشيء يسلبني من هذا الكون، سببٍ لأهرب من الجميع والواقع، فوجدته بين سطور كتاب كان رائد يحملُه، رواية انكب على قراءتها حتى سلبت منه وقته، ولشدة إعجابه بالكتاب منحني إياه، في بادئ الأمر لم أقرأه،فكيف يمكنني أنا من لا يتعدى تعليمه الكتاتيب قراءة كتاب للمثقفين؟

إلا أن رائد ظل يسألني بشغف عن الكتاب، يطالبني وصف ما قرأت يسألني عن رأيي به، ولم أرغب أن أبدو كأُميٍّ لذلك فتحت الكتاب، وبالرغم من أني وجدت صعوبة في قراءته بادئ الأمر إلا أني لم أجد القوة لأتركه من يدي، فالتهمته كالنهم، قرأته كله عدة مرات، كمن يخشى انسلال بهجة الحياة من يديه، وحين انتهيت منه انطلقت كالمسحور صوب مكتبة مقتنياً كل عنوان طرق باب فضولي، شيئاً فشيئاً زاد عدد كتبي، توسعت آفاقي، هدأت أعاصيري، وفي تلك اللحظات التي غرقت فيها بين صفحات الكتب كنت كل شيء إلا صاغر، لأصنع لذاتي مختلىً بعيداً عمّا أبغض، حيث أهرب حتى من ذاتي، بنيت مكتبة غمرتها بكتب أحببتها أكثر من الحياة ذاتها، فبات الوقت الذي أقضيه فيها هو حبل نجاتي وكل أنفاسي.

صوت طرق باب حجرة مكتبي انتشلني من أفكاري السوداء وأحلامي التي لن تتحقق، لأتأفف من صوت الطرق

ـ من؟

ـ مدير مدرسة أسامة هاتف المنزل، ويطلب حضورك.

نهضت من مقعدي المريح صوب الباب فاتحاً إياه بغضب لأجد ذاتي أمام مشهد أروى التي لا تفتأ ترتعد من حضورها أمامي أو حولي، لم ألق للأمر بالاً ولا يعنيني ذعرها،

ـ لماذا يطلبني المدير؟

ـ لا أعلم.

ـ ولماذا لم تسألي؟ ألا يمكن لعقلك الصغير التفكير بأمر بسيط كهذا؟

لا أعلم متى تغيرت معاملتي لهذه الإنسانة ولماذا أحاورها هكذا، أنا بالتأكيد لا أحمل أي شيء من المشاعر صوبها، عدا أني أحتقرها كما تَمّ احتقاري ذات يوم، أنا أعلم كم الأمر مؤلم، شعرت بذلك في وجداني من قبل، لقد ذَبُلْتُ من هذه الآلام، وأنا أنكله عليها دون تردد أو ندم، رأيت روحها تغرق ببطء حين حدثتها هكذا من قبل، ليس ألماً مما قلته فالألم لا يأتي إلا من مُحِبٍّ، وهي بالتأكيد لا تحمل إلا البغضاء لي والخوف مني، لعل سبب هذا الموت البطيء هو لأنها تأسى على ذاتها، وإن كان الأمر كذلك فلِمَ لا تهرب أو تطلب الطلاق؟ كنت لأمنحها هذا دونما تردد، لقد أنجبت ابناً ولا شيء يمكن لي أو لوالدتي قوله عنها، ليس باستطاعتنا تهديدها بشرفها بعد ذلك،هي فقط خانعة خاضعة لمصيرها وحياتها، كمن رغبت بهذا وتعطشت له، هي ترغب من يحطمها، كما شعرت أنا بالرضا من معاودة سخط أمي عليّ مجدداً، عندما نحال لحطام تعيس، نتعطش للمزيد من القهر، فهو كل ما يتسرب لأفئدتنا المحتضرة،هو يقين حياتنا، برهان الأنفاس التي تتغلغل داخل أجسادنا الحية.

لم أنتظر إجابتها فلقد أخذت مفتاح السيارة منطلقاً بها صوب المدرسة الخاصة التي أصرت والدتي أن يرتادها أسامة، أفضل تعليم لمن نصبته سنداً لها في هذا الكون، كما لو أني لم أوجد، أليس كل ما قمت به حتى هذه اللحظة من أجلها؟ لقد كرست وجودي كما كياني كله لها، عدا أني أعتدت هذا، لكن من حين لآخر فقط بين فصل للآخر أتمنى وجداناً صادقاً منها خالياً من أي أسباب.

ما أن دخلت المدرسة حتى استقبلني أحد المدرسين والذي يبدو عليه الاضطراب الشديد، فلقد ظل يردد فيما شققنا طريقنا صوب مكتب المدير:

ـأبا أسامة، لا أريدك أن تقلق، أسامة بين أيدٍ أمينة لقد أوقفنا الأمر قبل أن يمتد الأذى لأمر خطير، ابنك بخير فلا تَقلق.

ما أن فتح باب حجرة المدير حتى وقعت عيناي على أسامة المضرج بالدماء، تلون ثوبه بقطرات متناثرة من الدماء والأتربة التى تُركَت كطبعة أقدام، رأيت منديلاً تلون بالأحمر موضوعاً في أنفه ليوقَف النزيف، لمحت ذلك الشق الجلي في شفته السفلية والكدمة على وجنته اليسرى، لقد تمزق ثوبه من عنقه وانتزع جيبه العلوي متعلقاً بنسل خيط ذليل، أما هو فلقد انطلق صوبي باكيًا مُتعلقًا بثوبي، غلت الدماء في عروقي من صوت بكاء الفتى ومشهده، هل هو حب له؟ لا بالتأكيد ليس هذا، أرق فؤادي لصورة طفل كنته أنا ذات يوم؟ هذا أقرب للواقع من مشاعرَ تكون حبّاً. أمسكت أسامة من كتفه مبعداً إياه عني ليس بقوة شديدة، عدا أني أيضاً لم أكن لطيفاً معه، وقبل أن أفتح فمي أقبل إلي المدير متذللاً بقوله:

ـأتت سليمة أبا أسامة، لا تقلق أسامة بخير كما ترى، هي مجرد مشاكسات بين الطلاب لا أكثر.

مشاكسات بين طلاب؟ أتت سليمة؟ كيف هذا؟ في أي عَقْلٍ أو دين تقول إن الأمر بخير وإنها مشاكسة؟ لقد كنت في هذا الطرَف من المشاكسات من قبل، هذه جراحٌ مُتعفنة لا تفتأ تنزف قيحًا قذرًا يغلفنا حتى ننفلج بهيئة مسخ متلحف بخيال إنْسانِية لا تتأصل. فؤادي يحترق كما لم يفعل من قبل، هشيم ذاتي الطفلة التي لم تمتلك من يحميها ويردع عنها الأذى، تلك الكلمات التي قيلت لي: "كن أفضل منهم"، مشاهد صباي تتراءى أمامي مجدداً، يد طفل مرتعدة تمسك بخلاصها ونجاتها، مُطالبةً بالرأفة ، هو شيء لا أملكه

داخلي فأمنحه لمن هو من صلبي، لهذا لم أرغب بنسلٍ لي، عندما نُخذل ممن هم رجاؤنا نُصاب بمقتل.

كبحت لجام سخطي فيما أمرت أسامة بانتظاري خارج مكتب المدير، لينظر إليّ برجاء طالباً لمسة رحمة لم أقدمها له، لتنهمر دموعه جارّاً قدمه للخارج خلف المُدرس، جلست على المقعد المقابل لمكتب المدير الذي جلس بخيلاء على مقعده من يراه يحسبه يشغل منصب وزير رفيع المستوى.

ـ أريد من حضرتك أن تعلم أمراً، شيء كهذا نادر الحدوث، كما أنه لعب بين الأطفال وإن تمادوا فيه قليلاً، لذلك نحن لا نتساهل مع هذه التصرفات، ولقد أخذنا التدابير اللازمة لمعاقبة الطلاب الذين أساؤوا لابنك.

ـ تمادوا فيه قليلاً؟ أتسمي هذه الإساءة لعباً؟ هذا الطفل ينزف من كل مكان، لقد مزقت ثيابه كما تعرض لضرب مبرح من أقرانه، وكل هذا لعب؟ إذاً ماذا لو أنهم كانوا جادين في أذيته، هل كان ليمسي الفتى جثة هامدة؟

ـ أبا أسامة أنا أب مثلك، لذلك أعي قلقك، ولست أستصغر مدى الأذى الذي تعرض له ابنك، ولكن لست أرغب بتصعيد الأمور أيضاً، فهم أطفال وحسب.

ـ أي أطفال في الثامنة من عمرهم لا يفقهون الفرق بين الأذية والمزاح، أو أنك أطلقت عليه لعباً؟ لا شيء من هذا يدل على العبث أو المشاكسة، هذا اعتداء على الفتى، لو أنها مشاجرة بين طالبين لما لما فتحت فمي بكلمة فهي معركة عادلة، ولكن أن يتم التجمهر عليه

وإيذاؤه هكذا أمر لا يمكن تصنيفه إلا كاعتداء، والآن أخبرني أيها المدير أين كان المعلمون عند حدوث هذا الأمر؟ وما هو عقاب من اعتدوا على أسامة؟

ـ لقد حدث الأمر في فترة الاستراحة حيث كان الطلاب في الساحة، لذلك لم يكن هنالك أحد من المعلمين موجوداً لإيقاف الطلاب، أما عقاب الطلاب فهو الفصل لثلاثة أيام وسيتم استدعاء أولياء أمورهم لأخذهم وشرح الأمر لهم.

ارتعد قلبي من فكرة المواجهة، عدا أن المدير أردف قائلاً:

ـ أعلم أنك قد ترغب بمقابلة آباء الأطفال الآخرين وتحديثهم بما حدث، ولكن أعتقد أن أمراً كهذا قد يؤدي إلى تعقيد الأمور، فلا أب يرغب بسماع سوء الحديث عن ابنه، ولا أب يتحمل رؤيته ابنه بوضع كما وضع أسامة، لذلك أطلب منك ثقتك وترك هذ الأمر لنا وأعدك أن ينال المعتدون ما يطيب لك.

تنفست الصعداء عند سماع هذا، لقد أنقذني المدير لذلك سأقبل هذا الانتصار الواهن فيما أغادر المدرسة صوب المنزل مع أسامة.

ما أن خرجت من حجرة المدير حتى نهض أسامة عن المقعد الذي كان يجلس عليه هرعاً إلي، إلا أنه لم يتشبث بي هذه المرة، رفع رأسه ناظراً إليّ نظرة أثقلها الخوف والاضطراب، هو لا يعلم ما هي ردة فعلي على ما حدث، وكيف له أن يعي هذا في حين أن أحدنا لا يعلم عن الآخر شيئاً يتعدى الأساسيات، عندما أشاح الطفل بنظره للأرض بعينين دامعتين علمت أنه رأى في عينيّ السخط، لتتساقط دمعاته صوب وجنتيه، أقبل علي المعلم محادثاً إياي بصوت هادئ:

ـ أرجوك ترفق بأسامة فهو لم يخطئ أو يفتعل أي ذنب لقد كان الضحية فحسب.

ـ لماذا؟ لماذا يستمر هذا الطفل بسرقة كل ما تمنيته ذات يوم؟ لمَ يحظى برأفة وتعاطف لم أنلهما يوماً؟ لقد تأذى مرة واحدة فقط، أنا عانيت هذا كل يوم، لقد تذوقت الثرى ودمائي بشكل شبه يومي، ومع هذا لم ينظر أحد إليّ برحمة، كل ما استطعت قوله هو:

ـ يحصل خير.

أمسكت أسامة من معصمه بقوة جاذباً إياه خلفي ومنها للسيارة، لم يتحدث طيلة طريقنا للمنزل إلا أن الصمت تخلله شهقات باكية وأنفاس متقطعة، وقبيل اقترابنا من المنزل وبصوت ذليل قال لي:

ـ أنا آسف.

ـ ولماذا أنت آسف؟ أتعرف الخطأ الذي ارتكبته؟

ـ لأني تعاركت مع طلاب صفي، ما كان علي الجدال معهم، كان لا بد لي أن أتجاهلهم فحسب.

قبضت بيدي على المقود بقوة محاولاً جهد روحي التحكم بأعصابي، فليس هذا سبب سخطي ولا هو ما يحرق كياني ليردف قائلاً ما يغتال كل عزمي:

ـ لكن هم من بدأ الأمر، لقد تحدثوا بالسوء عنا، هم قالوا إننا وحوش، أنت تقتل الناس لأنك لا تملك قلباً، ثم تحضر دماءهم للمنزل فنشربها لأننا وحوش. لم أتحمل هذا الأمر وردعتهم لذلك قاموا بضربي.

حينها خرجت من السيارة صافعاً الباب الخلفي بقوة هائلة، اتجهت صوب باب أسامة لأفتحه جاذباً الفتى من ثوبه وحاملاً إياه من قميصه، مسارعاً الخطا صوب المنزل، أما هو فقد أمسك يدي بقوة حتى لا يسقط، فيما تعالت صرخاته مختلطة بين البكاء، الاعتذار كما الرجاء، ما أن دخلت المنزل وصفعت الباب خلفي حتى ألقيت به صوب الأرض، ممسكاً بعقالي منهالاً عليه بالضرب، ليضجّ المنزل بألحان صرخاته المذعورة المتألمة، ليحاول الابتعاد عني بالهروب إلا أني أسرع منه لأمسك به وألقي به أرضاً مجدداً.

من يحسب هذا الفتى ذاته حتى يحاول الدفاع عني؟ أيعتقد أنه أفضل مني؟ أقوى مني؟ من هو حتى يحميني؟ أنا من أنقذت ذاتي بمفردي، ارتقيت من جحيم الفقر والنجاسة لهذا المكان بقوتي وعزمي، أيحسب أني أحتاج غِرّاً ذليلاً مثله ليأزرني؟

أنا السياف صاغر، من ضُرِب وضَرَب، من قُتِلَ وقَتَل، طُغِيَ عليه فَطَغَى، أنّى له هذه الجرأة؟ ولو أنه بهذه الجسارة، فلِمَ لَمْ يحمِ ذاته من الأذى؟ ألم يقوَ على ضرب من آذوه أو إرهابهم؟ أعليه أن يكون صورة من ذاتي التي أبغض؟ مُعيداً ذكريات تطارد يقظتي كما سباتي، قائلاً: "عليه تجاهلهم" سأحفر في جسده ما لم يعلمني إياه أحد، سأضرب الذل والهوان منه، ليكونَ أي شيء غير صورة مني، لعله لا يمسي وحشاً مثلي، لعله لا يُكبّل بسلاسل ذعر تقيّد فؤاده كما روحه، ليست أرغب بتذكار حيّ عن هواني، وسام عار لما أنا عليه.

صوت صراخ أسامة جعل كلّاً من والدته كما أمي تهرعان حيث كنا، فتهرع أروى صوب ابنها تحتضنه، فيما حالت أمي بيني وبين أسامة صارخة بأعلى صوتها:

ـ ماذا حدث؟ لماذا كل هذا الصراخ والعويل؟ لماذا تضرب أسامة؟

ـ أنا أجلد الخوف فيه، أنا أصنع منه رجلاً قويّاً، لأنه طِفلٌ بَكّاءٌ لا يقوى على الدفاع عن ذاته، سمح للأطفال بضربه دون فعل شيء أو حماية نفسه، أنا أضربه حتى يتذكر ألم الضرب ولا يسمح لأحدٍ بضربه مجددًا.

ـ ماذا؟ لماذا لم تضرب من آذوك يا أسامة؟ أنت رجل، كيف تنوي أن تكون سند جدتك وأنت ضعيف هكذا؟ كيف ستعتني بي في الكبر إذا لم تعرف كيف تدافع عن ذاتك؟ كيف لي أن أفشل في تربية صبيّين هكذا؟ لماذا حظك تعيس يا غالية.

الآن علمت سبب حبها له، هي لم تُحِبهُ لذاته، بل فكرة وجوده من أجلها، رغبت بالسند من مخلوق لم يكن ذاتي القانطة، فقدت أمي الأمل مني منذ كنت طفلاً لذلك لم تمنحني شيئاً من المشاعر، عَلِمَتْ أني لن أتمكن من تحقيق رغبتها وأمنيتها بالسند، حينها ابتدأت مع أسامة من جديد لتعيد كتابة أخطائها من البداية، لتحفر فيه ما فشلت بزرعه داخلي، والآن وقد حطم هذا الفتى آمالها ليس له مكان في فؤادها أو مشاعر تقدمها له، شيء من الرضا والاكتفاء اكتسحني، كما لو كان سخرية من طفل فقد ما مُنِعَ عني، لا أحد يقدم له الدفء، أيمكن أن يشعر الآباء بمشاعر مشوهَة كهذه صوب أبنائهم؟ أم أني أنا المشوه الميئوس منه؟

ـ أهذا كل ما لديك لتقوليه؟ أهذا كل ما يهمك؟ فقدانك لسندك؟ ألست تهتمين بأي مخلوق عداك؟ ماذا تكونين أنت؟ أي مخلوق سقيم تكونين؟

صرخت أروى المنكبة على ابنها، لأرتعد في مكاني ذعراً من ردة فعل أمي، ومن الجبروت الذي تملّك المرأة التي كانت صبيحة اليوم ترتعد،

ـ ماذا قلت لي؟ كيف تجرئين؟

ـ أجرؤ وسوف أجرؤ على أمور أسوأ إن تحدثت عن ابني هكذا.

انطلقت أمي لتصفع أروى إلا أنها وقفت على قدميها قوية أمام والدتي موقفة يدها عن لمسها، لأرى السخط كما الذعر ينتفضان في جسد أمي، التي نظرت إليّ صارخة:

ـ أستدعها تعاملني هكذا؟ كن رجل بيتك.

ـ كن رجلاً أو لا، أمر كليكما لا يهمني، لا تجرؤ على لمس ابني مجدداً! أتريد جلد الخوف فيه؟ اجلده في ذاتك أولاً، هذا الفتى ابني أنا، أسامة مني ولي، لقد خرست طيلة سنوات على ما فعلتماه بي، لم أفتح فمي يوماً وطأطأت رأسي بالرغم من جحيم العيش هنا، عدا أن هذا الأمر لن يتعداني يوماً، لن تقتربا من أسامة أو تمساه بسوء، وإلا والله ورب العرش الذي لا يهتز، لأجعلن سيرتك يا غالية على كل لسان، لا تعتقدي أني لا أعلم ما كنت عليه سابقاً، أو أني لا أسمع حديثك الفاجر في الهاتف ليلاً، كنت وما زلت مجرد فاجرة نتنة تتظاهر بما هي ليست عليه، فأقسمُ بمن جَبَلَني لأخبرن العالم أنك فاسقة وأن ابنك ابن حرام، ولست بحاجة لبرهان فكلمة واحدة كفيلة بجعلك علكة في لسان كل أهل جدة، فلا تتجرعي سخطي.

سرت رعشة نشوة في جسدي، أهي من صورة هذه المرأة القوية التي وقفت أمامي؟ من والدتي التي ارتعدت داخل نفسها خوفاً؟ أين كانت هذه المرأة من قبل؟ أنى هي عن حياتي؟ لماذا ظلت ذليلة تتجرع مرارة العيش حتى هذه اللحظة؟ أتمنى لو أنها بزغت هكذا من قبل، لو أنها امتلكت الجرأة، لربما ما كنا حيث نحن اليوم، أكان يمكننا أن نكون عائلة حقيقية حينها؟ أأمكننا أن نتحاب فيما بيننا؟ لعله كان بإمكاني العيش حرّاً، متحرراً، محبّاً لها ولأسامة؟ لماذا لم تتحركِي قبلاً أروى؟ لِمَ لَمْ تُحرريني؟ رأيت الحب في عينيك صوب أسامة، حبه أدرك كلانا أنك تحملينه هذه اللحظة فقط، أما كان بمقدورك حبي أيضاً؟ لو أنك أظهرت بعض الود لي منذ البداية، لو أنك لم تَبْدِي كمن سيقت للموت حين تزوجنا، هنالك الكثير من لو، أعلم أنَي محطمٌ بلا رجاء فيه، لكن أنى لك أن تحكمي عليّ بالبغضاء قبل معاشرتي؟ ألا يحق لي قلبٌ واحد يحبني؟ ولو قلب واحد فقط! تحطم فؤادي من أفكاري، هذا الرفض الذي أشعر به من كل المخلوقات، معارضة النظر إليّ أو محبتي، هو امتناع يسبق أي رجاء أو التماس أتقدم به.

صرخت أمي بصوت مرتعد:

ـ تطلقي إذاً، لترحلي عن منزلي وعودي حيث أمك مع ابنك، لا حاجة لنا بكما.

ـ لا يا غالية أنا لن أرحل، هذا ما تتمنينه أنت فحسب، هذا المنزل منزلي أنا وهو حق ابني، لن أرحل منه وأمنحك الرضا،ولن أنفصل عن ابنك أبداً، لقد عانيت مر العيش هنا لوقت طويل ولن أقبل بأن يُقال عني مطلقة لم تنجح في حياتها بعد كل هذه السنوات، أصابع

المجتمع ستجد دائماً خطأً في المرأة، وأنا أرفض أن يوضع الخطأ بي، لذلك سأظل ألعب دور الزوجة السعيدة في هذه العائلة السقيمة، وإن لم يعجبك الأمر فلترحلي أنت من هنا.

لم تنتظر أروى ردّاً من أي منا، فلقد أمسكت بأسامة وأخذت به صوب الحجرة فيما تعالى نحيبه في المنزل.

تهاوت أمي على الأرض تندب حظها، لاطمة وجهها ضاربة على صدرها:

ـ لماذا حظك هكذا يا غالية؟ لقد حاولت، حقّاً حاولت أن تنجحي في تكوين أسرة، أن يكون لك سند، فلا ابن هو رجل، ولا حفيد هو قرة عين، فُتّ عَضدك يا غالية! منحت كل كيانك وكينونتك لمن لا يستحق، فقدت شبابك كما صحتك من أجل الجميع، كل ما رغبت به هو العضد، آه يا غالية يا مسكينة! يا ضحية الرجال والزمان، أيوجد من هو مثلك؟ أهنالك من هو وحيد، مهان، منكسر مثلك؟ آه يا غالية! يا من لم تكونِي غالية عند أحد.

أأضحك من هذا المشهد أم أبكي؟ أأحملها من الأرض أداوي ألم روحها المصطنع أم أتجاهلها متحملاً سخطها عليّ لاحقاً؟ الآن في هذه اللحظة كل ما ترغب به هو جذب الانتباه، التحقق من أنها ما تزال محبوبة، أني لن أتخلى عنها أو أهجرها، ولعلها تتمنى أن أفتك بأروى الآن، أمر لن أفعله مطلقاً، ليس بعد ما شهدت بأي حال، لقد انبثقت تلك المرأة وحشاً كاسراً، أُمّاً محبة بكل ما تحمله الكلمات من مغزىً، لعلها لن تهابني بعد الآن، بل هي ستسيطر على منزلها وحياتها من دوني، هل سأكون ذليلاً لها الآن؟

أيكون لسانها سليطاً مسموماً مثلِ أمي؟ هذا جانب لم أره قبلاً، هو مثير كما مخيف، أن ترى من كُسِرِ يجبُر ذاته محطماً في ذلك من أهلكك، منذ هذه اللحظة سيكون هنالك وحشان في هذا المنزل، وأنا فريسة كليهما، متى يحين دوري لأكون المفترس ؟

-١٨-

وقفت مطأطئاً رأسي صوب الأرض أبتغي سرقة دموعٍ لا أجدها، ألتمس شجناً لا يصاحبني، ألا يتحتم على البأس التدفقً سيلاً عارمًا من وجداني؟ أي شيء عدا هذا الخواء كما السكينة، لم لا أجد أسىً أتلبس به؟ وقفت وحيداً دون من أشُد به عضدي أو مخلوق يؤازرني، في فسحة منزلي الذي فُرشت أرضه سجادات قذرة وملأت باحته كراسي مصفوفة، في ليل مقمر انتصبت مستقبلاً العزاء في أمي.

ما زلت لا أعي ما حدث، تسلل إليها الموت خلسة، بهدوء أخرس نتن، قبل لحظات كانت تُغني قارئة الفنجان مع عبد الحليم فيما تضع الحلي عليها استعدادًا لزفاف دُعيت إليه، فجأة تلاشى صوتها لأسمع صوت ارتطام هزَّ أرجاء المنزل، لم أهتم لأنهض وأرى سبب هذا الصوت، فليس من الغريب سماع هذا الضجيج في منزل به فتىً يافع وامرأتان مُتعديتان، إنه لمنزل مشحون بالعداء، اللعان والبغضاء. بقيت في حجرة النوم الخاصة بي أقرأ كتاباً ما في انتظار خلو المنزل من منغصاته. منذ اليوم الذي انتفضت به أروى معلنة عن حقها كسيدة للبيت وأمٍّ لأسامة، جاهرة ببغضائها لي هَجَرَتْ حجرة النوم التي بالكاد نتشاركها، أخذت لذاتها حجرة منفصلة بعيدة عني وعن هذا الفراش الذي يؤلمها كلما استلقت به حسب قولها:

هو شاهد على براءتي المسلوبة مني قهراً، هو مثل الشوك يطعن جلدي، لحمي وعظامي، أشعر بالوصب في كل مرة أرقد عليه، وفي كل مرة أنهض عنه أتجرع مرارة عذاب جسدي يُشقُّ عني، روحي تسلب مني ملتصقة بهذا الفراش الذي هو شاهد قبري، أبغض هذه الحجرة التي سمعت أنين ألمي ساخرة مني بصمتها، وهذه الرائحة التي تحوم هنا وهي تحملك تصيبني بالسقم، لن أبقَى في مكان يمنحنا الهواء ذاته هذه الفكرة بحد ذاتها كريهة مريضة.

بهذه الكلمات هجرت أروى حجرة النوم، المكان الوحيد الذي تشاركناه كما بغضناه، لقد هَرَبْتُ منها ومن هذه الحجرة منذ اليوم الأول، لم أعلم حينها أني فقدت ارتباطي الوحيد والأوحد بهذه المخلوقة، سرير حقير وحجرة مقيتة هما أساس علاقتنا كما مقر تعاستنا، والآن أروى تخلت عن كل هذا معلنة بزوغ فجر جديد عليها، فيما بقيت أنا بين ظلال المخلوقات صاغر.

سمعت صوت الارتطام الساعة التاسعة والنصف مساءً، ليتردد صدى صوت أسامة الصارخ الساعة الحادية عشرة، لقد كان هو من وجدها ميتة على الأرض حين ذهب ليخبرها بأن موعد انطلاقهم قد حان، هنالك على الأرض الباردة استلقت ووجهها مقبلٌ الأرض، أقبل عليها أسامة يناديها عدة مرات وحين لم تجب صرخ بأعلى صوته:

ـ أمي، أبي تعاليا بسرعة! أمي غالية لا تتنفس.

انتفضت من مكاني بسرعة متسلقاً الدرجات صوب حجرتها وأفكار الكون تتصارع داخلي، لقد كان الهلع هو سيد الموقف، أهو خوف من موتها وفقدانها؟ رجاءٌ للتحرر؟ لكن ما هو مقدار هذه الحرية؟ أتكون نهايتي أم مجرد بداية؟ لا أفقه شيئاً أو أعي ما يحدث حولي، كانت الثواني مثل أبدية لا ترحم، رأيت أسامة بين أحضان أروى التي وقفت عند الباب، عدا أني لم أتبين تعابيرهما حيث إن عينيّ وقعتا على الجسد الممدد أرضاً ووجهها الذي دُفِن بين خيوط السجاد، هويت حيث هي واضعاً يدي على كتفها بلطف وجس، وبذعر تلبسني دفعت جسدها ليتأرجح للخلف فيهوي ظهرها للأرض مظهراً وجهها الذي خُطِفت ألوانه فبات رماديّاً مثل شتاء ميت .

بيدين مرتعشتين أمسكت ساعدها واضعاً أصبعي حيث أشعر بنبضها، عدا أني لم أجد شيئاً، ظللت أتنقل بين ساعدها وعنقها مرة تلو الأخرى علِّي أجد حياة تختبئ بين الثواني، هباء كل هذا هباء، لقد أيقنت منذ وقعت عيني عليها أنها ميتة، لقد رحلت بصمت لم يكن من شيمها.

توالت شهقاتي الباحثة عن الهواء المسلوب مني، عيناي ما زالتا تبحثان عن حقيقةٍ بين الكذبة التي أبصرها، تصارعتْ مشاعريٍ هاربةً مني على هيئةِ صرخةٍ طال قَهْرُها، لتُقذَفَ من جوفي ضيمًا لم أُنطِق به قَبلاً، أهو ألم فَقْد؟ أهي صرختُ انتصار على الحياة؟ أم نداءٌ لحريةٍ طال انتظارها؟ ذُعرًا لمجهول أمسيه دون أمي؟ حياة لا أجدها فيها؟ لعلها حسرةٌ على لحظات لم أتمكن من أن أحظى بها معها، كلمات تَمنّيتُ سماعها قبل أن يمزق الموت بيننا؟ أبغضاء لذاتي التي خَشيتْها؟ إنكار حبها لي! لماذا أصرخ؟ أحتضنها شوقاً تعشش بين أضلعي! جوفي يحترق كما لم يفعل من قبل، هذه الروح التي فقدت الحياة منذ أزل تضْرِمُ لهيباً يُحيلُ وجداني لهشيم، تمنيت أن أحتضنها من قبل، أن أشعر بدفء أنفاسها علي، إلا أن هذا الحضن بارد كالصقيع، جسدها مُتحجرٌ بين ذارعيّ، تعطشت لمعرفة رائحة أمي بعيداً عن العطور الفاتنة بحثت عن رائحتها بين صفعاتها منذ طفولتي، إلا أنى وحتى فى الموت لم أجد ما أصبو إليه، سُرِقَ كل شيء مني، وحتى رجائيِ الأجوف بأمنيات أُوقن استحالة تحقُّقِها هربت مع الموت، لتكونَ باردة في موتها مثل حياتها.
ذبحة صدرية، هذا ما أخبروني به بعد تأكيد موتها، ماتت بهدوء دونما عناء.

كم هذا مثير للسخرية أن ترحل من كانت صاخبة حتى في سكناتها بصمت دون أي جلبة. استقبلت العزاء لمدة ثلاثة أيام آزرني فيها رائد دون مقدمات لم أطلب منه حتى، لقد وصل للمستشفى معي حين سمع بالخبر من أحد عناصر الشرطة الذي قَدِم مع الإسعاف ليأخذ إفاداتنا، قام بتجهيز ساحة المنزل للمعزين كما تحقق أن يكون كل شيء كاملاً دون أي نُقصان، أهذا ما يطلق عليه صداقة؟ لِمَ يفعل هذا لي؟ أعلم أن رائد يألفني منذ التقينا في التدريب ولهو أمر عجيب، شيء لم أفقهه، لم أدعمه يوماً أو أكنْ ودوداً معه، بالتأكيد لم أعامله بجفاء إلا أن هذا هو حد تعاملي معه، لطالما خالجني هذا السؤال، لا أعلم إن كنت سأجد الشجاعة لأطرحه عليه، عدا أن اليوم أو الآن ليس بالوقت المناسب.

ها هو ذلك الرجل مجدداً، وجه لم أميّزه بين الحضور، لقد حضر العزاء لثلاثة أيام متتابعة، يقدم منذ الغروب وحتى يفض الجمع من المعزين، يأتي كل يوم مطأطئاً رأسه، يتجافى عينيَّ، ممسكاً يدي بمصافحة قوية واضعاً يده الأخرى على كتفي مربتاً عليه، بهدوء ووقار يقدم التعازي ثم يشق طريقه إلى آخر الصفوف متخذاً مجلساً بين الظلال محركاً بين أصابعه خرزات سبحته فيما يهمس بالتسابيح والاستغفار. ظللت أبحث بين ذكرياتي عن صورة هذا الرجل، شماغ أحمر وضع بحرص وأناقة على رأسه، بشرة حنطية اللون، لحية غير مهذبة طويلة تبعثرت فيها شعيرات بيضاء تدل على كِبَر سنه، كان وجهه مليحاً خُطّ بالتجاعيد مما يبدو عليه هو في العقد السادس من العمر أو يُناهزه، بالرغم من كل البحث لم أتمكن من إيجاده في قصاصات الذكريات .

هو بالتأكيد لم يكن من قاطني الحي القديم فهو وجه لم أميزه بين الأزقة البالية، وليس ممن اعتادوا ارتياد منزلنا ليلاً، فتلك هيئات وشمتها مقتاً في غيهب ذكرياتي. مع انقضاء آخر يوم للعزاء قدم إليّ الرجل مجدداً، أمر لم يفعله اليومين السابقين،

ـ أيمكننا التحدث لثوانٍ بمفردنا؟

ـ أعتذر أيها العم، ولكن كما ترى أنا أودع المعزين الآن.

لسبب ما تسارعت نبضات فؤادي، شعرت بذعر يصيب فؤادي، كما لو أني أخشى الكشف عن مستور لا ينبغي عليّ معرفته.

ـ أرجوك صاغر، هي ثوانٍ فحسب لن أطيل الحديث معك، فلحديثنا الطويل موعد، لذلك بضع لحظات من فضلك.

استسلمت لتضرعات الرجل الذي بدا عليه اليأس كما الخزي، لأخرج معه صوب الشارع الخلفي للمنزل حيث لا يوجد أحد، هنالك بين أضواء الشارع وقفنا في لحظات الصمت سيدها، يتجلى على الشيخ الاضطراب كمن يقف أمام قاضٍ ينتظر صدور الحكم عليه، وأي ذنب أو حكم سوف يتجلى علينا الآن؟ عندما استشعر الرجل مني التململ من الانتظار تحدث بصوت يرتعش:

ـ أنت لا تعرفني فنحن لم نلتق من قبل، إلا أني أعرف عنك وعن وجودك، لم أظهر وجهي قبلاً خشية أن أعكر صفو أيامك أنت ووالدتك، ولكن الآن وبما أن غالية قد وافتها المنية علمت أنه واجب عليّ إظهار نفسي لك ولو لمرة واحدة.

لعل ذعري من هذا الرجل في محله، أكاد أطلق قدمي للهروب وجلاً مما سيحكيه، أشعر أن هذا الرجل هلاكي.

ـ أيها العم، أرجوك ابدأ بحديثك فأنت تصيبني بالاضطراب.

ـ أنا أحد أفراد عائلتك صاغر، اسمي أُسامة عمادي، وأنت أخي الأصغر.

شعرت بالدماء تهرب من جسدي كله صوب قلبي المتسارع حد الاضمحلال، نظرت إليه بعينين تكادان تقفزان من مقلتيهما، استعر السخط في جوفي حتى هِبْتُ أن يحرق أغلالي، سُجِنت الكلمات في فاهي متراكمة حد الاختناق، لماذا يظهر هذا المخلوقَ أمامي الآن؟ ما غايته من تقديم العزاء وتعريف ذاته؟ تلك العائلة التي جحدتني سالبة مني حقوقي وسعادتي، لأمسي هذا الخراب القذر العاجز عن سحب مشاعر شفقة أو شجن لفَقْدِه، أُقسم إنها تحترق، أشعر بها تنصهر، تلك الأكبال الغليظة استعرَتَ حتى تحول لونها للقرمزي، هي تنصهر متساقطة للأرض، أكاد أتحرر! نفسٌ آخر وأمسي حُرّاً من أغلالي، عدا أن صورة برقت في ذهني أيقظتني من هذا، تراءى لي رأسي يهوي متدحرجاً صوب الأرض من حد السيف، نهايتي هي الموت إن لم أكبح جماح ذاتي، إلا أني لا أقوى على هزيمة عادتي التي تأصلت بي عندما تجتاحني المشاعر، لأتقيأ في موضعي، انتفض جسدي بعنف كبير كما لو أن روحي كلها تُلفظ مع مشاعري متناثرة على الأرض.

اقترب مني أسامة خطوة واحدة لأصرخ ذعراً مادّاً يدي أمامه:

ـ لا تقترب! لا تقترب مني! اذهب من هنا وارحل، ليس لي إخوة أو عائلة، فعائلتي الوحيدة قد واريت عليها الثرى قبل يومين، فابتعد عني ولا تظهر ذاتك أمامي، وإلا فلا علم لي ما أنا عليه شديد.

لم أنتظر إجابته مبتعداً عنه كالفار من الموت، لأجد رائد على بعد خطوتين مني، أعلم أنه لم يسمع كلمة واحدة مما قيل فقد كان صوتنا منخفضاً، إلا أن هيئتي كما التعابير التي طغت على وجهي أفصحت بالكثير، أقبل إلي رائد بهدوء هامساً فيما أسند ذراعي:

ـ ما الأمر يا صاغر؟ تبدو كمن شاهد عزرائيل أمامه

كان ليكون عزرائيل أمامي لو لم أتحكم بذاتي، إلا أني لم أجد القوة بي لأقول شيئاً فبالكاد أجد أنفاسي، ليردف رائد الذي حمل الشفقة في عينه قائلاً:

ـ يبدو أن عقلك قد فقه الآن خسارة والدتك، لذلك لا حاجة لبقائك هنا أكثر، نحن في نهاية العزاء بأي حال، دعني أنهِ الأمر عنك هنا فيما تخلد أنت للراحة وتختلي بمشاعرك التي بالكاد تكبحها.

قبلت اقتراحه بسرعة دون إجابة أنطقها، علىّ الهرب من هنا فوراً فلست أقوى على مجابهة هذه الأعاصير الآن، انطلقت مسرعاً صوب حجرتي، ملقياً ذاتي على السرير دون حتى تبديل ثيابي، وهنالك غُشي عليّ فعقلي البليد غير قادر على مواكبة ما حدث أو تحمل وزر الأفكار التي تغرقني، لذلك أغلق على ذاته رامياً بي في ظلام لم أرغب مجابهته.

بين الظلال أقف مجدداً، عند حافة الضوء المتسرب من باب الحجرة أشهد كما أستمع لتلك الذكرى التي أظل أَفِرُّ منها خشية من ثبوت يقيني الذي أتجاهله مُكذباً إياه، أأستمر بالنظر أم أهرب مجدداً؟ أنا أشعر به، ذلك الوزر الذي يضغط على جسدي الممدد على وجهه، شعرت بيده ترفع جلبابي فيما تنزع عني ستري، نظرت صوب أمي مذعوراً باكياً، لأسمع صوته القائل:

ـ من الأفضل لك إخراسه أو تثبيته فأنت لا ترغبين الفضيحة، كما أني سأدفع لك مبلغاً سخيّاً.

اقتربت أمي صوبي لتهبط حتى رأيت وجهها أمامي، عيناها باردتان حُمِّلتَا بالموت والبغضاء، ناجيتها بين شهقاتي منادياً إياها، رجوتها لتنقذني، مدت ذراعها واضعة راحة يدها على فمي، فيما جعلت يدها الأخرى خلف عنقي ضاغطة عليه لتحكم قبضتها علي وتخرسني سالبة مني صوتي كما براءتي، من هنالك شعرت بألم لا يوصف يمزقني، شعرت بجسده يسحقني، حرارة جسده تحرقني، صوته يصم آذاني، لقد كان عُنفاً لم أختبره يوماً في حياتي، لا شيء من الضرب الذي تعرضت له يقارب هذا العنف الحيواني الوحشي، تساقطت قطرات عرقه على ظهري كالماء المغلي، أنا أختنق! أنا أختنق! أنا أختنق! أمي أنقذيني! أمي احميني! لم تنظرين إليّ كما لو كنت نجسًا؟ لم لا تضمينني إليك؟ أمي أنقذيني! أرجوك لتكوني درعي! لا تكوني جلادي أو مفترسي، لم لا تحملين داخلك أي حب لي؟ بل أنا سوف أرضى بالشفقة، أي شيء إلا هذا الضيم الذي أختبره، أمي لم لست موطني الذي إليه ألجأ؟ لم بعتِ ابنك؟ قاتلةً طفولته سالبة حياته.

غُشي بصري من الوصب، شعرت به ينتزع ذاته مني، لتتخلى أمي عن قبضتها عني ملقىً على الأرض ومما بقي لدي من وعي سمعتها تهمس لي:

ـ أيها الفاحش سارق الذكور.

انتفضت مستيقظاً على صوت يصرخ اسمي وقوة تهز جسدي، فتحت عينيَّ مذعوراً لأجد أروى مضطربة أمامي، ومن غير إدراك مني أحطت ذارعي المرتعدتين حولها ضامّاً إياها إلي دافناً رأسي بين أضلعها، اهتز جسدها بعنف جَزِع بين ذراعيَّ، لتدفع بي بقوة عارمة مبتعدة عني صارخة:

ـ أفقدت عقلك يا هذا؟ من تحسب ذاتك لتلمسني؟

من بين أنفاسي اللاهثة وحنجرتي المتشققة ألماً تحدث وصب روحي:

ـ أقسم إني لن أفعل بك شيئاً، أعدك بعدم إيذائك لكن أرجوك، أتضرع إليك ارأفي بي واحتضني ألمي وذعري، أرجوك أسندي ظهري الذي قُصِم، أنا آسف، عهدٌ عليّ أن أعوضك عن كل ذنب ارتكبته بحقك، سأحيا فقط كي أُكفِّر عن ذنبي بك، لكن الآن وللآن فقط ارحميني وامنحيني شيئاً من المواساة، فؤادي يحترق، روحي تغرق، أتوسل إليك أروى لا تبتعدي عني!

لم أرفع عينيَّ صوبها ظللت أتحدث مكسور الرقبة ذليلاً راجياً ظل إنسان واحد يداوي هلاك وجداني المنهك، شعرت بها تقترب صوبي

بهدوء ودفء وضعت راحة يدها على وجنتي جاعلة إياي أنظر صوبها ليتصلب جسدي، حملت عيناها زمهريراً أليماً، استصغاراً ومقتاً لم تكن أقل من تلك التي حملتها أمي لي، كنت كمن أنظر في عينيها، ومن بين أنفاسها تحدثت سمّاً فتك بى:

ـ صاغر أيها المسكين الأحمق، أيمكن لك أن تكون حقّاً بهذه البلادة؟ أنى لك أن تتطلع شيئاً مني بعد الضنك الذي عايشته معك؟ أنت فعلاً لا تملك أي خجل أو مروة، أتبحث عن رأفة مني؟ عدا أني لا أحمل شيئاً كهذا لك، ولن أفعل يوماً، أتعلم ماذا؟ لقد هِبتُك قبلاً، كنت الوحش الذي يسكن كوابيسي من يتربص بي في ظلال ضعفي، هذا ما ظننته، عدا أنك لست بوحش ولا جبار، أنت مجرد خانع يرجو امرأة تذيقه الذل والمهانة ولن أكون أنا هذه المرأة، لن أمنحك الرضا أو أمسي مرقد أحلامك ورغباتك القذرة، أنا وأنت غريبان لا نمت بعضنا لبعض بصلة، لم تكن يوماً سندي أنا أو ابنك، لم تكن إلا شبحاً يطوف في الأرجاء، وجودي هنا فقط حتى يكون ابني في مكان يألفه، كي لا يذوق مر العيش في فقر لا يعلمه، لن أنكر أنك معيل جيد لنا، ولهذا أقبل الاستمرار في هذه الكذبة الملتوية، فلا أفقد مصدر عيشنا الكريم، لتكن كما أنت صورة من سياف جبار لا يطابق حقيقتك، أب حي غير متوفر، سند مصنوع من رماد متطاير لا يحمل شيئاً عليه، لتكن هيئة زوج مثالي لا يفقه معنى العِشْرة، لنستمر في هذه المسرحية الهزلية للأبد فكلانا لا يقوى على البدء من جديد وكلانا مثقل ببغضاء لا نعلم كيف نتخلى عنها.

بهذه الكلمات منحتني ظهرها لترحل، ولأني ذليل مهان رجوت تكذيب هذه الكلمات، رجوت التماس شيء من الإنسانية بها قائلاً:

ـ إذاً لم أتيت إلى هنا؟ لم أيقظتني من نومي منادية عليّ لو لم تهتمي ولو قليلاً؟ هذا كل ما أرجوه منك القليل فقط، لست أطالب بالكثير لا أرجو حبك أو ودَّك، إنما أطالب بالرحمة لى أنا من عانى معك فى هذا البيت لوقت طَويل، ألا يحق لي أن أرجو هذا منك على الأقل؟

ـ أنت حقّاً لا تملك كرامة، لقد انتفض البيت من صوت صراخك فخشيت أن ينقض مضجع أسامة فيهرب النوم منه، لديه مدرسة في الغد، أما ما ترجوه فلن تتمكن من أن تلقى ولو بصيصاً منه، لن أبرر ذاتي لك أنت لم تفهم شيئاً بسيطاً كهذا، فإن كنت أنت ضحية والدتك فأنا كنت ضحيتكما معاً، ولن أغفر لك دموعي التي تساقطت، ولا براءتى التى اغتصبتها.

خرجت أروى من الحجرة صافعة الباب خلفها، ومع الرياح الذليلة التي عصف بها الباب انطفأت شعلة روحي وتغلف وجودي بظلام لن أفر منه يوماً.

-١٩-

مضى شهر منذ وفاة والدتي بدقائق كانت كجحيم لا يخمد، لم تتغير علاقتي بـ أروى أو يرق فؤادها لي، مضينا كما كنا حسبما أمرت، عدا أن هذا ليس ما يقض مضجعي، بل هو إلحاح من يدعي أنه أخي، بالرغم من تجاهلي له، صراخي عليه كما تهديده بتقديم بلاغ صوبه، إلا أنه لا يفتأ يهاتف المنزل راجيًا مني لقاءه ولو لمرة واحدة، عدا أن كل مناشدته لم تلق أذناً تصغي أو فؤاداً يرأف. خلال هذا الشهر حرص رائد على زيارتي في المنزل ولو لمرة واحدة في الأسبوع، هو لم يسألني عن سبب اضطرابي في آخر يوم عدا أنه فعل اليوم:

ـ أعتذر لتطفلي صاغر، ولكن ما الذي حدثك به الرجل ذلك اليوم لتصاب بالذعر؟ لقد عرفتك منذ سنوات طوال، لطالما كنت هادئًا مُتمكناً من مشاعرك في جميع الظروف، لست أرغب التطفل على أمورك أنت أو عائلتك فهو شأنك في النهاية، غير أني لا أجد ذاتك الهادئة منذ ذلك اليوم، إن كان سبب اضطرابك هو وفاة والدتك فلا أحد يلوم وصب فؤادك، أما إن كان سبب هذا التقلقل أمراً آخر فأرجو أن تجد فيّ أذناً صاغية وعقلاً مُتفهماً.

في أي وقت آخر ما كنت لأتحدث مع أحد بشأن أمر يعنيني، لم أضطر يوماً إلى استشارة مخلوق في شيء يُحيّرني، لطالما أُمرت من والدتي في كل شؤوني هي أدارت حياتي وإرادتي كيفما شاءت، والآن بعد رحيلها بت تائهاً لا أعلم كيف أتخذ قراراتي أو أقضي شؤوني، رجوت أروى لتفعل، إلا أنها كانت حازمة تلك الليلة بأنها لن تكون المرأة التي تلبي رغباتي الملتوية، لهذا أنا بحاجة لمن يحركني ويخبرني كيف أفكر، ولعل رائد هو السبيل لهذا، خاضعاً له بدأت أخبره عن شيء من الماضي:

ذلك الرجل عرف عن ذاته باسم أسامة عمادي، أخبرني أنه أخي الأكبر، مخلوق لم ألتق به قبلاً.

ـ لم أعلم أن لك أخاً صاغر!

ـ إخوة، وليس واحداً فقط، أعتقد أن عددنا يبلغ العشرين أخاً وأختاً من خمس زوجات، كما ترى والدي كان مِزواجاً، وآخر زوجاته وأصغرهن كانت أمي. لا أعلم الكثير من هذا الماضي، فأبي وافته المنية قبل أن أعي عن العالم شيئاً تاركاً لأمي المنزل الذي قضيت فيه طفولتي، أما ماله الوفير فلقد سلبه إخوتي كل منهم يقتطع جزءًا من الورث له، فيما عشت مع أمي الفقر ومُرّ العيش بلا سند أو مخلوق يهتم لأي منا. عملت أمي كخياطة بالكاد تجني من المال ما يكفينا قوت يومنا، كانت حياتنا قاسية فعلاً، في سن الثالثة عشرة عملت كسقّا أحمل الزفة على كتفيّ جائلاً بها بين منازل الحارة، أتلقّى السخرية من هذا وذاك، جُلّ ما رجوته هو كسب مال يغنينا من الشقاء، ثم أصبحت سيافاً تتبعاً لجارنا العم عثمان هو من كان قدوة لي، ليرحمه الله فوق الأرض أو تحتها، وها نحن هنا اليوم، كان هذا كل كفاحي أنا ووالدتي، أنا من أخرجنا من القاع إلى حيث أصبحنا اليوم، من دون مساعدة مخلوق، والآن يأتي هذا الرجل يطلب التحدث معي، يرجو مني منحه بعض الوقت، الآن بعد كل هذه السنوات، يرغب بدقائق من حياتي حين لم يأخذ أي منهم ثانية واحدة للتفكير في أخيهم أو تذكره، الآن وقد بات كبيراً في السن يبحث عن مغفرتي قبيل الموت، لم علي منحه هذا؟ مهما رفضت مطلبه هو لا يفتأ يرجو لقائي، لا أعلم ما أفعل الآن، كيف أدرأ عني هذا الأذى؟

وجدت الشفقة تنمو في عينَيْ رائد، أمرٌ بغضته، في يوم ما كانت هذه الشفقة والرأفة هي كل ما أبغي، أما الآن فلست أرجوها ليس منه على أي حال، لقد تضرعت الحصول عليها من أروى كما أمي إلا أني حظيت بها ممن لا يعني لي شيئًا فبغضت رؤيتها .

ـ لا أعتقد أني في محل يسمح لي بتقديم النصيحة صاغر، فأنا لا أفطن ما مررت به، إنه أمر عسير وضيم لا يقوى عليه إلا الرجال الأشداء مثلك، كما هو الصفح صاغر، أعلم يقيناً أن ما عايشته أنت ووالدتك هو الإجحاف، عدا أن هذا أمر مضى عليه ما يقارب الثلاثين عاماً أو يزيد، فلا تعلم يقيناً ما حجته، ليس وكأن أي حجة له جائزٌ قبولها، إلا أنه أيضاً كان فتيّاً آنذاك وهو شخص من بين عشرين آخرين جاروا عليك، لعله لم يتمكن من مجابهة التسعة عشر شخصاً بمفرده، لا أعلم ما ينبغي عمله ولست أطلب منك الصفح عنه أو العفو الآن، عدا أنه ليس لديك ما تخسره باستماعك له، لعله يشفي شيئاً من جروح فؤادك، يجيب عن تساؤلاتك، أو لننظر لهذا من منظور آخر: لعله يرغب منحك حقك في الورث بعد هذا العمر، أنت ميسور الحال ولست في حاجة له عدا أن المال يبقى مالاً، من حيث أقف لا أرى أي خسارة لك في منح هذا الشخص فرصة أو منفعة الشك على الأقل، إن لم يكن له فافعل ذلك من أجل ذاتك وراحة فؤادك.

بالرغم من أن حديثه لم يلق استحساناً لدي عدا أنه النهج الذي قررت أن أسلكه، ليكن رائد من يقود اختياراتي في هذا الأمر على الأقل. عندما هاتفني أسامة مجدداً نبأته بقبولي رؤيته والاستماع لحديثه، ليكون اجتماعنا في اليوم التالي حيث منزله.

وقفت أمام القصر المترامي الأطراف، سمعت من والدتي أن والدي كان غنيّاً عدا أني لم أعلم أنه بهذا الثراء إن كان نصيب أحد العشرين شخصاً يمنحه منزلاً كهذا فما مقدار ثروته كلها؟

رؤية القصر جعلت الحسد ينهشني، هؤلاء الملاعين لا يستحقون العفو أو الصفح، كيف سولت لهم أنفسهم سلبي حقي؟ ألم يكن فيهم رجل رشيد؟ صوت عدالة يصدح لمنحي حقي؟ لو أن القصاص جائز عليه بالقانون لجعلت سيفي يهوي على أعناقهم، لكن ليس قبل أن أسحق أيديهم وأذيقهم العذاب. أدخلت سيارتي لبرحة القصر، حيث استقبلني أحد العمال فاتحاً لي الباب فيما أخذ المفتاح ليبعد السيارة عن مدخل القصر الذي فُتح بابه مرحباً بي، استقبلني عند المدخل رجل يبدو في بداية الثلاثينيات من العمر هو يبدو قريباً من عمري، كما أن هيئته قريبة لي لحد كبير من يرانا قد يقول إننا أخوان، عرف عن ذاته بأنه ابن أسامة البكر اسمه فواز، لم أهتم بمعرفته أو التحدث معه فلقد رغبت أن أقابل أسامة وأنهي هذا اللقاء الكريه، بعد لحظات تم إدخالي لمجلس فسيح يصرخ بالثراء من الثريات الضخمة التي تعلقت من السقف، للنقوش الذهبية التي زينت الجدران مجاورة اللوحات الكبيرة، وتلك الأرض المغطاة بالرخام الأبيض الساطع، كل شيء في هذا المكان صرح ساخراً من فقري مقابلة ما امتلكه هو، الفقر الذي فُرض علي منهم. استقبلني أسامة بالترحاب الحار كمن يقابل شخصاً عزيزاً عليه، مخلوقاً تاق لرؤيته منذ أمد، عدا أني قابلته بالجمود والاستحقار الجليين، جلست على أحد مقاعد المجلس ليبدأ أسامة محاولة الحصول على استحساني بتقديم كل أنواع الضيافات والمجاملات كما السؤال عن حالي وأسرتي، وحين بالكاد وجد تجاوباً مني طلب من ابنه فواز ترك المجلس لنا وإغلاق الباب خلفه، ليفعل الآخر، وحينها بدأ الحديث الذي هو نهايتي كما بدايتي.

ـ صاغر، إن سمحت لي بالسؤال، ماذا قصت عليك والدتك بشأنها أو عنا؟

ـ أعلم أنها كانت الزوجة الخامسة والأخيرة لأبي، وأن عدد أبنائه هو العشرون تقريباً وأنا الأخير فيهم، كما أن ثروته كانت هائلة، أستطيع رؤية هذا من القصر الذي اشتريته من ورثك كما ورثي الذي سرقتموه جميعاً.

لم أجمل حديثي أو أدثر كرهي المتأجج، طأطأ أسامة رأسه أرضاً فيما أردف حديثه كمن يحمل عقدة في بلعومه:

ـ سأحكي لك كل شيء صاغر، أرجوك، بل أتوسل إليك استمع لما سأقصه عليك بفؤاد رحيم وعقل متفتح، وسأجيب عن كامل أسئلتك بعد الانتهاء من قصتي.

ـ لا تطلب الكثير أسامة، فالفؤاد الرحيم مِلكٌ لمن رَحِمَ، العقل المتفتح رفاهية لا أملكها بعد، فلتنجز.

تنهد أسامة كمن سلم أمره للجلاد الذي هو أنا، فيما أردف:

ـ والدي كان رجلاً كثير الزواج، آخر زوجاته كانت والدتك تزوجها وهو في الستين من العمر فيما كانت هي بالكاد تبلغ الثانية عشرة، زوجها جدها لوالدي، فكما تَعلم غالية كانت يتيمة الوالدين، فقدت

والدتها عند الولادة ووالدها بعد ذلك بقليل، فرباها جدها الذي لم يقوَ على الاعتناء بفتاة صغيرة فزوجها رفيقه في أول فرصة أتيحت له. طلق والدي زوجته الأولى كي يظفر بوالدتك، عدا أن أبناءها مكثوا في المنزل ذاته، بل في الحقيقة جميعنا مكثنا في المنزل ذاته، أربع زوجات وعشرون أخاً وأختاً، لا أذكر إن كنت سعيداً أم لا حينها، بيت ملئ كل ركن منه بالبشر، أصوات تطايرت يمنة ويسرة، من بكاء أطفال، سجال إخوة، صراع زوجات، ضحكات الجاهلين من الصغار، بين كل هذا وذاك وُجدت والدتك التي كانت بِعمرنا، بل إن بعضَ إخوتي حظوا ببنات يكبرن غالية في العمر. نظراً لكونها الأصغر بين الزوجات فقد تم التعامل معها بطريقة سيئة، كما لو كانت خادمة تهتم بالأطفال، المنزل، وكل شيء، أتعلم كم هو مضنٍ العيش هكذا؟ تحت رحمة من لا يرحم، وليس وكأن أبي كان حاضراً أو مهتمّاً، بالنسبة له كانت غالية جسداً لليل فقط.

كدت أضحك حين طرح عليّ السؤال الأخير، كيف لي ألا أعلم، فهذه كانت حياتي، أمِنَ السوي أن يتخللني شيء من الرضا عن مصاب والدتي في صباها؟ وحين أنها تعلم سوء العيش بين مخلوقات هم أقرب للوحوش منهم للبشر، فَلِمَ تاقت أن أتجرع الكأس ذاتها؟ لم تلهفت لتعذيبي وترهيبي؟ بالإضافة لهذا فقد تملكني شعور مرير لسبب آخر، بالرغم من أني سمعت من والدتي البغضاء صوب والدي كما نعته بالفاسق، إلا أني لم أصدق شيئاً من هذا قبلاً، لطالما ظننتها تنفث سم شوقها وحبها له بهذه الطريقة، عدا أن حديث أسامة مثل برهان لما لم أرغب تصديقه، شعرت كما لو أنه سلب مني عزيزًا

احتفظت بذكراه نقية لوقت طويل، لقد لونها باللون الأسود حين أنها كانت قبل لحظات الطهارة الوحيدة في حياتي.

ـ أنا وغالية قريبان فى السن، ولطالما شعرت بالشفقة على حالها، رغبت أن أكون ملجأ أحزانها، لكن شيئاً فشيئاً ومع مرور الأيام باتت غالية فتاة مليئة بالجمال الأخاذ، وجدت وجداني ينبض لها رغماً عني، أشتاق لأكون معها، بغضت والدي الذي يحظى بها، ثم أتت تلك الليلة التي...

تسارعت نبضات قلبي، أنا أعلم مُنتهى هذا الحديث، موقن إبادتي، أراها أمامي مرأى العين، هو داخلي يُصارع الأغلال، ذلك الوحش يحرك بدنه مُتخبطاً بعنف، مُتبسماً من بين أنيابه، يجذب الأغلال بقوة، هي تحتك بعضها ببعض لتُضيء العتمة بشررها، هو يَتبسّم، عالماً أن عِتقهُ قريب.

ـ لقد أخطأت أنا وغالية كثيرًا ومرارًا، إلا أننا كنا صغارًا آن ذلك، ليس وكأن هذا عذر، إلا أنه الواقع، وحين أمسيت في الحادية والعشرين وغالية في السابعة عشرة، أصرت والدتي أن تزوجني، غير عالمة بما يكنه فؤادي لوالدتك، عدا أنها خطيئة لم نكن لنبوح بها، كنت في صراع ما بين إنقاذ حبي لـ غالية، أو المضي قدماً فيما تطلبه والدتي، فالحقيقة أن لا أمل لي مع غالية بأي طريقة كانت، في أسوأ الأحوال كانت عائلتي لتتبرأ مني وما أنا على بمتين، لذلك وافقت على من اختارتها أمي، ومن هنالك تغيرت غالية، حتى مع أبي باتت مختلفة

أصبحت مدللة لديه حتى إنه بات لا يرى غيرها، البيت الذي كانت فيه ذليلة أصبحت هي سيدته دون الجميع، إلا أن هذا لم يمنعها من طلب منزل آخر تقطنه مع أبي، وهو ذلك الذي نشأت أنت به، أما أنا فمضيت في حياتي مع زوجتي، غير أني لم أنسَ غالية يوماً، للأسف وسوس الشيطان لنا مجدداً، فبت أسترق اللحظات التي أعلم أن أبي فيها خارج المنزل أو حيث إحدى زوجاته، لأمضي وقتي معها، مهما أقسمت أن أبتعد أو أتوقف لم أُوَفّقْ، لدى غالية القدرة على الحصول على مرادها وقد رغبت بي أنا، أن أمنحها الحب الذي لم تحظَ به مع رجل عجوز.

الأصفاد تتسارع مُتصارعة، صوتها يُصِمُّ أُذني، شررها يتطاير ليهوي كالمطر المتلاشي صوب الأرض، هو يصدح ضاحكا ناظرًا لروحي، أراه يشرق من بين هذا الظلام، إنها تتفتت مُتآكلة.

ـ ثم أتى ذلك اليوم الذي أخبرتني غالية فيه بكونها حاملاً، لقد حَمَلَتك داخلها، علمت حينها فداحة ما ارتكبته، أيقنت أن الشهوة ألقت بي في غياهب الرذيلة، أخبرتني أنك لي، فهي لم تتصل مع والدي منذ ما يزيد على ثلاثة أشهر...

الآن صُمّت كل أذن لي عن حديثه فكل ما أسمعه هو صَرُّ الوحش، إنه ذاتي الطفل يصرخ ملء رئتيه:

ـ ماذا تفعل؟ لماذا تكبح ذاتك؟ أنسيت ما وصفوك به؟ أطلقوا عليك الوحش، أثبت لهم أنهم على حق، أرِهم الوحش الذي صنعوه."

هو يتوسل ساخطاً، يُطالبني بالقِصاص له، لأقتص لطفولته المهدورة المغدورة، لأقتص لألمه ودموعه، لكل قطرة دماء سالت، لأثأر لكل صفعةٍ، شتيمةٍ ولعنةٍ، وِتْرًا من كل خوف خالجني، لأقتصَّن منها ومن الحياة، ولك ذاتي سوف أخضع، بروحي سوف أبطش، لجميع هذه الأغلال الكاوية أنا محطم، لك صاغر سأقتص، لتتحرري رغباتي، شهواتي، شجني كما بغضائي لكِ أسلم ذاتي فلتفعلي ما ترجينه حتى يسقط حد السيف عليك وعلي. تناثرت الأغلال كبتلات سوداء حلقت في الأرجاء بسكون، هو أمامي ينظر إليّ، عيناه تعكسان وجودي، والآن أنا هو بكل ما يحمله من حرية، جبروت كما سلام.

ـ صاغر، هل أنت بخير؟ أتستمع إلى ما أقوله؟ أعلم أن الأمر صدمة بالنسبة لك، يمكنك أن تلعنني كيفما تشاء، عدا أني كتمت الحق لوقت طويل، أنا أعتذر لأني تخليت عنك وعن غالية، أرجوك افهمني أنا تبت إلى الله وعدت إليه لذلك أرغب تبرئة ذمتي أمامه، وصاغر في الحقيقة...

ـ هل انتهيت من الحديث؟

نظرت إليه متبسماً من أعماق وجداني لأرى الجزع يقذف فيه، نهضت من موضعي مبتعداً بهدوء.
حسناً أسامة مُباركٌ عليك توبتُك، وحظًّا سعيدًا في الحياة أنا حقّاً ممتن لك ولهذا الحديث الذي حررني كما منحني السلام، والآن دعنا لا نلتقِ مجدداً فأنا لا أعلم ما قد أصنعه بك، أعتقد أن سيفي البارق سيتوقَ لتذوق دمائك فلا تمنحني هذه اللذة .

قدت عربتي كمن يسير في حلم مليء بالألوان، نابض بالحياة، أكان الكون مُشرقاً هكذا من قبل؟ متى فقد ألوانه؟ رأيت صورتي منعكسة على المرآة وكما لو أني أبصر ذاتي لأول مرة، هيئة لي لم أعلمها، متى أصبحت ما أنا عليه؟

أيقنت دون محل للشك، أنا من صنعه البشر، الوحش والموت الذي شكلته الحياة وقذارة الناس فيها، من صنعت أمي بـ إفكها ولطماتها، أنا حصيلة ذلك الذعر الذي لم يفارقني حتى بعد موتها، أنا خطيئتها، ندمها، عارها، فسوقها هي وذلك الرجل، هذا الذنب الذي أنا عليه هو من دمائهما القذرة التي أشعر بها تسري في عروقي، هذا السخط المتأجج، كل جلدات الحياة التي توالت علي دون تردد، من كل هذا وذاك أنا سأرتقي لمستوى البشاعة التي أكونها، وكما لم تكبح الحياة لجام سوطها الذي جلدني لسنوات فأنا لم أكبح لجام حنقي على البشر، بل على النساء دون غيرهن، لأصبح الرعب الذي يقذف في أنفسهن، لأغدو الموت الذي يهمسن به، ولأمسي الأنين الذي يَتلحَنّ به فجوراً، لأكيل لهن ما كالته لي الحياة، فأنا أرى وجهها القبيح في كل النساء.

-٢٠-

شارفت شمس هذا اليوم المحموم على الغروب، قبل سويعات برأ أسامة ذمته بإخباري الحقيقة التي أنهت كل حروبي وأيقظتني مخلوقاً حيّاً، مع هذا المغيب المستعر أقف على رمال الشاطئ واضعاً قدمي في مياه البحر الباردة، أدعها تجرف معها أي هشيم قد تبقى من انفلاج روحي، حولي تطايرت أصوات الأطفال الراكضين صوب ذويهم يتدثرون من برد الشتاء، مخلفين خلفهم خطا أقدامهم التي تمحوها الأمواج. متى كانت آخر مرة تجرعت الحياة؟ بل أسبق أن فعلت؟ إنها تغمرني حد الثمالة، وتلك الشهوة القابعة تناديني لأشبعها كما ظمئي، وإني لفاعل، أنا ملكُك أيتها الهمسات، فقط لأتنفس الحياة قليلاً بعد، لأتلذذ بهذه الحرية التي لن أُحرمها على ذاتي مجدداً، وحين يقبل علينا الليل الأفاك بستره اللعين سوف أغذي رغبات روحي جميعها، فالرذائل مِلكٌ لليل.

جنّ عليّ الليل بسكونه، بين ظلال هذه الأزقة المتهالكة خطوت أستمع لصوت أقدامي تسحق الحصى أسفل منها، بل لعل إحداها أصابت رأسي ذات يوم، هذه الحارة اللعينة التي أمقتها كما قاطنيها، البارحة نشأت غرّاً ذليلاً هنا، أما اليوم فأعود إليها حرّاً، جباراً مهيباً. لم أعد لهذه الحارة منذ غادرتها لم أجد الشجاعة في ذاتي لأفعل، عدا أني اليوم آخذ الخطا صوب ذلك المنزل البغيض، أراه بطرف عيني، مُتهالكاً بالكاد تحمل أسواره ذاتها، تلونت جدرانه الخارجية باللون الأسود المتعفن، وذلك الروشان المتآكل الذي أعلن للجميع الفسوق القائم داخل هذا المبنى، هنا بدأ كل شيء وأنا هنا لأنهيه لأشعل النار فيه مُحرقاً معه كل أسيً ارتبط به، سأحيله شمساً مشرقة في دجن هذا الليل الأخرس. توقفت قليلاً أمام المنزل المجاور، هنا حيث قَطَن ذلك الأشيب الذي أحببته، أكنت حقّاً أحمل الود في فؤادي له؟

بالعودة للزمن الآن، لربما رغبت الشفقة منه كما الحماية، عدا أني هنا اليوم بلا أي رغبات أو اتصال بالماضي، يبدو هذا المنزل خاوياً، لا أعلم ما حل بعثمان بعد رحيلي من الحي فقد قطعت كل روابطي بهذا المكان، ليس وكأن لدي أي رابطة مهمة، كما وأنني لم أبحث عنه يوماً أو أسأل عنه، والآن أنا أقف عند عتبة منزله الذي يقف شاهداً على ذكريات أول من قَتلت.

بهدوء دخلت منزلي الذي تغطت أروقته وجدرانه بالعفن الرطب، كما رائحة الموت التي زحفت مرتحلة بين شقوق الأخشاب المتناثرة، لعلها بعض الحيوانات النافقة التي تناول المنزل حياتها كما فعل سابقاً معي، أستطيع القول من نظرة أولى أن لا أحد قد خطا داخل المنزل منذ رحيلنا فلا فتية أشقياء يستخدمونه مرتعاً لمغامراتهم، هو يبدو كما كان حين هجرناه بائساً، عاصِياً كما حقوداً. جلست قليلاً في تلك الحجرة الفاسقة، هنا حيث استقبلت الفاجرة ذكورها، هنا حيث اغتصبني ذلك الرجل، كم مقت هذه الحجرة حد الموت، كم أتمنى لو أنها حية، لو أني علمت بماضيها قبيل موتها لجررتها إلى هنا مذيقاً إياها الرعب الذي أولجته في، أين هي العدالة تجعلني أقتص منها؟ أذيقها ويلات الحياة كما ذلها، لم فارقت الكون دون أن أنال حقي أو الرضا؟ والآن كيف يمكنني أن أملأ هذا الفراغ الذي يتآكلني؟ هذا السخط الذي يتأجج داخلي راغباً في القصاص من أحدهم، أنى لي أن أُنفس عن هذا؟ وجدت الدموع تخرج مني رغماً عني، وتلك الصرخات تتلاحق لحنجرتي، أتضرع قتلها، تلك المرأة التي ألقت اللوم علي في فجورها، اغتصبت طفولتي وباعتني من أجل بعض ريالات إضافية، لو أنها حية فقط، لقتلتها مراراً وتكراراً حتى أنال الرضا.

ـ لم لا تفعل؟ يمكنك قتلها مرات لا تحصى كيفما تشاء، هي في كل النساء وجهها محفور في كل واحدة منهن، لتذيقهن الرعب الذي تعلمه أنت جيداً، ثم اقتلها فيهن كيفما شئت، والأفضل من ذلك لمَ لا تدعها تشاهد؟ اجعل هذا قبرها كما هو قبر لك من قبل.

ـ أيتها الهمسات يا لك من عبقرية! ولك سأستمع ليتم ذلك، سأقتص منها عبر النساء لتكون هي شاهداً على الوحش الذي صنعته.

فيما انتصف البدر السماء، أوقفت عربتي على مقربة من المقبرة، هنا أُخرس الليل بكل ما فيه من ألحان، حيث تحتضن الأرض البشر مع كل دناءتهم، ولهو فخر لي أن أكون جزءاً من الموت العادل، بأي شكل هي مساهمتي فكل ما أرغب به هو العدالة، وقد أحققتها، اقتصصت للموتى من قاتليهم مانحاً ذويهم الراحة، وقد آن أوان الانتقام لذاتي. بهدوء فتحت باب المقبرة الصدئ راجياً إياه أن يكون أبكمَ فلا يحدث صوتاً ينبئ مخلوقاً بوجودي، وقد أجاب دعوتي، لأتسلل خلسة بين الأموات الخُرْسِ، في آخر المقبرة يوجد قبرها، هي من أرغب الاقتصاص لذاتي منهاَ، جالت عيني بحثاً عن مجرفة لأجدها مرتكزة على أحد جدران المقبرة، من هنالك بدأت الحفر بانتعاش كما اندفاع كبيرين، الآن سأراها، أخبرها عن أسرارها التي كشفتها، كل ما حملت في فؤادي لها، كما مخاوفي، وهي ستستمع إلي دون تردد، فما يُمكن للموتى الامتعاض. تعالى صوت لهاثي من فرط الإرهاق الذي نالني فحفر القبر ليس بأمر يسير، ولعل هذا ما نبأ حارس القبر بوجودي، رأيت ظلي يمتد أمامي متطاولاً كما لو أنه سيلتهمني، عندما رفعت رأسي قليلاً من انغماسي وجدت أن أحدهم

يسلط الضوء عليّ من الخلف مقترباً من حيث أنا بخطوات حذرة وجلة، لم أحرك ساكناً كما لم أجب على نداءاته:

ـ من أنت يا هذا؟ ماذا تفعل في المقبرة؟ أتنتهك حرمة الموتى؟ توقف حالاً وإلا فسأبلغ الشرطة عنك.

عندما لم أُحرك ساكناً توقف هو عن الاقتراب بادئاً بتلاوة القرآن كما لو أنه شاهد جانّاً، إلا أني لبِثتُ ساكناً منتظراً منه أن يقترب أكثر، ولأن فضوله أعظم من ذعره خطا صوبي بوجلٍ شديد نبأتني به أنفاسه، وحين بات على مقربة مني، لوحت بالمجرفةً بعنف شرير لتهوي على عنقه كما يهوي السيف على المذنبين، لتتحطم عنقه ويشق عن شريانه، ليهوي أرضاً مذعوراً باحثاً عن أنفاس سلبتها منه قهراً، نظر إلي بفزع تنفس بالحياة في، فأتذكر ذلك القول الذي خشيت تذكره:

ـ تذكر أن تنظر لعينيِ ضحيتك التالية أيها السياف فلا متعة أفضل من رؤية الحياة تغادر عينَيْ أحدٍ ما.

لهي المتعة العظمى تلك الحياة التي تنسل، هذه الأعين المذعورة ذلك الجسد المتثاقل، ثم تانك العينان اللتان لا تفتأان تنظران إليّ برجاء للحياة، ورائحة الدماء العطرة التي حلقت عبيرًا داعب عقلي، لهو حقّاً موت ينبض بنشوة كالنعيم.

انكفأت على حفري مجدداً، حتى وصلت لجثمانها المتحلل، لتفوح رائحة الموت العفن في الأرجاء،حملقت إليها بابتسامة سخرية ترتسم

على وجهي، انحنيت إليها أحملها من القبر، وكم هي خفيفة! شعرت أن جسدها سوف يتبعثر لو أني أتيت بحركة خاطئة، فتوجب علي الحذر، فأنا أرغب بها كاملة، وضعتها على الأرض بالقرب من جثة الحارس الذي لفظ أنفاسه قبل وقت مضى، لأحمله هو الآخر وأقذف به في القبر فيصل إلى مسمعي صوت انفصال رأسه عن عنقه تماماً، لأتبسم في رضاً، حملت المجرفة مجدداً، جامعاً بها كل الأرض التي تغطت بالدماء وتشربت بها، لأقذفها صوب ذلك الجسد الذي لم يفقد حرارته بعد، وما أن انتهيت من تغطية الجثة تماماً كما تحققت أن المكان يبدو كما لم يُمس حتى حملت الجثة واضعاً إياها في صندوق السيارة منطلقاً صوب الحارة القديمة مجدداً.

أطفأت أنوار السيارة ما أن وصلت للحي القديم بالرغم من أن الساعة قد قاربت الثالثة فجراً، إلا أني لم أرغب بالمخاطرة بأي شيء، ما أن وصلت للمنزل حتى حملت الجثة مجدداً، صاعداً حيث معْقِلُ فسوقها، بهدوء وحرص وضعتها على الأرض كاشفاً عن وجهها ولأول مرة أرى مشهدا كهذا، لقد جف جسدها كثيراً ليُحلّ الرباط الذي كان محكماً على فكها ليُفتح على مصراعيه فجوة سوداء كريهة، تلاشت عيناها لثقبين كبيرين فى جمجمتها الفارغة، تساقط شعرها من فروة رأسها متناثراً في الكفن، جلدها الذي كان ناصع البياض تجعد ملتصقاً بها متلوناً باللون البني والذي ملئ بثقوب صغيرة هنا وهناك من فعل الديدان، لتهرب مني ضحكة صغيرة، أهذه نهايتك يا من قاومت الشيخوخة بكل ما لديها؟ من اعتزت بجمالها وإغرائها للرجال، انظري إليك، قذرة، متحللة، تنخر الديدان جسدك تأكله من الداخل للخارج، كم الحياة مسرحية شاعرية ساخرة بحق!

رغبت بقول الكثير والكثير، أن أُمثِّل بجثتها، أصرخ عليها أو أحطمها، عدا أن هذا يبدو فارغاً، فما الفائدة من إيذاء جسد فقد روحه؟ كما وأنه لسبب ما يبدو لي الأمر غير مكتمل بالرغم من أنه جسدها إلا أني أشعر بأن شيئاً ما ينقصه، ولست قادراً على القصاص لذاتي ما لم أحظ بها كامله، لا بد من وجود طريقة أخرى لإيذائها والتنكيل بها، لا أعلم ما السبيل بعد، عدا أني سأجده يكفي أني انتهكت حرمة جسدها الميت وأخرجته من قبره، وسأجد ما ينفس عني قريباً، ولكن لليوم لأرحل. نهضت عنها أجمع بعض الملاءات التي تناثرت كما ألواح الخشب التي تهاوت، وضعت ألواح الخشب الخفيفة حول جسدها فلم أرغب أن يتحطم من وزر الألواح وإن كانت هزيلة، ثم رميت الملاءات عليها فلم يظهر منها شيء، نزعت عني الثوب الذي تغطى بالدماء، وبدلت به آخر أحتفظ به دوماً في صندوق سيارتي. حفرت في فناء المنزل حفرة عميقة بيدي ثم ألقيت الثوب الملطخ بالدماء به مُخفياً ما قد يعتبره البعض جريمة.

فيما هممت بالرحيل من الحي، استوقفني صوت أصابني بالشلل وجعل كل جسدي يرتعد:

ـ صاغر؟ أهذا أنت يا ولدي؟

بهدوء وجس استدرت للخلف لأجد جسداً انحنى على ذاته يتوكأ على عصاً غليظة ومن بين النور الوامض لإضاءة الشارع ميزت ذلك المخلوق، عثمان الدماموي بشحمه ولحمه، لقد قسا عليه الزمن حتى بات ذا هيئة غريبة، لم يعد ذلك الرجل الضخم الذي وقف منتصباً بين المخلوقات هو شيخ منكسر الظهر بالكاد يقف بمساعدة عصاه.

ـ هو أنت صاغر، أليس كذلك؟

همس لي الصوت وسواساً محبباً، لأنصاع لاقتراحه متبسماً:

ـ عم عثمان؟ يا ألله ما الذي تفعله هنا؟ لقد اعتقدت أنك مع الرحمن الآن! الحمد لله الذي جمعني بك.

أسرعت إليه محتضناً إياه مقبلاً رأسه، ليبادلني هو الفعل ذاته.

ـ ما الذي تفعله هنا في هذا الليل يا عمي؟

ـ كنت في المسجد أصلي قيام الليل يا ولدي.

ـ هل المسجد مفتوح في هذا الوقت يا عمي؟

ـ حارس المسجد يتركه مفتوحاً لي، حيث إني أصلي قيام الليل فيه، بالرغم من تخلفي عن أداء أي صلاة مع الجماعة، إلا أني أشتاق للقيام بين يدي الله داخل المسجد، لذلك ألجأ إليه فيما الناس نيام فلا هم يزعجونني أو يتهامسون عني. وأنت ما الذي أتى بك في هذا الليل لحارة هجرتها منذ أعوام طوال؟ فنسيتها ونسيتني أيضاً.

ـ أعوذ بالله أن أنساك يا عمي، ولكني هنا لأني اشتقت لهذا المنزل الذي قضيت فيه الكثير من الوقت مع أمي رحمها الله.

ـ ليرحمها الله وعظم الله أجرك لم أعلم بموتها، دعنا لا نقف في الشارع ولنمضِ داخل المنزل نتسامر حتى صلاة الفجر فلم يبق الكثير عليها.

تبسمت بسعادة فهذا ما رغبت به دون أي شيء، لأنهي عملي الليلة، ولأحقق تلك الرغبة التي كبحت لجامها قبل سنوات طوال.

أدار عثمان المفتاح داخل قفله ليصدر صوت طرق القفل ثم دفع بالباب بجهد جليّ، ألهذه الدرجة انحدرت يا عثمان، فما بت قادراً على فتح الباب كما لو كان مجرد ورقة ذليلة؟ حقّاً لم يكن الدهر رحيماً بك، ولقد عينني مُسبب شقائك. تفحصت البيت بعيني في ظلام الليل، وبالكاد تمكنت من تبين شيء، عدا أني أجزم أن البيت متهالك ليس مثل ذلك الذي بجواره إلا أنه بالتأكيد لم يحظ بالكثير من الاهتمام. جلسنا في إحدى حجرات المنزل المنزوية، أخذت مقعدي على الأرض بالقرب من عثمان وصينية الشاي الخاصة به، هي ذاتها لم تتغير، فضية اللون منقوشة بالأزهار المتناثرة، وإبريق الشاي الحافظ للحرارة والذي نقش أيضاً بالأزهار عدا أن نقشه تلاشى فلم يبق منه إلا البدن الحديدي فقط، وذلك الفنجان الصغير ذو الأذن الذي بالكاد يسمح لأصبع أحدهم بالتمسك به، عثمان لم يغير شيئاً أو يزح غرضاً عن مكانه، حرّم التغيير على ذاته موقفاً الزمن عن هذه البقعة من المكان، يقطن بنياناً تآكله الزمن قهراً عن رغباته، يمضي أياماً بين أشباح لا تزوره، أبقى كل شيء كما هو، كما لو يخشى أن يفرض الواقع ذاته عليه إن تبدل شيء، حقيقة مخلوق خسر كل عزيز عليه، لم يتمكن من حماية من أحب، سياف استدعى

الموت للآخرين غير قادر على درئه عمن حملتهما روحه، ولربما هو يخشى أن تُقْبِل من ينتظر عودتها لمكان لا تألفه، لتجد أن شيئاً قد تبدل فتهرب مجدداً، أما زال يحمل الأمل في داخله بعودتها؟ أما زال ينتظرها؟ مؤمناً ببراءتها؟ أي متعة سأحظى بها حين يعلم الحقيقة؟

ـ عم عثمان سمعت أنك توقفت عن إقامة الحد، وطلبت التقاعد منذ وقت طويل جدّاً، لماذا حظيت بتقاعد مبكر ولم تكمل عملك؟ لطالما مُلِئْت فخراً من إقامتك حد الله ولو كان الأمر منهكاً لك.

ـ لأنه لم يعد منهكاً بعد الآن.

ـ ماذا تعني؟

ـ بعد أن خسرت زوجتي ببضعة أشهر طُلب مني إقامة حد السيف على أحد القتلة، إلا أني لم أشعر بشيء في فؤادي قبيل القتل، لم أَوْجَل من قضاء الله أو حياة الإنسان التي سأسلبها، وحين فُصِلَ رأسه عن جسده لم أرتعد أو أشفق من الحكم، أنا فقط لم أشعر بشيء، وهذا الأمر أهابني حد الموت، أن أفقد ذاتي ويموت فؤادي فلا اشعر بقدسية حياة الآخرين، خشيت أن تمسي أرواح البشر رخيصة في عيني، كما سبق و أخبرتك يا صاغر أن ما يفصلنا عن القتلة هو خوفنا من الله واحترام حياة البشر فهذا ما يميزنا عنهم وإن فقدنا ذلك فإن السيف هو ما سيهوي على أعناقنا لاحقاً.

تبسمت ساخراً من حديثه، وماذا في ذلك؟ ليهوِ السيف علينا، لا يهم كل هذا، فلا وصب يعادل حروق لجام النار الذي نعقده لكبح رغباتنا، ولا لممَ كذلك الذي يعترينا حين لا ننصاع لوساوسنا، هو غرق فوق غرق، إن كان الموت هو مصيرنا رغم كل مجهوداتنا، فلم لا أختار كيفية موتي؟ هي حياة واحدة أحياها ولقد أمضيت جُلّها وجلاً مذعوراً من أنفاسي، وها أنت ذا وجل من أن تمسي وحشاً أيضاً، لقد اكتفيت من كل الهياب جله ودقه، سره وعلانيته، أنا فقط سأحيا وحشًا مسعورًا.

ـ لماذا ما زلت تقطن هذا المنزل عم عثمان؟ ألم يحن أوان الانتقال لمنزل آخر غير متهالك؟

ـ أأغادر داري التي ترعرعت فيها ابنتي؟ لا، لن أفعل، فهذا منزلي ومنزل منال، سأبقى فيه حتى تتمكن ابنتي من إيجادي حين تعود.

ـ أبعد كل هذه السنوات ما زلت تنتظرها يا عم عثمان؟

ـ ولم لا أفعل؟ إنها ابنتي، قرة عيني ونبض فؤادي، أملُ لقائنا هو ما يبقيني حيّاً حتى الآن، لن أموت حتى ألتقي بها أو أعلم ما حدث لها، بالرغم من كل ما يقوله سكان الحي، قهراً عن كل ألسنة العائلة التي تقذف ابنتي وتقاطعني، أعلم أنها ستعود مرفوعة الرأس، ليست ابنتي من تؤذي والدها، ليست هي من يُخزيني، لا أعلم أي ظرف تسبب باختفائها إلا أني أثق بها دون محلٍ للشك .

أأحرر هذا الرجل البائس أم أدعه في هذا الأمل الكاذب حتى مماته؟ ليموت في جهل متحسراً على من لا يعلم تحت أي سماء هي؟ ولم أَحْرِمُ ذاتي هذه المتعة؟ لقد رغبت هذا منذ اليوم الأول، تمنيت تحطيمه كما عالمه، أنت مثل ذلك الأسامة، أنتما من الطينة ذاتها، اقتربتما مني تبرئة لذمتكما فقط، إرضاء لغروركما كما ضميركما، لم يكن لطفك معي عن حب يوماً، بل من أجلك أنت فقط، والآن من أجلي سأرى الذعر في عينيك وأخبرك بكل تفصيل قذر ومؤلم لأحطم روحك كما عقلك، لأُغرِقنّك في ظلام ويأس هو الأكحل في حياتك.

ـ دعني أقص عليك قصة قِصاص أقمته عم عثمان، هو رجل أحب ابنة جاره حبّاً جمّاً، كانت هي كل فؤاده كما دنياه، رغب بها كما لم يرغب بأحد من قبل، ولكن احتراماً لجاره الذي أحبه واعتبره مثل والده لم يقترب يوماً من الفتاة أو يظهر لها أي شيء من رغباته. ثم أتى ذلك اليوم الذي خلا فيه المنزل من قاطنيه عداها هي، وفي ليل أظلم أقبل على المنزل رجل غريب، رحبت به الفتاة داعية إياه ليدخل، حين رأى من أحبها ذلك جن جنونه، تلبسه الشيطان ملوناً له كل الرذائل التي يرتكبانها في ستر الليل، ليتربص بهما في زقاق أظلم بلا حياة، حين رحل الزائر الرذيل أقبل عليها جارهم، أخبرها أن والديها في المستشفى وقد طلبا منه إحضار ابنتهما إليهما، ولخوفها الشديد عليهما، ركبت السيارة معه، ليقودها في ظلام الطرقات، إلا أن الفتاة كانت يقظة، لقد علمت أنه يتم اقتيادها حيث لا تعلم، لتقاوم مختطفها بقوة، إلا أنه أفقدها وعيها بلكمة حطمت وجهها.

أنا أبصره! هذا الذعر الذي يتسلل إليه سالباً الأنفاس منه، هو يحكم عقد الأحداث معاً محاولاً تكذيب ما يسمعه، ليرتعد حتى النخاع فزعاً من إصدار صوت يحول الكابوس لحقيقة لا يرجوها، هو مذْعُورٌ غير قادر على النظر إلي، أرى الدمع يعانق عينيه يأبى التساقط كيقين لقصة لا يعلم من صاحبها بعد.

ـ اتجه بهما الرجل للخلاء هنالك من دون عين تبصرهما، ليجرها أرضاً، ظلت تناجيه، تتضرع له أن يرحمها، أن لا يَهْتِك عرضها، عدا أن الرجل ظن أنها قد افتعلت رذيلة فلا حق لها بستر...

انتفض عثمان كالمجنون من مكانه واضعاً يده على أذنه صارخاً:

ـ هذا يكفي صاغر! لا تكمل لا أريد أن أسمع، هذا يكفي توقف!

ارتعدت النشوة بي، أجل هذا ما أرغب! هذا ما أبغي، ما انتظرت أن أظفر به منذ وقت طويل، أن أصيبه بلمم يفتك به، مددت يدي قابضاً على عنق ثوبه ثم جاذباً إياه صوب الأرض بقوة، ثم نزعت كلتا يديه المرتعدتين واللتين كانتا تغطيان أذنيه، نظر إلى بعينين متذبذبتين كطفل يُخْتَطف من أمانه، بدا في عيني مثل ذاتي التي رجت أمي الرحمة من مغتصبها، رحمة لم تُمنح لي وما كنت مُقدماً إياها لعثمان أبداً، تبسمت حتى ظهرت أنيابي من فرط الحماس والرعشة التي سرت بي، وضعت يدي على فمه فيما قبضت الأخرى على ذراعيه اللتين ضممتهما إلى صدره، لأشعر بكل جسده يرتعد كما لو كان حيواناً ينفق، ومن فرط رعبه لم يحرك ساكناً منتظراً الموت.

ـ لم ننته بعد عليك أن تستمع للقصة كاملة، لقد شمر ثوبها، مموضعاً ذاته بين فخذيها، ثم دفع ذاته بقوة داخلها...

بدأ عثمان يتلوى ألماً أسفل مني، يصرخ جنونًا مكتومًا شعرت بحرارته الحارقة على كف يدي التي تُخرسه، فيما تهاوت دموعه سيلاً دامياً على وجنتيه،

ـ صرخت الفتاة ذعراً كما ألماً، أما هو فلقد شعر كما لم يشعر من قبل، لقد كان رجلاً ولأول مرة، لقد كان الجلاد الذي اقتص منها ومن فجورها كما من والدها الذي كان حبه واعتناؤه بجاره الصبي مجرد نفاق لإرضاء ذاته فحسب.

ظل عثمان يرتعد، أنفاسه تتثاقل داخله، فيما تحولت صرخاته لأنين مكتوم، شعرت به يتحطم لهشيم، بروحه تتضاءل، إلا أني لم أفرغ منه بعد،

ـ ظل الرجل يتحرك داخلها بعنف غير مسبوق، وحين تعاظمت شهوته، وضع يديه على عنقها الدقيق يعتصره، شيئاً فشيئاً يضغط عليه، حتى تخبط جسدها أسفل منه، تلاشت أنفاسها قبل أن يفرغ منها، حين تبددت آخر أنفاسها قذف برجولته داخلها منجساً إياها، هي من تلحفت بالحياة والعفة، من كانت بريئة من كل اتهاماته، لقد سرقت عفتها قهراً عنها وقصاصاً له منها.

الآن خارت قوى عثمان تماماً وتبددت روحه لخواء هو لم يمت بعد إلا أنه يحتضر لعله بحاجة ليقين أخير حتى يتلاشى كليّاً، ومن أنا حتى أحرمه هذا اليقين؟

ـ اسم الضحية هو منال الدماموي، أما الجلاد الذي اقتص منها فهو صاغر، وهذه قصة أجمل قِصاص أقمته والأول من نوعه عدا أنه لن يكون الأخير، فلي ثأر من النساء لم أقتصه بعد.

تحدثت الآن مع جثة هامدة، فلقد نفق عثمان حين نطقت باسم ابنته، تحولت عيناه للبياض وزفر آخر أنفاسه على كفي، فيما سالت كل دموعه حتى بللت خصلات شعره الأشيب، وأنا هنا أبرُكُ فوق جثته الهامدة كالجبار الذي أمسيت عليه، شكراً لك عثمان الدماموي لكونك أحد ضحاياي ولكل هذه المتعة التي قدمتها لي في موتك، أنت حقّاً لم تخيب ظني، على الأقل في هذا الأمر.

-٢١-

أشارت الساعة للخامسة فجراً عندما وصلت للمنزل، جررت جسدي المتثاقل صوب حجرتي، أشعر بإنهاك شديد بالرغم من معنوياتي المرتفعة، مررت من حجرتها لأبصر بطرف عيني شيئاً على منضدتها، دخلت الحجرة لأول مرة منذ نَفَقَتْ، لم ألمسْ شيئاً في الحجرة أو أغيرها، مثل عثمان ظننت أنها لم تمت بعد، وَهْمٌ رتيب ممل، مددت يدي حيث تقف حمرة شفاهها القرمزية، هذا اللون الذي صبغت به شفتيها كل يوم دون أن تسقط يوماً واحداً سهواً، منذ كنا في ذلك المنزل وحتى لحظة موتها حملت شفتاها لون الفجور البغيض، تَبسّمتُ ساخراً من ذاتها ومني، الآن أعلم لم شعرت كما لو أن شيئاً فاتنى حين نظرت إليها، هى لا تتلون بالدعارة. حملت اللون معى واضعاً إياه على المنضدة بالقرب مني فلا أرغب أن أسهو عنه، ما أن وضعت جسدي على الفراش حتى غططت بنوم هانئ لم أحظ به منذ وعيت على الحياة.

واقفاً بين الظلام ناظراً للضوء المنساب من الباب، وذلك الجسد الذي يضغط عليّ محاولاً اغتصابي وهي تنظر إلي شزراً، اندفعت صوب الضوء وإلى تلك الحجرة أمسكت بذلك الرجل واضعاً يدي على عنقه طارحاً إياه أرضاً، معتصراً عنقه ببطء لأشعر بجسده أسفل مني يتخبط، مددت يدي الأخرى صوب رجولته معتصراً إياها حتى نزف دماً في يديّ فيتلحن حلمي بصرخاته الممزوجة بضحكاتي الهستيرية، فيما انطلقت هي هاربة من الحجرة صوب الظلام، ما أن نفق الرجل بين يديّ انطلقت باحثاً عنها إلا أني لم أبصر شيئاً في الظلام لذلك صرخت ملء رئتيّ:

اهربي يا غالية، اهربي! أقسم إني سوف أقتص منك حتى وأنت ميتة، أقسم أن أتبعك للجحيم وأحيلها لظى هائجاً أكحل عليك، اهربي يا غالية! فأنا جلادك أنت وفجورك، كذباتك كما جبروتك، اهربي غالية! فلا مهرب لك مني لا أنت أو النساء جُمَعُ.

استيقظت من نومي بوعيد على القصاص.

لم ألعن اليوم أو الصباح الذي حل عليّ، لم أبغض ثواني يقظتي متلهفاً لسكون النوم، لقد استبصرت الشمس كمخلوق مختلف، رجل يتطلع للسيطرة على كل شيء. اغتسلت ثم انطلقت صوب المجلس حيث أعلم أن أروى سوف تكون في هذا الوقت، بل هي تقضي كل يومها هنا أمام التلفاز، بعد أن ترسل أسامة للمدرسة تعود للنوم ثم تستيقظ مجدداً قبيل الظهر تعد الطعام لهما على مائدة لا أوجد فيها، طعام لا أشاركهما فيه، فأنا بالنسبة لهما مجرد مصدر للمال كما أوضحت من قبل عدا أن كل شيء سيتغير الآن، فما أنا ذلك الرجل الذي يبحث عن امرأة تذيقه الذل كي يحيا. وقفت أمامها من مكان ليس بقريب لتنظر إليّ شزراً كما لو أني أحقر من قذارة الطريق، ثم أبعدت عينيها عني لتعاود النظر للتلفاز، عدا أني لم أتحدث أو أبدِ أي شيء فقط ظللت حيث أنا أتفحصها، منتظراً أن يثور ثائرها، فى بادئ الأمر عاودت النظر إلي كمن تحاول إيجاد سببٍ لوقوفي ساكناً، لتعاود تجاهلي، ثم تأففت، لتسرق نظرات خاطفة صوبي في اضطراب، بدأت بتغيير موضع جلوسها بقلق شديد وأخيراً حين فاض صبرها تعالى صوتها:

ـ ما الأمر؟ لماذا تقف هنا تنظر إليّ كالأحمق؟ إن يوجد شيء ترغب به فقله أو ارحل ولا تعكر صفو يومي.

تبسمت بخبث ساخراً مُتخذاً خطوات حيث تجلس، لأجد الهلع بادياً عليها، لا بد أنها رأته في عينيّ، ذلك الوحش الذي اغتصبها من قبل، ذلك المسعور الذي لا يهتم إلا لإرضاء ذاته كما غروره، لأجدها تحاول التحرك والابتعاد عني، عدا أني كنت على مقربة بما فيه الكفاية منها وقبل أن تنهض من فوق الأريكة وضعت يديّ على كتفها دافعاً إياها بهدوء لتعاود الجلوس مجدداً، شعرت بجسدها يرتعد من لمستي، بأنفاسها تتسارع والخوف الصارخ في عينيها حكى ذلها كما هوانها، من بين كل هذا الهلع تحدثت باضطراب تلبس بالشجاعة المزيفة:

ـ ماذا تحسب نفسك تفعل؟ ألم أخبرك ألا تقترب مني أو تلمسني، ابتعد عني يا هذا.

ـ ما الخطأ في الاقتراب من زوجتي؟ لمسها أو حتى النظر إليها، لا تقلقي أنا هنا لفتح صفحة جديدة معك.

ـ زوجتك؟ أفقدت عقلك يا هذا؟ أنا لا أرغ....

قبل أن تكمل كلماتها ضغطت على يديّ اللتين كانتا تمسكان بكتفها لتتأوه ناظرة إليّ مجدداً، ليرتعد كل جسدها بعنف سارقاً أنفاسها، شعرت بنبضات قلبها المتسارعة حد الموت في كف يدي، أما عيناها فقد ملئتا دمعاً تساقط رهاباً أُخْرِسَ خوفاً من الموت، لا بد لها أن تشعر هكذا فلقد نظرت إليها كما نظرة السياف للمجرم.

نظرة تخلو من الرحمة أو المشاعر، مما جعلها تقتل كلماتها قبل أن تخرج حتى،.

ـأترين عزيزتي أروى، أنا لا أمانع لعب دور العائلة السعيدة وحتى لو لم نكن كذلك، لكن عليك منحي بعض الأمور بالمقابل.

ضمت يديها الاثنتين صوب نحرها كمن تحاول حماية نفسها مما أنا مقدم عليه وخوفاً أن يتكرر ذلك الكابوس عليها، لأتبسم ساخراً من هذا الخوف مُنتشيًا من جبروتي عليها،

ـلا تقلقِي لست أبغِي هذا، ولا رغبة لي بلمس جسدك أو الاستمتاع بك فأنت لا تملكين شيئاً من الجمال أو ما يثير الرجل.

بالرغم من بغضائها الأبدية لي إلا أن شيئاً مما قلته حطم كبرياءها تماماً، شعرت بأنوثتها تسحق من كلماتي، كم هذا مثير للسخرية! أنت يا من تفضلين الموت على لمسي لك، أنت حتى لا تريننني رجلاً، ومع هذا تزلزلت ثقتك ببساطة مِن كلمات مَن تكرهين حد الموت، لطالما كان يسهل التلاعب بك، وهذا ما أنا فاعل، سأستمتع بتحطيم روحك تماماً، قسماً عليّ أن لا ألمس جسدك بسوء، فآلام الجسد تشفى مع الوقت، أما ما ندمره من الأفئدة والأنفس فجرح لا يشفى، ندب تستمر بالنزيف مراراً وتكراراً حتى نفنى.

ـ ما أرغب به بالمقابل هو شيء بسيط ثمن الحياة الكريمة التي أمنحها لك ولأسامة، لنحظَ بوجبة غداء معاً، ولنجد ساعة واحدة في اليوم نتحادث فيها أنا وأنت، فكما تعلمين نحن لا نعرف بعضنا بعضاً جيداً بالرغم من كوننا زوجين منذ ما يزيد على العقد، وهذا أمر محزن، كلانا يشعر بالوحدة فلا داعيَ لنستسلم لها، ألا تعتقدين أن هذا منصف؟

بعينين مرتعدتين نظرت إلي، برجاء في أنفاسها نطقت:

ـ أهذا حقّاً كل شيء؟

ـ أجل، لست أبغي غير أن نبدأ صفحة جديدة بعيداً عن السوء الذي مررنا به، كلانا أخطأ في حق الآخر، لا داعيَ لفتح أحاديث وجروح قديمة، فقط لنلعب دور الأزواج والعائلة بطريقة مثالية أكثر، اعتني بي كرفيق لك وكزوجة لي، وأنا سأوفر كل الحياة الكريمة التي تبغينها، أليس هذا العدل؟

ـ وإن رفضت، فهل ستتعدى علي؟

تنهدت كمن تألم من سؤالها الأمر الذي زعزع يقينها الراسخ عني، لأنزع يدي عنها مبتعداً بضع خطوات، فيما رأيت جسدها يسترخي قليلاً، وأنفاسها هدأت بعض الشيء :

ـ أخبرتك أني لن أوذيك، لا يمكنني فرض أي شيء عليك، عدا أنه لا يسعني تقديم المزيد دون أن أحظَى بشيء في المقابل هذا هو العدل أروى، أنا فقط لم أتمكن من منحك وأسامة الدعم المادي دون شروط، سوف أقوم فقط بتأمين الأساسيات من العيش لا أكثر، وإن أزعجك هذا أو رغبت بالرحيل فلن أمنعك عدا أنك لن تسمعي كلمة "طالق" مني، لذلك سوف يتوجب عليك خلعي ورد المهر الكبير الذي قدمته لك في المقابل، فلست أرغب أن يتم استغلال كرمي أكثر من هذا.

طأطأت رأسها للأرض كمن يبحث عن آلاف الإجابات بين مخاوف لا تحصى، لذلك اقتربت منها مجدداً لينتفض جسدها للحظة واحدة عدا أنها لم ترفع رأسها أو تتحرك، لأتبسم لخضوعها الذليل هذا، منتشياً بهذا الانتصار الصامت، وضعت يدي على رأسها بهدوء قائلاً:

ـ فكري في الأمر جيداً، وإن كانت إجابتك بالموافقة فادعيني لوجبة الغداء حين يأتي أسامة.

رحلت عنها دون انتظار إجابة متجهاً صوب مكتبي مغلقاً الباب خلفي بهدوء، ارتميت فوق الأريكة دافعاً رأسي للخلف، تنفست ملء رئتيَّ نشوة الانتصار، تلك المرأة لا تخشى إيذاء جسدها أو الاعتداء عليها، فلقد صارعت هذا من قبل وتعايشت معه، عدا أنها لا تعلم ما يكون القبول والدلال، لذلك سأمنحها شيئاً منهما، لتشعر بومضات سعادة قصيرة، ليتعلق فؤادها بلطفي طامعة بشيءٍ من عاطفتي أو دلالي لها،

وحين يمسي إرضائي رغبة تتعطش لها، سوف أحطمها، لن أقتل جسدك أروى عدا أني سأزهق روحك بتريث وترقب، لأنتشي تعاستك سُكراً.

أخذت أتطلع إلى الكتب في مكتبتي غير راغب بها، لقد كانت مهربي سابقاً أما الآن فلم تعد هنالك حاجة ملحة لها، لأسمع طرق الباب على مكتبي وصوتاً قلقاً من خلفه:

ـ أبي أيمكنني الدخول؟

ـ أجل ادخل بُنيّ.

أطل أسامة من الباب والهم باد عليه، بالتأكيد هو يهابني قبل كل شيء، إلا أن لكل شيء أوانه وكل سيسري حسب رغباتي، قبل أن يقول أسامة شيئاً تحدثت:

ـ كيف حالك بنيّ؟ وكيف هو يومك؟

رفع عينيه ناظراً إليّ مبهوتاً كم باغته السؤال لتُسرق الكلمات منه فأردف:

ـ هل أرسلتك والدتك إلي؟

من دون كلمات أومأ برأسه ثم قال:

ـ أمي تدعوك لتناول الطعام

قال قوله ثم رحل مسرعاً، تبسمت خبثاً وتوقاً لما هو قادم ما أنا مقبل عليه وصانع.

على رأس طاولة الطعام جلست أروى، هذا المقعد الذي كان مخصصاً لمن ماتت، رأس العائلة وعمادها، هذا تصريح منها أنها لن تعترف بي، ولست أمانع فهذه لعبة طويلة أرغب الاستمتاع بها، حرب لا يعي الطرف الآخر أنه مشارك بها، كلما تصرفت أروى كما توقعت بات الأمر أكثر متعة لي. أخذت مكاني على اليسار حيث وضعت الطبق لأجد أني وأسامة وجهاً لوجه، أما هو فقد طأطأ رأسه أرضاً فيما تقلص على ذاته، ولتبدأ المسرحية:

ـ تسلم الأيادي أم أسامة يبدو الطعام لذيذاً.

ـ شكراً.

أجابت كما لو أنها تلفظ روحها معها، وقبل أن تبدي أي ردة فعل، مددت يدي صوب طبقها، لتجفل أروى قليلاً، فيما أبديت عدم الاهتمام من فعلها فلقد حملت الطبق في يدي أغترف فيه طعاماً لها، متظاهراً ببهجة كبيرة، ثم وضعت الطبق أمامها قائلًا :

ـ بالعافية أم أسامة.

نظرت إليّ كما لو أني فاقد العقل، أو كشخص تراه أول مرة في حياتها، وما أنا لها بلائم فكل ما أرجوه هو زلزلة أروى حتى النخاع، هي من بدا عليها رغبة الهرب مني، إلا أنها هدأت بعد أن ارتشفت شيئاً من الماء، فيما يلي وجهت حديثي لأسامة:

ـ أخبرني بُنيّ كيف هي المدرسة والدراسة؟

اختلس نظرة صوب والدته كمن يرجوها المساعدة، لتومئ هي إليه بالمقابل تخبره أن يجيب،

ـ المدرسة بخير والدراسة جيدة.

ـ هذا هو ابني! لا بد أنك ذكي وتتحصل على درجات جيدة.

ـ لا بأس بدرجاتي.

ـ لا تبخس ذاتك حقها، لا بد أن والدتك تعبت كثيراً لتعليمك، فهي امرأة ذكية بعد كل شيء.

ـ أجل

نظرت صوب أروى لأجدها تعدل شعرها مضطربة، لا تعلم ما تأخذ من كلماتي هذه، لعلها أول كلمات لطيفة حظيت بها مني أو من رجل حتى، حقيقة أن كلمة بسيطة كهذه زعزعتها تثبت حقيقة أنها سهلة المنال. أتممنا الغداء يصاحبنا صوت الأواني فقط، وحين فرغت هتفت ببهجة ولطف:

ـ تسلم الأيادي أم أسامة، حقّاً لا شيء يضاهي طعاماً من يديك يعيد الروح للبدن.

ـ شكراً لك.

هي لم تتخل عن حذرها بعد ولست أرغب منها أن تفعل، وإلا فإنها حمقاء، باهتة لا تستحق اهتمامي، فيما خرجت من حجرة الطعام تحدثت قائلاً:

ـ صحيح، نسيت أن أبلغك: لدي قصاص في المدينة وعليّ الرحيل من هنا مع العصر، لذلك سأحضر حقيبتي وأرحل، وأراكما غداً.

ـ حسناً.

تبسمت فيما اتجهت صوب أسامة واضعاً يدي على رأسه لأشعر بجسده يرتعد، معيداً لي ذكرى لصاغر قتلته البارحة، ولو أني لم أفعل لانهلت بالضرب على الفتى لأنتزع منه الخوف، عدا أن الأمر تبدل الآن وأنا أملك من الصبر ما لا يملكه أي مخلوق .

ـ اعتن بأمك في غيابي أسامة فأنت رجل البيت من بعدي.

رفع رأسه ناظراً إلي، هذه النظرة أعادت لي ذكريات كنت قد تناسيتها، هي نظرة تلك الهريرة بين يدي قُبيل اعتصارها، مشاعر ممزوجة بين خوف ورجاء، لو اعتصرت يدي القابضة على رأسه لحطمت جمجمته ساحقاً عقله فيها، اشتعل النهم داخلي هامساً لي أن أفعل وأنصاع، وحيث إني أقسمت أن أتبع رغباتي، عدا أن هذا سيؤدي بي لهلاك قريب، أقرب مما أتمنى، إن لعبت دوري بطريقة صحيحة فقد لا يُقابل عنقي حد السيف يوماً، لذلك علي أن أتبع تلك الرغبة حيث لا تقودني لهلاك، وهذا هو سبب رحيلي الليلة، فلا قصاص خارج جدة أو غيره، عدا أن الشهوة بي لم تهمد منذ البارحة، فما زال هنالك أمر ينقصها لتكتمل وقد علمت ما أنا بحاجة إليه والليلة سأشبع ذاتي حد التخمة ولكن ليس هنا وليس هذان الاثنان، فهما متعة رغباتي الملتوية الجديدة وقتلهما ليس في قائمتي.

-٢٢-

ـ أتعلم صاغر، كم تؤلم هذه القضايا فؤادي؟ لماذا يدفع طفل ثمن ذنب والديه؟ ما الخطيئة التي ارتكبها ليتم رميه في حاوية قمامة أو يُهجر على عتبة مسجد؟ في كل مرة أتلقى بلاغاً كهذا أتمنى لو أحتضن الطفل وأحميه، كيف يمكن لقلب أم أن تتخلى عن طفل لها على قارعة الطريق دونما نظرة أخيرة؟ ألا يؤلمها فؤادها حين تسمع صوت بكائه أو حين يُنتشل من يدها؟ كم قَسَتْ قلوبهم؟

رائد، الساذج لا يعلم أنه لا حدود لفظائع البشر، فنحن مهيؤون لارتكاب أشنع الأفعال وأكثرها قسوة دون وازع في حين أتيحت لنا الفرص، فلا رادع لمن لا روح فيهم، نحن نتاج ظلم الأيام، وهؤلاء اللقطاء سوف يمسون وحوشاً مثلي حين تتوالى عليهم جلدات الحياة كما البشر حقيقة لا مفر منها.
إلا أني أجد مبتغاي فيمن حملن هؤلاء اللقطاء، إنهن صورة لها، انبعاثها الذي سوف أقتص لذاتي منه، لعلكِ بلا جسد أنتقم منه، إلا أنك حية عبرهن، ومن خلالهن يكون ثأري.
أعتم الليل على حواري جدة ونامت الأعين بلا رقيب يتربص بي أو شاهد على أفعالي، حيث الزقاق الميت قبعت في سيارتي، في هذه الأحياء القديمة والفقيرة تُدفن عاقبة المجون، كل يرمي برهان خطيئته وأنا هنا أتصيد أحدهم، بل أدعو أن تَقدَم لي إحداهن بما أرجوه. توالت الساعات حتى اقتربت ساعة الفجر، لست قلقاً أو فزعاً فإن لم أجد صيدي اليوم أو هنا فسوف أجده في مكان أو زمان آخر، عدا أن عطشي الذي لم يرتوِ بعد يتعاظم، علي أن أرتوي جيداً هذه المرة، فأنا أعْلَمُ بهذه الشهوة التي تنام سُباتاً طويلاً حتى تنهض مجدداً كوحش مسعور، يتحتم إرواؤها حد التخمة كي تهدأ ولا تسلب العقل مني.

بعد دقائق تمت مجازاة صبري لأجد ظلّاً ذليلاً يجر قدميه هَوَانًا بسكون وجس في ظلال الليل، جسد واهن انحنى على ذاته التي حملت شيئاً بين ذراعيها، تبسمت مبتهجاً بالفرج القريب، لأنسل من السيارة بهدوء دون إحداث صوت أو إغلاق الباب خلفي، تحركت صوب الصندوق الخلفي للسيارة أفتح بابه على مصراعيه، متخذاً خطوات هادئة سريعة صوب فريستي المنهمكة بإخراس هَجْسِ الخطيئة التي بين يديها، نظرت حولها يمنة ويسرة مترقبة أي مخلوق قد يشهد على فعلتها، عدا أنها لم تلحظ وجودي المختبئ بين ظلال الأزقة، بهدوء أبعدت الرضيع عن جسدها، لتحكم الملاءة الدامية حول جسده مدثرة إياه كمن يخشى عليه من هواء يمر عليه، عدا أن الحقيقة غير ذلك هي تخشى أن تصرخ خطيئتها باكية فاضحةً إياها بين البشر معلنة فجورها، وضعت المولود على الأرض القذرة بين حقائب القمامة السوداء، ثم أزاحت شيئاً منها واضعة إياها حول الطفل كي تكتم على أي صوت قد يصدر قبيل هربها بعيداً، كل هذا وهي غافلة عرض ن اقترابي منها، جاهلة عن المصير الذي ستؤول إليه الآن، ما أن نهضت من على الأرض حتى ارتدت إليها مجدداً فاقدة الوعي، حيث إني صفعتها بكامل قوتي ليتردد صدى هذه الصفعة بين الجدران ممتزجاً مع صوت ارتطامها أرضاً، بالرغم من الصوت الصاخب إلا أنه لا ينذر بالسوء في هذه الحَوارِي، على خلاف صوت صراخ امرأة لذلك حرصت على إفقادها الوعي من مرة واحدة فلا تنبئ أحداً بوجودنا.

حملت جسدها بهدوء ملقياً به في صندوق العربة ثم عدت حيث المولود المُتدثر بالقمامة، منتشلاً إياه منها ثم جعلته حيث من وضعته، مغلقاً عليهما الصندوق بهدوء، قائداً عربتي بين ظلمات الليل وصوب ذلك المنزل شاهِد كل الفظائع لأزينه بالمزيد.

ناهزت الساعة الثالثة صبحاً، بلا أعين تبصرني في هذا الحي الوضيع، أمام المنزل وقفت السيارة، وبين ثنايا الظلام حملت الجسد المتهالك وذلك المولود الأخرس صوب تلك الحجرة حيث حرمت عليّ الرحمة، كما سوف تُمنع عنها، لم أشعل أي ضوء أو أمنح هذه الحجرة حقها بقليل من الضياء، أخذت حبلاً كنت قد هيأته مسبقاً لأقيد به ذراعي الفريسة، ثم أخرجت تلك الحمرة القرمزية التي كانت لجلادتي ملوناً به شفتَيِ الفريسة لتتصور لي صورة من ماتت قُبيل أن أُحلّ عدالتي، في عينيّ كانت هذه جلادتي مَن علي أن أقتص لذاتي منها، ولأذيقها المزيد من الوصب، انتقلت حيث جثتها مزيحاً عنها سترها جاعلاً هذا الجسد يجلس مستقيماً ناظراً صوب الفريسة التي سوف أقضي عليها.

جلست بالقرب من فريستي أنظر إليها، مصوراً إياها بمن أبغض، منتظراً صحوتها الفزعة، ولم يطل انتظاري فلم تكن إلا لحظات ارتعد فيها جسدها ويصدر فمها صوت أنين ألم، وقبل أن تعي فاجعتها كاملة كنت قد أحكمت قطعة قماش فوق فمها، ليرتعد جسدها ناظرة صوبي بذعر خالص أصابني ببهجة عظيمة، دفعت بالقماش داخل فمها فيما وضعت أصبعي على ثغري مُتبسماً هامساً لها أن تخرس

لتنهمر الدموع من عينيها فيما أومأت بخنوع على الطاعة، ليأتي نواح ضعيف راج من ركن الحجرة، هو المولود باحثاً عن والدته في هذا الظلام، لترتعد هي، ناظرة يمنة ويسرة تبحث عن الطفل الذي يستدعيها، خطيئتها التي لم تتمكن من التخلص منها لتُطاردها في رعب آخر، لا بد أن هذا المولود هو ذعرها الخالص منذ علمت به داخلها، خوفاً من سمعتها أمام المجتمع، من عائلتها التي سوف تعلم عن فسقها، مولود يحكم عليه بالموت قبل أن يحيا حتى، لكم هو مثير للسخرية أن تخشى ممن لا حول له ولا قوة، كل ما يرغب به هذا الكائن الضعيف هو حب بلا مقابل، أُمنية لن يحظى بها يوماً، ولهذا أنا مُنقذٌ إياه من هذا العذاب، فالحياة جحيم ليس للجميع، نهضت من حيث كنت متجهاً صوب ذلك المولود، لأسمع صوت تحرك جسد المرأة على الأرض في محاولة لإبصاري، حملت المولود الصغير بين يدي بكل هدوء ورأفة، عائداً به صوب من وضعته، متخذاً مكاناً لي أمامها، لأجد الذعر الخاص في عينيها اللتين نظرتا للطفل خوفاً عليه، عوضاً عن الخوف منه، عدا أن هذا لا يغير من الأمر شيئًا فهي ما تزال مذنبة بكل المساوئ التي حَكمتُ بها عليها.

ـ أتحبينه؟

سؤال خالجني، رغبت إجابةً عليه من باب الفضول لا أكثر، نظرت إليّ بالدمع يتدفق ندمًا من عينيها، صوت نحيبها ارتحل بين جدران الحجرة البالية، لتطأطئ رأسها دون الإجابة.

ليعتريني السخط، دفعت بها صوب تلك الجثة التي تجلس تشاهدنا، وحين أبصرتها تعالى صوت صراخها المكتوم لأخرسها بوضع يدي عليها فلا صوت منها يصدر، عدا أني شعرت بالهلع يمسها حد النخاع، جحظت عيناها ذعراً مما رأت غير قادرة على إغلاقهما دفعت بجسدها بعيداً عن الجثة إلا أنها ارتطمت بي فقد كنت أجلس خلفها ملصقاً ساقي بظهرها، ثم حنيت رأسي صوبها هامساً لها:

ـ تلك المرأة هي من أنجبني، من يفترض أن أقول لها أمي، عشت معها أسوأ أيام حياتي وأقساها، لم تحمل في داخلها الحب لي أو الرحمة، لقد كرست حياتها كلها في جعلي تعيساً، لذلك نبشت قبرها وأخرجت جثتها، منعت عنها الرحمة التي لم تمنحها لي، لأنتقم منها عبركن، هي كانت فاجرة مثلك حملت بي من رجل لم يكن زوجها، وأنت أنجبت خطيئة تمقتينها حتى تخليت عنها لشقاء الأيام، وأنا هنا لأرحمه...

دفعتُ بجسدها صوبي لأجعلها تراني، حملت الطفل من عنقه بيد واحدة ليبدو كمن يحلق فى الهواء، أما هى فقد دفعت بجسدها للأعلى في محاولة للنهوض من الأرض والدفع بي بعيداً عن مولودها، لأركلها في معدتها بقوة أبعدتها عني قليلاً وجعلتها تخر أرضاً في أنين متقطع الأنفاس، لأهتف لها آمراً:

ـ انظري هبة رحمتي لهذا المولود.

بيدي الأخرى لوحت برقبته محطماً إياها، ليَنْفُقَ فوراً دونما جلل أو عناء، ليتعالى نحيبها في المكان صراخاً كمن أصاب قلبها بمقتل، لأحمل المولود صوبها، واضعاً إياه على نحرها، قَرَّبَتْ رأسها صوبه وهي تلهث في محاوله للتحقق من فاجعتها، كمن يرجو الحياة له، يا لها من حماقة، فالموت أرحم من هذه الحياة التي لا ترأف، الآن قد خبت مقاومة الفريسة كمن سلمت أمرها للموت الذي هو أنا، اتخذت بين ساقيها مكاني، لترفع رأسها مذعورة من بين دموعها نظرت إلي ترجوني الرحمة، فأجيبها فيما دفعت بذاتي فيها:

ـ لا رحمة لمن لا يرحم، الرعب لا يفترس الأبرياء وأنت لست ببريئة.

دفعت بجسدها للخلف وصباً من هجومي الوحشي عليها، ليتعالى صوت أنينها، لا أعلم إن كان أنين ألم أم فجور إلا أنه أطربني قائداً إياي لحافة الجنون، هاتفاً صوب تلك الجثة المتعفنة:

ـ هذا قصاصي منك، هذا العذاب والرعب اللذان لم أتمكن أن أغرقك فيهما، إنها لفاسقة مثلك، جميعكن على الشاكلة ذاتها، انظري كم هي سعيدة بوجود رجل فيها كما كنت أنت، داعرة...

أكاد أجد الذعر في ذلك الوجه المتأكل، في عينيها الغائرتين لسواد، أنا أراه يأكل روحها من الجحيم،نظرت لفريستي المتخبطة أسفل مني

وذلك المولود الذي سقط أرضاً بالقرب منها من شدة عنف تحرك جسدها أسفل مني، لأهوي بيديّ صوب عنقها معتصراً إياه، أشعر بالهواء داخل حنجرتها يُحبس، بنبضات قلبها تتسارع في شريانها النابض، أرى الموت يتشكل في عينيها وجسدها الذي يقاوم بلا هوادة، عدا أني الجلاد المفترس، لا شيء يهرب من عدلي وقصاصي، لتفقد روحها بين يديّ حين ارتوى عطشي وأتخمت رغبتي كما شهوتي حد الثمالة، مبتعداً عنها فيما استلقيت أرضاً أستجمع أنفاسي ضاحكاً من هذه السكرة التي تنتابني، هذه الحياة التي سرقتها لأحيا أنا، كم تُقْتُ لهذا! رجوته شغفاً كل يوم من حياتي، آه كم هو جميل الليل بسكونه، أنينه، فجوره كما ستره، لقد بت أهوى الليل الذي بغضته حد الموت سابقاً، كم الحياة جميلة وعادلة حين نضع حد سيفنا عليها.

حفرت قبراً في ساحة المنزل الموحش على عجل ملقياً فيه جثة فريستي بلا مبالاة فيما خفضت جثة الرضيع برفق فوقها بعد أن قمت بإحكام غطاء أبيض عليه بعناية، لأواري الثرى بعد ذلك عليهما لأقود سيارتي مبتعداً عن المنزل بعد أن أعدت كل شيء لما كان عليه، إلا أني لم أغفل عن المتطفل الذي كان يتجه صوب المنزل المجاور، لا بد أنه عامل المسجد الذي أخبرني عثمان عنه، هو من يترك باب المسجد له ليتضرع ليلاً، ومع هذه الفكرة علت ابتسامة سخرية ورضاً على ثغري، لا بد أني سأقرأ نعي عثمان الدماموي خلال يومين من الآن على الأكثر.

-٢٣-

وقفت بسيارتي أمام مدرسة أسامة ملمًا أنه وقت انتهاء الدراسة، رأيت فيما تدافع الطلاب يمنة ويسرة هرعين خارج بوابة المدرسة كما لو أنها معتقلهم بعيداً عن الحرية، لو أنهم يعلمون فقط أن ما يهربون منه كان ذات يوم أمنتي، من بين هؤلاء البائسين وجدت أسامة يقف ناظراً يمنة ويسرة باحثاً عن السائق الذي اعتاد إقلاله من وإلى المدرسة، عدا أني قررت مفاجأته اليوم، لا بد أنه يعتقد أني ما زلت في المدينة. لم تكن رغبة مني بإدخال السرور عليه ففؤاده لا يعني لي شيئاً، عدا أنها رغبة وهوس تملكاني لأرى الحزن كما البؤس يلون حياة أروى، إنها رحلة ممتعة لي ومضنية لها.

اقتربت بالسيارة حيث أسامة، ضاغطاً على البوق لأجذب انتباهه، ليستدير فيبصرني فيختلط محياه بين هلع كما سعادة محطمة، فتحت النافذة التي بالمقعد المجاور مقرباً جسدي من النافذة ليصل صوتي إلى مسمعه، وبابتسامة فلجت عن أسناني حدثته:

ـ ما رأيك في مصاحبة والدك العجوز للمنزل؟

لعل هذا الفتى أحمق أو أنه أصيب بالصدمة فكل ما تلقيته منه هي تلك النظرة الخاوية من العقل والتي رمقني بها، قاومت رغبتي في محو هذه النظرة البلهاء بصفعة، عدا أني تمالكت ذاتي متحدثاً بهدوء:

ـ ما بالك؟ كمن رأيت جانّاً أمامك.

حينها عدل من محياه قائلاً بصوت خاضع:

ـ لا شيء ظننتك في المدينة وحسب.

فتح باب السيارة بينما قال قوله متخذاً المقعد الآخر مكاناً له، فيما ألصق جسده صوب الباب، كمن يخشى الاقتراب أكثر من اللازم مني فأنحره، خوفه هذا مدني بمتعة الجبروت التي أهواها.

ـ لقد عدت مبكراً فقررت أن أفاجئك باصطحابك من المدرسة، لكن يبدو أن مسعاي ليس محبباً عندك.

ـ لـ.. لا بالتأكيد أنا سعيد بحضورك، شكراً لك.

ـ ما لهذه الرسمية بين الأب وابنه؟ ارتح قليلاً معي بني.

اختلست النظر إليه بطرف عيني فيما قلت قولي، لأجد أن شيئاً من الأمل قد داعب روحه، بدا كما لو أنه التقى بمحبوب قد اشتاق لرؤيته من قبل، هذا الفؤاد اليافع يحمل الكثير لي داخله، لقد رغب بالأب الكامن فيّ، لم أكُ يوماً مسيئاً لهذا الفتى لقد ضربته مرة واحدة في حياته القصيرة، عدا أني صورة لوحش كاسر ومكسور، أحمل داخلي نقيضين، ذلك الوجود الذي تسبب بالرعب لوالدته أروى .

لقد شهد رعبها مني في بداية أيامه، كما راقب فيما وجلت أنا من والدتي التي كانت وحشي الخاص، ثم فقه مجدداً فيما تبدلت الأوضاع لتمسي والدته أيضاً إعصاراً مهيباً لا يرتعد من أحد، لأظل أنا وحشاً منزوع الأنياب والمخالب، مجرد قالب لرجل يرتعد كالرعديد أسفل ثيابه، وهو الأمر الذي ورثه هذا الأحمق مني، مجرد رعديد أحمق يخشى ظله حتى، وليكن إذاً لست أحاول أن أنزع الرعب منه بل أن أجعله رعباً ملتصقاً بي، ليكن الظل الذي يتبعني صورة مني لم أحظ بها، مجرد انعكاس لظلامي، سوطي الذي أجلد به أروى، فما البشر إلا محض أدوات، لا تهم الكيفية، لا يهم ما يجب التخلي عنه أو التضحية به، في هذا العالم لا ينجو إلا المفترسون، هذا هو كل شيء، ما دمت سأنتصر في هذه الحياة هذا هو كل ما يهم ولا أمرٌ آخر، فأنا الشاهد والمشهود.

تفاجأت أروى لدى رؤية كلينا يدخل المنزل معاً فما هذا إلا إثبات أني أحاول التغيير حقّاً والتقرب من صورة الرجل الذي كانت هذه المسرحية البائسة تحتاجه بيأس مطبق، حييتها بطريقة مرحة ونفثت كلمات الشوق لها من بين ابتسامتي الزائفة لأجد الارتباك يتسلل إليها، إلا أنه اختلط بقليل من الرضا بعد ترقب طال أجله، رجاءٌ مُحتضر يكاد ينبض بالحياة مجدداً لصورة أُسرة تَمَنتْها يوماً ولم تحظ بها إلا الآن. بعد فاصل تناول الغداء الهزلي طلبت من أسامة مقابلتي في مكتبي بـحديث رجل لرجل_ كما أسميته.

أقبل إليّ الفتى يحمل في هيئته شوقاً تغلغل بين ثنايا عينيه، رجاء مختنق جراء خيبات الأمل المتواصلة، أعلم يقيناً أنه لا يَأْمن أو يثق بهذا التغيير كما كنت أنا ذات يوم، بل لعله يصيبه بالسقم أيضاً عدا أننا لا نتخلّى عن الأمل حتى آخر أنفاسنا، ما تزال أرواحنا الهشة تتعلق بأمنية تكاد أيدينا تلمسها إلا أنها لا تصل إليها وإن فعلت فإن هذه الأمنية ما هي إلا جَلْدةُ سوط أخرى أو لهيب نار مُتنكر كبصيص أمل كاوٍ. جلس أسامة قبالتي دون النظر صوبي، وبعد أن أشعلت سيجارتي مددت له بواحدة ليجفل ملتصقاً بكرسيه أكثر، ناظراً لي بتعجب، لأتبسم له قائلاً:

ـ لا تقلق لن أخبر والدتك عنك.

ثم دفعت بيدي مجدداً صوبه أحثه لأخذ سيجارة معي إلا أنه أجاب بالنفي كمن يخشى أن يقع في كمين يودي بحياته، أعدت سحب يدي واضعاً السجائر على المنضدة آخذاً أنفاساً طويلة منها، وفي الطرف الآخر هو ذلك الفتى المتقلقل يسترق نظرات إليّ بالخفاء، فلم يسبق أن دخنت أمامهم أو أظهرت التدخين لأحد، ببساطة خشيت تلك الملعونة وغضبها، لذلك اكتفيت بالهرب كما العادة، كم أتمنى لو أن ذاتي قبل يومين أمامي لأكيل عليه كل السباب واللعنات على المعاناة التي تكبدتها بسببه.

ـ لعلك متفاجئ من حقيقة أني أدخن السجائر فلم يسبق لك أن رأيتني أفعل هذا، بل أنا موقن أن تغييري هذا يصيبك باضطراب مخيف، أتعلم يا أسامة؟ بل لعلك تعلم هذا جيداً، والدتي كانت امرأة قاسية للغاية، لقد كانت الذعر فى حياتى وكوابيس ليلى، هى أغلال حارقة أصابت روحي بجروح لا تندمل، ندب لا تلتئم، وحين رحلت، تبددت أغلالي لأمسي حرًّا، أتنفس الهواء لأول مرة، أعلم أنه لا ينبغي قول أمور كهذه لفتىً يافع مثلك ولكني أرى فيك الصديق الذي لم أحظ به قبلًا، لذلك أتمنى أن تمنحني فرصة، أن تسمح لي بالولوج في حياتك ولو قليلاً، فكما ترى أنا لم أملك أباً يوماً، بل لم أعرفه، لهذا لا أعلم ما هم الآباء، أتذكر ذلك اليوم؟ أجل لا بد أنك تفعل،حين ضربتك أول مرة في حياتي، لم يكن ذلك كرهاً لك، بل رغبة عارمة لحمايتك من الضعف الذي تملكني في صباي، ورأيته متجسداً فيك، رغبت إنقاذك من حياة تكون أنت فيها الضحية، أتعلم أني كنت موطئ قدم كل فتيان الحي؟ لذلك خشيت عليك، ولم أعلم كيف أحميك، ولهذا أنا آسف، لطالما حملتني نظرة خوف في عينيك، إلا أني حملتها في عينيّ أيضاً من والدتي، فلم أعلم كيف أنزِعها منك، والآن بعد أن علمت معنى الراحة كما الحرية فأريدها لك، لا أرغب أن تنتظر موتي راجياً إياه وداعياً به حتى تتمكن من التنفس والتحرر، أعلم أنك لا تثق بي أو بهذا التغيير لكن فقط أرجو منك القليل من الأمل.

شهدت وقع كلماتي ومأساتي عليه، هذا الوجود التافه الذي لا يعي من الدنيا شرورها يتعاطف معي، يحاول إيجاد ذاته بين حروفي، يرغب أن يرتبط ماضيه بماضيّ، أن يرى أننا نتشارك الألم ذاته كما الحسرة، يا له من غرور فارغ!

أن تجرؤ على قياس معاناتي بك، تربط دلال رِقّةِ فؤادك بفؤادي المتفحم، روحك الغضة بروحي المبعثرة، فقدِكَ الغائب بفقدي الأبدي، لقد قدمت لك أعذاراً حقيقية لخيالاتَ ضحية آمنت أنك تكونها، وما أنت كذلك، عدا لو أن هذا ما يحتاجه الأمر لأعيد تشكيلك لصورتي، لأصنع منك ذاتي، فليكن الأمر ما ترغبه ولتحيَ كضحية ترجو أن تكونها. بعد قليل من البكاء المزعج تحدث أسامة:

ـ آسف لأني لم أثق بقلبك، لم أعلم عن ماضيك شيئاً، لطالما بدوت قوة لا تقهر في عينيّ، اعتقدت أن صمتك على ما فعلته جدتي ما هو إلا بر منك بها، لم أعِ مقدار الألم الذي كنت تحياه، بالرغم من كل شيء إلا أنك كنت أباً رائعاً، لم تؤذني يوماً أو تهني، ولهذا أنا شاكر، أعدك أن أؤدي دوري بجعلك فخوراً بي وأن لا أشككك بك مجدداً.

تبسم الصوت الهامس بداخلي فيما نطق: "هو لنا الآن"

ـ شكراً لتفهمك أسامة، وأرجو منك ألا تغير طريقة معاملتك لوالدتك، بالرغم من كل شيء فهي تظل والدتك وزوجتي التي أشتاق لها بالرغم من جفائها لي.

ارتعد قليلاً في مكانه ناظرًا لي بتعجب وقبل أن ينطق شيئاً أردفت:

ـ تجاهل ما قلته، ما كان يجب عليّ قول شيء كهذا في النهاية هي والدتك ويجب عليّ أن لا أعيبها بأي طريقة كانت فهي قبل كل شيء عشيرتي.

صمت أسامة، لأمد يدي صوب السجائر لأشعل غيرها، لأجد عينيه تنظران صوب الصندوق كمن يتمنى أن أعيد تقدم العرض السابق له، لأحقق مراده وهذه المرة لم يرفض فقد مد يده مستلّاً واحدة لأشعلها له، وكُلِّي ابتسامة رضاً.

لكم هو سهل التلاعب بالبشر والتغلغل لأفئدتهم كما أذهانهم، جملة واحدة هي كل ما احتاجه الأمر لجعل أسامة يراقب والدته محاولاً فقه طبيعة هذه العلاقة الغريبة، راقب فيما امتدحت والدته بكلمات معسولة لأُقابل ببرود يصدني، حاملاً في محياي القليل من الجرح الكاذب، ترقب كيف أنها لا تنتظرني لطعام في حين تأخرت ولو قليلاً في حين أنه لا يبدأ الطعام من دون وجودي، أروى لم تهتم بحاجياتي كما فعلت أنا حيث كنت دائماً ما أسألها عن أوامرها وما ترغب، أما هي فلم تبادر حتى بسؤالي عمّا أحب أو أحتاج، أسابيع امتدت لشهور بقيت فيها على هذا المنوال. أبديت حزني الخفي كما خيبة أملي أمام برودها رسالة فقهها أسامة جيداً، لأجد أن نظرته لوالدته قد تبدلت قليلاً ما زال يعاملها كما اعتاد إلا أنه من حين لآخر ينظر إليها غضباً على تجاهلها إياي، على عدم مبادلتي الحديث أو السؤال عني، ثم ذات يوم فيما عاد من المدرسة سمعت صوته المتعالي في المنزل فيما كنت في حجرتي، بهدوء اقتربت من الدرج متلصصاً على حديثها لأجد أسامة قائلاً:

ـ ماذا تعنين بأن رأيه لا يهم؟ هو أيضاً شخص في هذا المنزل وهو زوجك، أكثير عليه أن يُسأل عمّا يرغب به للغداء؟

ـ هو زوجي بالاسم فقط، مجرد زوج يُحسب عليّ بلا وجود حقيقيّ له، الحاضر الغائب لا علاقة له بنا فعلاً، كما لا تجرؤ على رفع صوتك عليّ أنا والدتك وعليك احترامي وبرّي.

ـ ألا ترين أنه يحاول، لقد تغيّر، هو حقّاً يرغب بعائلته، لقد فعل كل ما في استطاعته لتصحيح الماضي، هو يسأل عن يومنا، عن رغباتنا واحتياجاتنا، يخصص الوقت للحديث معي يوميّاً، كما البقاء معك لمشاهدة التلفاز الذي لا تتوقفين عن متابعته، يمتدحك في كل فرصة ممكنة، وكل ما يتعلق بك.

ـ هذا يكفي أسامة لا تتحدث بما لا تعرفه وأنا أحذرك مجدداً من رفع صوتك أو الحديث معي بهذه الطريقة.

ـ بل أنا أعرف، أنا أذكر أنكما تشاركتما حجرة واحدة فيما مضى حتى قمت أنت بنقل كل حاجياتك ونبذ الحجرة له وحده، أذكر أنه لم يُهِنك يوماً، لم يضربك أو يصرخ عليك، أنت حتى لم تواسيه في موت والدته، لم تربتي على كتفه أو تجففي دمعه، بل هو تضرع لك ذلك اليوم لتكوني معه، لتُكفكفِي دموعه، طلب منك احتضانه إلا أنك رفضت ذلك وتركته محطماً حزيناً.

ـ أهو من قال لك ذلك؟

ـ لا، لقد كنت عند الباب، لقد استيقظت من صراخه تلك الليلة، لذلك هرعت لأرى ما يحدث فأسمع حديثكما، أنى لك أن تكوني قاسية عليه هكذا؟ أنت حقّاً قاسية، حتى بعد كل ما قدمه لنا، بعد كل ما عاناه من صعاب واضطهاد من جدتي أنت تتخلين عنه وتهجرينه، إن كنت تبغضينه هكذا فلم تظلين معه؟ لم لا تنفصلين عنه ليجد هو حياته مع امرأة تقدره؟ أَكُلُّ ما ترغبين به هو ماله فحسب؟ أنت...

تلحن المنزل بصوت صفعة تردد صداها في الأرجاء، ومعها أحكم الصمت للحظات قبل أن يتحطم بصوت أروى الصارخة:

ـ أخبرتك أن تحذر في حديثك معي، أن تظهر الاحترام، من تظن ذاتك لتحكم عليّ؟ ليس وحده من عانى ظلم تلك المرأة، ليس وحده من ذاق المر والهوان، هو لم يحمني حين رغبت بالحماية، هو كان خوفي بعد أن سلب مني براءتي، أجل أبقَى معه من أجل حياة كريمة، حتى لا أُدعَى مطلقة وأصبح علكة في لسان كل الناس، وماذا في ذلك؟ هو وافق على الأمر فمن أنت حتى تُطْلق أحكامك؟ أنا من حميتك طيلة هذا الوقت، من رعاك وجعلك الشخص الذي أنت عليه والآن تعتقد ذاتك رجلاً تقف أمام وجهي؟ اغرب من هنا الآن ولا تحدثني مجدداً حتى تعلم فداحة ما فعلته.

تراجع أسامة مُرتقياً الدرجات بذل وهوان، ليجدني أقف على بداية السلالم، نظر إلي والدمع في عينيه، وضعت يدي على رأسه أربت عليه، وهذه المرة كانت مشاعري خالصة، فلطالما رغبت بمن يجبر

كسري بعد أن أُصفع، رأيت فيه الكسر الذي خالجني ذات يوم لتتساقط دموعه فيما ارتمى لحضني، وشيء في وجداني انفلج لهذا الفتى، هو حقّاً امتداد لذاتي، ظِلٌّ لطفولتي ارتحل عبر الزمن لحاضر يمر به أسامة، لعل الظروف ليست ذاتها، إلا أن هذا لا يعني أن الألم مختلف، فلا شيء أفظع من الألم الذي تكيله الأم على ابنها، فلا أحد يعلم الطفل مثل والدته فهي تعلم مفاتيح قلبه بل هي من تَصوغ هذه المفاتيح وبها تنسج لِجامًا للرغبات والأفكار وحين يعصيها الأبناء أو يتجرؤون على رفع رؤوسهم فهذه المفاتيح تتحول لسلاح يصيبنا بمقتل، ندب لا تفتأ تنضح سقماً كريهاً، ولكَ بني سأنتقم، فلا يهزم العدو من مرة واحدة ولا انتصار أفضل من ترويض وتحطيم الروح.

ـ عد لحجرتك وسأحضر لك بعض الثلج لتضعه على وجهك فلا بد أن ذلك آلمك.

أومأ برأسه المدفون في صدري مبتعداً حيث حجرته، فيما هبطت أنا الدرجات لأجدها تجلس على الأريكة متهاوية، ما أن رأتني حتى ارتعدت إلا أنها حملت الكثير من الغيظ والبغضاء في عينيها، كمن يلومني على هذا الأمر، وهي ليست بمخطئة كل هذا من تدبيري، لقد رغبت صنع شرخ في علاقة أروى مع ابني، قررت فعل هذا بهدوء ورَويّة إلا أن تصرفها البغيض صنع أكثر مما كنت أتمنى، لقد تسببت في خلق فجوة كبيرة في علاقتها، هذا الابن الذي تعلق بها أبصرها الآن بصورة مختلفة، هي الأم التي كانت ذعري، لقد عَقَدْتِ مأساته بمأساتي، وكل حرف قصصته عليه من الماضي، تشكل الآن ليَمسي

واقعاً يعيشه هو، كل حروف أمي تكررت أمامه متشكلة من فمك ولسانك، الآن أنت في ذهنه صورة لوالدتي، الرعب الذي شعرت به معها سيمسي له معك الآن، أحسنت أروى لقد منحتني أكثر مما كنت أطمح وأرجو، والآن آن أوان إصابتها في روحها

ـ احذرِي أروى فأنت بت تشبهيننا كثيراً، لقد رجمتِ الكلمات ذواتها التي كانَت ترددها علينا.

راقبت فيما تلبسها الذعر، لقد أصابها في وجدانها معيداً لها صدمات الماضي وضيمه، لم أمنحها الكثير من وقتي حيث إني قدمت الثلج لأسامة لأخفف من ألمه.

أيام قليلة مضت تعاظمت فيها الفجوة بينهما، فلا أسامة يغفر الصفعة التي تلقاها، ولا هي تعترف بخطئها أو تعتذر، ليَحين دوري مُتجسداً كالبطل المضحي، ذهبت لأسامة في حجرته التي اتخذها وطناً له منذ الحادثة فلا يخرج منها إلا للمدرسة التي بات يوقظ نفسه لها دون انتظار والدته، الأمر الذي آذى فؤادها حد التحطم إلا أن كبرياءها لم يسمح لها بالتنازل. ارتسمت الابتسامة في وجه أسامة حين رآني أطل عليه من الباب، ليدع عنه الفروض المدرسية ناظراً إلي، وبعد أن استأذنته لأخذ قليلٍ من وقته بدأت حديثي معه:

ـ أسامة عليك الاعتذار من والدتك، يجب عليك عدم تركها غاضبة عليك أكثر من هذا.

ـ لماذا عليّ أن أفعل هي من ضربني دون حق؟

ـ ومع هذا تظل والدتك بني، عليك التماس الصفح منها والحصول على رضاها، أعلم أنك لم تخطئ فكل ما فعلته هو الحديث عن الحقيقة خوفاً علي، ولهذا أنا شاكر، ومع هذا عليك إراحة فؤاد والدتك.

ـ لم تهتم بمشاعرها هكذا في حين أنها لا تفعل؟

ـ بالرغم من بغضائها لي واستحقارها، إلا أنها تظل زوجتي ووالدة ابني، كرامتها من كرامتك وسعادتها من سعادتك، وأنت أهم مخلوق عندي، لذلك جد الشجاعة في قلبك للاعتذار، أعلم يقيناً كم هو مؤلم ظلم الوالدات، أدرك الألم الذي يُصاحب الاعتذار حين يكون الحق معك، كما لو أن جزءاً من روحك يرحل مع الكلمات التي تخرج من فمك، ومع كل حرف تفقد والدتك شيئاً لها في فؤادك، أعي هذا بني، لقد عايشت هذا طيلة حياتي، ومع هذا أنت لست وحدك فأنا معك، من أجل استمرارية هذه الأسرة وراحتك أنت افعل هذا، من أجلي.

نسجت بضع كلمات منمقة كنت قد قرأتها في أحد الكتب الفلسفية، كلمات احترام لا أحمله داخلي، هو مجرد ضربة أخرى أصيب بها علاقتهما معاً، إلا أن أسامة استجاب لطلبي لأربت على رأسه فيما خرجت من الحجرة تاركاً إياه ليجد شجاعته، وبعد بعض الوقت أقبل ابني لمكتبي يخبرني أنه حل الخلاف الآن، إلا أني وجدت شيئاً من

النقم في عينيه، لأعلم أن أروى لم تغفر له إلا بعد أن أصمت آذانه بكلمات آلمت فؤاده، عادة اكتسبتها من تلك المرأة دون أن تعي، لقد كان سخطها قبيحاً، لم تكن لتغفر لي دون جَلد روحي وجعلي أتردد إليها ذليلاً أرجو رضاها مرة تلو الأخرى، وفي كل مرة تعيد سرد السم ذاته لي، ملحنة أغنية الضحية والتضحية التي لطالما تغَنَّت بها، متلذذة بهواني وذُلي، وحين تشعر بالرضا من هذا التضرع القاتل تخبرني بأنها غفرت لي، سامحت زلتي وإن كانت هذه الزلة من نسج خيالها، مرة بعد مرة تحطمت صورتها أمامي ثم تصبغت بألوان الكره الذي تدثر بالخوف منها.

عاد السلام الكاذب لمنزلنا مجدداً، وعدنا لنجتمع على طاولة طعام واحدة، هي كل ما يجمعنا نحن الثلاثة معاً ولا غيرها يفعل، لاحظت قليلاً من التغيّر في أروى هذه الأيام، بالرغم من أنها لا تبدي شيئاً إلا أني تمكنت من قراءة محياها، تغيرات بسيطة ترتسم في تقاسيم عينيها، حين نتناول الطعام فهي تنظر إلي خلسة بعد ثلاث لقيمات منتظرة مني الإطراء على طهوها، ولأثبت صحة فرضيتي أمسكت لساني عن مدحها بضعة أيام ليبدأ الاضطراب بالسكن في فؤادها، وتتعطش للكلمات اللطيفة التي كنت أمنحها إياها والتي لم تلق لها بالاً أو تقابلها بأي شيء أكثر من ابتسامة فاترة خالية من المشاعر. وحين طال الأمر عن الأسبوع وجدتها متقلقلة على مقعدها في الطاولة، بعد القليل من الوقت طرحَتْ سؤالاً لم يكن يُعنى لي:

ـ هل الطعام جيد؟

لم أجب لكن أسامة طمأنها ولم أعقب عليه، لتعيد طرح سؤال آخر بعد القليل من الوقت:

ـ أليس الملح قليلاً؟ دعني أحضر شيئاً منه

حين وضعت الملح على الطاولة راقبت لترى إن كنت لأمد يدي صوبه، عدا أني لم أفعل، ليتسلل التململ إليها في جهل عن سبب تغيّري المفاجئ، وجدتُ في ذلك متعة داعبت شروري، ولأزيد الطين بلة، أعلنت شبعي ناهضاً عن المائدة قبل أن أنهي طبقي وهو أمر لم أفعله سابقاً حيث كنت أتحقق من إنهاء كل الطعام الماثل أمامي فيما امتدحتها من حين لآخر، راقبت فيما تلبست خيبة الأمل جسدها لتطأطئ رأسها مخذولة. حين أقبل علينا العصر ذلك اليوم سمعت صوت طرق الباب ومن خلفه أتاني صوتها لأسمح لها بالدخول، فتحت الباب وفي يدها صينية حملت عليها كوب القهوة الخاصة بي ومعها بعض أطايب الحلويات المخبوزة منزليّاً، هي لم تصنع قهوتي يوماً ولم تتكبد عناء تعلم كيفية صنعها:

ـ ظننت أنك قد ترغب بشرب قهوتك الآن فهو وقتها، أليس كذلك؟

ـ بلى هو كذلك شكراً لك

أجبتها بعدم مبالاة فيما تصفحت الكتاب دون رفع نظري من على صفحاته ليزداد اضطرابها،رغبت الضحك ملء رئتي على هيئتها المثيرة للشفقة ورغبتها لسماع الإطراء ممن لا تحمل المودة له، أهذا ما بدوت عليه في نظر تلك المرأة أيضاً؟ مثير للشفقة؟

وضعت الصينية على الطاولة أمامي لتردف:

ـ صنعت بعض الحلويات المنزلية أيضاً، أتمنى أن تنال إعجابك

ـ حسناً شكراً.

خرجت من الحجرة مغلقة الباب خلفها بهدوء ورجاء خائب، مُتبسماً داخلي ببداية انتصاري، بعد ساعة أو ما يزيد خرجت من الحجرة لأجدها في مكانها على الأريكة تنظر للتلفاز بعينين لا تبصران ما يحدث، بدت شاردة الذهن لأقرر إنهاء عذابها قليلاً، اقتربت من حيث كانت واجداً مكانى على الأريكة ليس بقريب منها أو بعيد:

ـ شكراً لك على القهوة، لقد كانت أفضل ما احتسيت من وقت طويل، كما أن حلوياتك مدهشة، لم أعلم أن زوجتي مبدعة هكذا، لعلي لن أتناول القهوة إلا من يديك بعد اليوم.

رأيت فيما لمعت عيناها من كلماتي واحمر وجهها خجلاً من كلمة زوجتي، كما لو أنها تسمعها لأول مرة، بل لعلها أول مرة تعي أننا متزوجان بعضنا من بعض، لتجيب بكلمات قليلة:

ـ شكراً لك، سأصنعها لك مجدداً.

وحتى حين لم تظهر ذلك، بات إرضائي وسماع كلمات الإطراء مني هاجس أروى الوحيد، بدأت بلبس ثياب جميلة والتزيين في المنزل لأقدم لها كلمات داعبت أنوثتها، منحتها بعض الهدايا متحججاً بأن الزهور ذكرتني بها، أو أن العِقد يناسب عينيها، أبديت إعجابي بالعطر الذي تضعه لتحرص على استخدامه يوميّاً، أخبرتها أن لا تطيل المكوث في منزل والدتها لأني سوف أفتقدها، لأجدها تهرع للمنزل في موعد أبكر من المعتاد، شيئاً فشيئاً باتت تهتم بما أرغب به، تسألني رأيي في أمور تعنيها، من لون ثيابها، طول شعرها، الحلي التي تتزين بها، لقد تعطشت لإشباع غرورها عن طريقي، وأنا لم أبخل بمنحه لها، ثم أقبل ذلك اليوم الذي شعرت فيه أن حبي وقع في فؤادها، أنها ترغب أن نكون معاً كزوجين ليرتبط جسدانا معاً، لم تصرح بهذا إلا أن ما ارتدته من ثياب في طيات الليل بعد نوم ابني فيما تجولت في أرجاء المنزل واضعة عطراً فاحشاً هتف لي برغباتها، وما كنت لأمنحها هذا حتى لو لعقت مِشطَ قدمي، إلا أن هذه كانت إشارتي لتحطيمها.

دسست كريه السم بين حروفي لها، حين تسألُني عن رأيي في الطعام أعلق قائلاً:

ـ تسلم يداك لكن ألا تعتقدين أن الزيت كثير؟

أحياناً يكون الملح، يحمل نكهة طعام محروق، كثير الليمون، لم يطه جيداً وغيرها من الأمور، لم أثنِ على طهوها دون أن أوجد سببًا واهيًا للانتقاص منه، كذلك كان الأمرَ بالنسبة لمظهرها .

ـ هذا اللون جميل عليك، وكان ليكون أجمل لو أنك كنت سمراء.

ـ بالتأكيد الشعر القصير جميل عليك، ولكن احذري من تقصيره جداً فقد تبدين كالصبية.

ـ هذه الثياب تناسب جسدك جداً وسوف تكون أجمل لو أنك كنت مليئة أكثر.

ـ العطر الذي تضعينه ساحر، ولكن ألا تعتقدين أنه يناسب من هن أصغر سناً؟ عليك اختيار عطر يناسب عمرك .

طريقتي هذه جعلتها تتعطش لإرضائي مهما كان الثمن رغبت التغيير بما يتناسب معي، لقد جعلت حياتها وغرورها يطوفان حول رأيي وقبولي بها، شاهدت فيها انطفاء شعلة ثقتها، وامتلأت حياتها بعدم الرضا عن ذاتها، تزينت ابتسامتها بشقوق من بغض الذات والشك، والأمرُّ من هذا حقيقة أني لا أقترب منها أبداً، بالرغم من محاولتها الحثيثة لجعلي ألمسها إلا أني أبديت الجهل من تصرفاتها، أنا حتى لا أضع يدي في يدها أو أجعل جسدي قريباً منها وإن حدث وجلسنا قريباً بعضنا من بعض، أجدها تميل بجسدها بهدوء صوبي كمن تحاول إيجاد رابط دافئ معي، إلا أني أبعد جسدي عنها فور أن تلامسني ثيابها كمن أهرب منها، فأجد الموت يغلف عينها كما هيئتها، بدت ذليلة جوفاء من السعي المضني للحصول على رابط حقيقي معي لنكون زوجين بكل ما في ذلك من معنىً.

ـ صاغر، لماذا لا نصبح زوجين حقيقيين؟

ـ ألسنا كذلك؟

تصنعت الجهل فيما حاورتني ذات ليلة حين جلسنا بمفردنا في مكتبي بعد نوم أسامة.

ـ نحن كذلك، ولكن ألا تعتقد أن الأوان قد آن لنتشارك حجرة واحدة، ونشعر بدفء أجسادنا بعضنا مع بعض؟ ليس مجرد مسرحية بيننا، بل علاقة حقيقية تربطنا، فؤاد واحد يجمع بيننا.

ـ أترغبين في أن نؤدي واجباتنا الزوجية؟

أبديت التعجب فيما تلون وجهها بالخجل الرخيص.

ـ أعتقد أننا أمضينا الكثير من عمرنا بعيدين بعضنا عن بعض متخبطين من الماضي، ولقد كنت عند وعدك بالتغيُّر وأن تكون الأب والزوج الذي نستحقه، وأنا أرغب أن أكون الزوجة التي تستحقها أيضاً.

وضعتُ يدي على يدها لتمسك يدي بلطف فيما ارتعدت أطرافها قليلاً رفعت نظرها صوبي لأتبسم لها قائلاً:

ـ أروى أنت زوجتي وأحمل الكثير من الود لك في فؤادي، وأعلم أن الماضي وكل الظروف أودت بنا لهذا كانت خارج إرادتنا، ولا أرغب بشيء أكثر من أن أحقق لك رغبتك.

أشرق وجهها بهجة عُكست في عينيها ليبتسم ثغرها سعادة ورضاً، فيما همس الصوت داخلي: "لنقضِ عليها"

ـ لكن أروى لا أستطيع منحك ما تصبين إليه، لقد حاولت لوقت طويل أن أكون كل ما ترغبين به، عدا أنك أتيت متأخرة جداً، لأفقد الرجاء في أن نكون زوجين حقيقيين منذ أمد، ظللت أسعى خلف استحسانك وحبك لزمن طويل حتى غابت أنفاسي، فيما لم تحاولي مقابلتي في منتصف الطريق أو تنتظريني حتى، لذلك أصابني الإعياء من المحاولة والسعي، ما زلت زوجتي التي أعتز بها، وسأظل كما أنا غير متغير، عدا أنك تطلبين مني مشاعر أنا غير قادر على منحها لك، أعتذر لتحطيم فؤادك هكذا، ولو أن الأمر بيدي لما ترددت في تحقيق أمنيتك، ولكن لا يمكن أن تنجح علاقة تمسكت بها لوقت طويل حتى أُدميت يداي وأنا أجذبها صوبي من طرف واحد، في حين أن الطرف الآخر من الحبل يظل يُجْذَب من طرفك، لذلك قُطِع الحبل أروى.

تساقط دموعها على حقيقة خسارتها لي، وزر ذنبها نبذي لوقت طويل أثقل كتفيها، لقد صدقت كل كلمة قلتها، بل آمنت بها حتى أصابت فؤادها بمقتل، وأشعلت روحها سخطاً على ذاتها، وضعت رأسها على يدي الممسكة بيدها، لأشعر بدموعها حارة على يدي، منتحبة حبها لي الذي أزهر متأخراً، عيناها اللتان لم تبصرا فؤادي الذي حملها حبّاً داخله ثم أزهقته بنفسها بغرورها وكبريائها، كل هذا شعرت به من جسدها المرتعد، شهقاتها، تنهيداتها، ومن همساتها التي ترددت بين أنفاسها بذنب قائلة:

ـ أنا آسفة، هو خطئي أنا.

انتصرت! أخيراً انتصرت على أروى لقد حطمتها، الآن وبعد ثلاث سنوات من إعلاني الحرب عليها، ظفرت بكسرها ذليلة بين يديّ، تكاد الضحكات تهرب مني، بل أنا أرغب بالصراخ لإعلان نصري، سحبت يدي بهدوء من بين يديها، لأنسل إلى خارج الحجرة حيث هي تتهاوى باكية ولم تحاول إيقافي موقنةً أنها لا تملك الحق لفعل هذا، ارتقيت الدرجات صوب حجرتي مغلقاً الباب خلفي لأرتمي على الفراش دافناً وجهي به، لأصرخ بهجة غمرت روحي، فتتسلل الضحكات كقهقهة طفل يحظى بمتعة حياته، أهذا ما يعنيه أن تمتلك اليد العليا؟ آه كم هذا الشعور مخدر جميل، من كان ليعلم أني صاغِرِ قادر على تحطيم أحدهم دونما إصابته؟ كم عدد الضحايا الذين كان بإمكاني تحطيمهم لو أني حررت رغباتي سابقاً؟ لربما تمكنت أن أنتقم لذاتي منها قُبيل موتها، بل لقد كدت أن أفعل سابقاً، آنذاك حين أن تحررت أول مرة بعد قتل منال، لو أني فقط لم أحكم أغلالي حينئذٍ لحققت عدالتي عليها دون أسباب.

-٢٤-

هل سيطول انتظاري ؟ متى سوف ينتهي هذا الجوع القاتل؟ أعلي أن أنتظر أكثر؟ صاغر لقد طال كبتِي كما هذه الشهوة، افعل شيئاً أو سوف أنقض عليك منهياً حياتك.

ظل الصوت داخلي يصرخ، هو يتعالى لصليل يصم آذاني غير قادر على استجماع شتات ذهني الذي يجد فريسته في كل الأوجه. كل عام وحين تقترب ذكرى وفاة تلك المرأة أجد أن الصوت داخلي يقود رغباتي، تصبح إرادتي خائرة أمامه، غير قادر على إخراسه، طيلة العام وحتى اقتراب الموعد لا أشعر بحاجة ملحة للاقتصاص لذاتي منها، لا أجد الشهوة تدير حياتي، أعاصيري هادئة، روحي ساكنه كما عقلي، ثم بغتة ومن دون إدراك مني أو سيطرة يتعاظم سخطي، متذكراً المذنبة التي لم أتمكن من الاقتصاص منها، تلك التي ترقد جيفة متحللة في ذلك المنزل المتهالك، أشعر بصفعاتها ترن في أذني، لسانها السليط يجلد الجلد من علي، تلك الأكذوبات التي روتها حتى باتت نهج روحها، كل ما لم أتمكن من دفنه معها وكل ما يظل ينبش طريقه عبر روحي محيلاً إياها لرماد، الماضي بكل آلامه يتعاظم داخلي حتى يبات الانتقام منها هوساً يُسيطر على أيام حياتي، وصب لا يسكن حتى أجد مذنبة تخفي خطيئتها في غياهب الليل، لأقتلها كما رضيعها فيما أدفع بذاتي فيها، أعتصر عنقها بين قبضتي هاتفاً لتلك الجيفة أنه ذنبها كل شيء ذنبها، هي من صنعتني وحشاً قبيحاً، وهذا انتقامي منها وعليها، لتلفظ الفريسة روحها بين يدي ومعها يخمد أجيج السخط، تُخرس الأصوات الصارخة، وتسكن الشهوة. فناء ذلك المنزل بات مقبرة للفاحشة، خمس نساء وخمسة رُضّع، أولاهم انتقامي وآخرهم رحمتي، هم بعدد السنين التي مضت منذ أن حكم الموت عليها.

أما الآن فلقد مضى موعد منيتها ولم أَكِلِ انتقامي أو رحمتي على أحد بعد، ليس تعففاً مني، بل لعدم وجود ما أصبو إليه، كما لو أن كل الفواحش قررت التوبة الآن، فلا امرأة تتسلل ليلاً تنبذ ذنبها، هل أقسمن على التعفف الآن؟ أم أن الذكور نبذوا عاداتهم وغريزتهم الشيطانية؟ لا يهمني أي من هذا فلقد مضى ثلاثة أشهر لم أحرر فيها ذاتي، لقد جبت الأحياء ليلة بعد ليلة، انتظرت بصبر خالص، حافظت على رباطة جأشي، عدا أن الأرض خلت من فاسقيها، الآن أشعر أني سوف أفقد صبري، هذه الرغبة سوف تلتهمني أنا قبل أي مخلوق آخر هذا الصوت سوف يتلبسني لأمسي حاوية شروره حتى يتنفس الصعداء مرتوياً حد الثمالة من الانتقام، أعلم يقيناً أن هذا اليوم وهذه الليلة هما حدود صبري، إن لم أجد مبتغاي اليوم فلا علم لي ما قد أفتعل أو ما قد تدفعني له نزوتي، سخطي كما بغضائي لأرتكب، فقط لأتمنى أن لا يكون هذا هو مسقط السيف على عنقي.

ليلة أخرى تبوء بالفشل، بات التنفس عصيباً، وبصري يحال لدخان، كل ما أبصره هو شبح وجهها يسخر من فشلي، ضعفي، انقيادي، أشباح الماضي تتراقص حولي، لون حُمرتِها الحمراء تساقط على حدود رؤيتي ملوناً الأوهام كما الواقع بلونه المنفر، ريح عطرها القذر حلق في الأرجاء قاذفاً بي صوب مشاهد البغاء بين جدران تلك الحجرة، موسيقى عبد الحليم ترددت في أذني دون كلمات أفقهها، لقد عُقِدَ الواقع بوهم الخواء.

دخلت منزلي أعقاب الفجر، لتقابلني هيئة عرفتها، هي لتلك المرأة التي تدعى زوجتي، وجود أبغضه، صورة قد تكون لها، لعلي أتمكن من النجاة إن انقضضت عليها، لربما تعيد آخر أنفاسها الحياة لى، تجذبني لأرض الواقع، أكاد أفقد عقلي، إلا أني تماسكت، علي أن أعود لوعيي وإلا فإني مرتكب ما لا أقدر على النجاة منه.

ـ أين كنت طيلة هذا الوقت صاغر؟

ـ أين ما أكون وحيثما أكون لا يعنيك الأمر.

علي أن أبتعد عنها، لأهرب بسرعة، لعل بعض النوم يعيد لي عقلي ورزانتي.

ـ لقد كنت تخرج كل ليلة لمدة ثلاثة أشهر الآن، أطالب أن تخبرني أين كنت، أكنت تعمل بالحرام مع امرأة ما؟ لقد رفضت لمسي والآن أنت تذهب لامرأة أخرى تشبع رغباتك، أتفضل الحرام على الحلال الذي لديك؟ أم أنك تشتهي الفاجرات فقط؟

ـ أنا منهك توقفي عن الحديث ودعيني أجد راحتي، ولكل شيء أوان.

ابتعدت عنها بضع خطوات سريعة، إلا أنها وقفت أمامي لأرتعد ناظراً بعينين جاحظتين لما يقف خلفها.

ذلك الظل الأسود ذو العينين الغائرتين، بلا هيئة تحدد معالمه، إلا أنه أسدل بشعر أسود ليلي، ذلك طيف امرأة بلا وجه أو تقاسيم تدل على ما تكون، طرفت بعيني عدة مرات لأزيل الوهم، إلا أنها خلفها تقف طويلة هزيلة، نظر الطيف إليّ، إلى روحي، فتح فمه ليكون هوة سوداء ابتلعت روحي الواهنة، لأتراجع للخلف مذعوراً أرتعد، لتُميل رأسها قليلاً باستخفاف، أغلقت ثغرها إلا أنه انفلج بابتسامة سوداء مبهمة، ومن بين شفتيها خرج سائل دبق أحمر، ارتسم على شفتيها ملوناً إياهما بذلك اللون المشؤوم، هو لونها، بل هذه هي تقف أمامي، تسخر مني، حامت لتقترب مني

ـ لا تقتربي! ابتعدي!

ـ أتبغضي لهذه الدرجة حتى ترغب بالمزيد من المسافة بيننا؟

طرفت بعيني لأرى أروى أمامي من يتحدث، عدا أن ذلك الطيف لا يزول، هو يحوم ساخرًا، مُقهقِهًا جنوني، بعثر الطيف الظلام من حوله متناثراً لهيئة ذاتي الطفل، هو يُركل، يُصفع، تحكمه الأغلال، هو يحمل زفة أكبر منه على ظهره، يجر بغلًا عنيداً خلفه، مُلقًى على معدته مسلوبًا الطفولة، تُكتم صرخاته منك فيما تُغتصب حياته، هو يصرخ، أنت تصرخين، هي أمامي تصرخ بما لا أفقه، الكون كله صاخب، وضعت يدي على أذني متقوقعاً على ذاتي .

ـ هذا يكفي! اخرسوا! اخرسوا جميعاً! لتخرسوا!

اقترب الطيف الأسود مني، هي كل ما أبصر الآن، مدت يدها صوبي لتؤذيني، لتتردد كل إهاناتها لي دفعة واحدة، أنت لست برجل، لا شيء من دوني، أحمق، جبان، رعديد، فاسق، نجس، كما لو أن الألم لم يزل يوماً، كما لو أني أسمعها لأول مرة، كما لو أني لم أعتدها، ليصيبني وصبها كموجة أغرقتني فأفقدتني العقل، اندفعت صوب ذلك الظل أطرحه أرضاً، طوقت عنقه بيديّ محكماً قبضتي عليه، مستلّاً أنفاسها، ليتخبط الظل أسفل مني، ملقياً بيديه يمنة ويسرة أصابتني بضع صفعات منه، خُدش وجهي بمخالبها كما ذراعي، إلا أني لم أرخ قبضتي، استمررت بالضغط حتى تلاشى الظل لعدم، وهنالك استلقت تلك المرأة التي تكون لي، بلا حياة فيها، عينان قلبتا للخلف، فم تناثر الزبد عليه، لم أعِ سبب هيئتها تلك، لم أرغب بأن أفعل، فهنالك صاغر الصغير الذي يوجد في حجرته الآن، طفل علي حمايته وإسدال رحمتي عليه، فلقد عانى كثيراً وسيعاني الضيم في المستقبل، لأنهِ عذابه فلا حياة تستحق كل هذه المعاناة.

جررت قدمي متسلقاً السلالم، أفتح باب حجرته التي لا أميزها فلم تبدُ غرفة صاغر فاخرة كهذه من قبل، لقد كانت بالية مهترئة ولكن هذه مشرقة جميلة، مليء بالطفولة التي لم يحظ بها صاغر يوماً، ما هذا إلا وهمٌ يمنعني من إنزال رحمتي .

اقتربت بهدوء لصاغر النائم هذا الطفل الذي لم تُسلب منه براءته بعد لا بد أنه في الخامسة من االعمر الآن، طفل لا يرغب بشيء إلا حب والدته، طفل لم يعلم شرور البشر وهو أولهم، يتحتم علي إراحته من حياة هي الجحيم فأنا غد هذا الطفل، حملت وسادة ملقاة على الأرض دافعاً بها على وجه صاغر واضعاً وزر جسدي الضخم عليها، لينتفض جسد صاغر أسفل مني، هو يرتعد، يضرب ذراعي بعنف شديد تارة وتارة يدفع بوجهي بعيداً، إلا أني لم أتزحزح، فهذه شفقتي وحبي لك صاغر، لقد حملت معاناتك كلها عنك صاغر وسأحملها مجدداً ما دمت لن تتأذى لتنم قرير الآن فأنا ماضيك، حاضرك ومستقبلٌ سلبته منك.

حملت سيفي البارق في يدي، قدت سيارتي حيث ذلك الرجل الذي هجرنا، هو أصل عذابي، هو الذكور كلهم وأنجسهم، فاسق، واهن مُدعي النزاهة، ذلك الطيف الأسود ما زال يحوم حولي، هي لم تتلاش بعد، هي تقودني لخلاصي، لا يهم كم مرة لوحت بيدي مبعداً إياها عني إلا أنها لا تزول، صوتها الهامس المبحوح يوسوس لي قائداً كل حواسي المتلاشية، تهمس لي أن الخلاص هنالك، حيث ذلك الرجل، لا أقوى أكثر من ذلك عليّ أن أرتاح، هذا الجنون يتآكلني هو يلقي بوزره على كل كياني كما روحي، إن لم أطعه فلن يزول، سوف أمسي مجنوناً فعلاً. لا أعلم كيف قدت أو كيف وصلت لمنزله، لكني فعلت، حاملاً سيفي بيدي، دخلت ساحة المنزل من بوابة فتحت على مصراعيها..

ليقبل علي طيف صارخ محاولاً منعي من الدخول، استللت سيفي شاقّاً به الطيف ليتمزَق لشقين، فتعطرت الرياح برائحة الدماء المحبوبة، شققت طريقي لداخل المنزل، لتبصر عيناي الظلال السوداء المترامية، تلك التي تناثرت في الأرجاء عدا أنهم ليسوا من أصبو إليه بل هو ذلك الوغد الذي تقودني له تلك الظل، شفتاها الحمراوان ارتسمت عليهما ابتسامة غيظ مرير، مرتحلة برشاقة بين أروقة المنزل لتتناثر ظلالها في الأرجاء مُشكّلةً آلامي لأضربها دون هوادة، ومع هذا تعالت الأصوات الصارخة، هم لا يخرسون أو يهمدون، بالرغم من صرخاتهم إلا أنهم يملكون الشجاعة للانقضاض علي، أتعتقد هذه الظلال أنها قادرة على إيقافي؟ كبح جنوني وهياجي؟ ليفعلوا إذاً إن استطاعوا فلا رادع لي غير عنق ذلك الرجل تُجز، لوحت بسيفي صوب كل الظلال أصيب منها من أرجو ماحياً معها آلام الماضي وضيمه، دونما توقف اتبعت الظل المتبسم فيما بطشت بمن يقف بطريقي، ثم هنالك توقفت الظل، ناظرة إلي تستدعيني بحركة رشيقة من يدها لأتبعها، فأجده يقف مرتعداً في مكانه يقف في بركة من بوله النتن مثله، اقتربت منه بخطوات كبيرة، إلا أنه ارتعد للخلف، وفي استعجاله سقط على نجاسته ليتلحف بها، ظل يهتف، يصرخ يرجوني، عدا أني لم أعِ شيئاً علي إلقاء سيفي عليه لعله يقسم الظل التي تقف خلفه محتضنةً إياه، هويت عليه بالسيف إلا أنه لم يصبه تماماً حيث إن الرجل ابتعد إلا أن ألم الإصابة جعله يتقوقع على ذاته، فذلك السيف قد مزق معدته مخرجاً أمعاءه منها، هو ينحني على ذاته محاولاً لملمة أحشائه المتناثرة، والآن أنا أرى عنقه حيث علي أن أضرب، هنا يقع القِصاص، ضربة واحدة سريعة، دقيقة كما نظيفة وتُزال العنق، هويت بسيفي مُقتصّاً لذاتي منه.

ألقيت السيف في الأرض، حملت الرأس معي، لأقود السيارة حيث ذلك المكان الشاهد على كل شيء، هنالك تكمن البداية والنهاية، هنالك أدفن كل شيء كما اعتدت أن أفعل، أدفن واقعي المرير، ظلمة الحياة كما صاغر، هنالك بداية موتي لحظة ولادتي. اتجهت حيث ذلك الجسد مزيلاً عنه دثاره، لقد باتت عظاماً إلا بقليل من الأنسجة المهترئة التي التصقت بها، وضعت الرأس أمامها، رفعت رأسي لأجد الظل يَتبسم، هي تَبتسم، ولم تكن بسخرية أو استصغار، بل ابتسامة رضاً تام، سعادة وحب رجوته طيلة حياتي، أقبلت عليّ الطيف وهذه المرة لم أهبها أو أبتعد عنها، لأنها احتضنتني ثم تلاشت، لأحتضن أنا بقاياها باكياً فيما غشيني الإنهاك لأفقد وعيي لنوم خال من الأحلام أو الكوابيس، لظلام احتضنني برحمة كانت هي الأولى والأخيرة لي.

-٢٥-

فتحت عينيَّ متثاقلاً لمكان لا أعيه، جدران قذرة تلطخت بالأسود المتلاشي للرمادي، أرض صلبة حجرية متشققة، نافذة مرتفعة تسمح لقليل من ضوء النهار بالدخول، وحصيرة متداعية طويت على الأرض، ثم هنالك ذلك الباب الحديدي الصلب الذي وقف مُتعاظماً قويّاً يحمي العالم مني، لا بد أني في السجن، لقد تم القبض علي، أهذه هي النهاية الآن؟ ذلك هو الحد الذي اعتديت عليه لأُمسي في الطرف الآخر من حد السيف؟ إذاً ما هو شعوري الآن؟ أأنا مذعور؟ لا يبدو ذلك، لقد كنت مُتهيئاً لهذا، علمت أن هذه نهايتي، بل أنا أيقنت بها، لعلي حاولت جاهداً تلافيها إلا أني علمت أنها قادمة لا محالة. أأشعر بالخواء؟ ولا هذا أيضاً، بالتأكيد قلبي لم يتحجر بعد، هو ينبض بالمشاعر داخلي، شيء لم أعلم ما يكون، أهي الراحة كما السلام؟ لربما رجوت هذا من قبل، تمنيت، بل سعيت أن يتم القبض علي لينهي أحد حياتي، لطالما تمنيت الفناء حتى إذا لم أعترف بهذا، لقد تقت له سرّاً، عدا أني لم أجد الجرأة في داخلي لإتمام الأمر،علِّي مضيت في طريق لا رجعة فيه حتى أجد السلام. هنا في هذه الحجرة الواهنة الصغيرة في هذا الجحر الذي يليق بالفئران شعرت بالانتماء بلا مخلوق ينظر إلي، بلا هموم أو أصوات، أنا هنا وحيد في مواجهة روحي، ولست قلقاً بشأن هذا، لا أملك البغضاء أو اللوم لذاتي، لقد منحت نفسي ما لم يمنحه لي أحد، لقد اقتصصت لروحي من الآلام، الضيم وجميع المخلوقات، لست أبكي ما صنعت، لا يحزنني ما سلبت.

فأنا جلاد وقمت بأداء واجبي على أكمل وجه، وربما آن الأوان للاقتصاص من المذنب الأخير، ألا وهو أنا، ولكن إن كنت لأرحل فلأرحل حرًّا، طويلًا، عظيمًا، جبّارًا، مَهِيبًا، ولأسجل في التاريخ كقاتل لا يرحم كشاهد على قسوة الحياة وقاطنيها، لأرحل جلاداً سيافاً بلا فؤاد أو رحمة.

ـ إن أردت أن أتحدث حضرة المحقق، فأحضر لي النقيب رائد، فهو وحده من سأتحدث معه.

ـ لست في مكان يؤهلك للاشتراط صاغر، من الأفضل لك إنهاء الأمر والاعتراف.

ـ وإلا ماذا؟ أستضربني؟ لقد قضيت حياتي أتلقى الصفعات من الجميع وجسدي لا يمانع الضرب، الحرق أو حتى الكسور، أم أنك ستزج بي في الحبس الانفرادي؟ أنا هنالك مسبقاً ولست أمانع الوجود به فكما ترى أجد السلوى في هذه العزلة. أم أنك ستعاقبني بوضعي في زنزانة عادية؟ أنت أذكى من هذا، فكلانا يعلم أني لا أمانع القتل دون تردد، ولست بحاجة لسيف كي أفعل ذلك، أم أنك سوف تصيبني بالمجاعة؟ حينها لم تعلم الحقيقة وستبقى قضية مفتوحة لن تحل، وصمة عار في سجلك الحافل أيها المحقق نبيل.

ـ أتعتقد أنك تملك اليد العليا هنا؟ لقد قتلت زوجتك، ابنك عائلة أخيك كلها، من حسن حظنا بقي القليل على قيد الحياة ليُشيروا إليك كقاتل، ما نملكه ضدك يكفي لإدانتك وإعدامك.

تحدث المحقق دون تغيير في نبرة صوته، نظر كلانا للآخر بتحد، كند علينا الوقوف بعزم أمام قوة إرادته، أمر أضاف لي البهجة، لا بأس بقليل من المرح قبيل الموت أليس كذلك؟

ـ جلاد

ـ ماذا؟

ـ لا تقل قاتل، فكما ترى أنا جلاد أيها المحقق، وإن كنت تعتقد أن هؤلاء هم كل ضحاياي فأنت مخطئ، هنالك المزيد منهم، لنقل ثلاثة عشر على الأقل.

تجمدت الدماء في وجهه الذي شحب من العدد الذي ذكرته للتو، لأردف:

ـ ألا ترغب بمعرفة سبب جرائمي؟ ألا يتملكك الفضول؟ بالتأكيد أنت كذلك، وإلا لما أمسيت محققاً تبحث عن كل شيء ومسبباته، دعني أشبع فضولك، لتمسي المحقق الذي أمسك بالسفاح السياف، سوف تسمع كل حقيقة، كل ما جعلني أصِل حيث أنا، أحضر لي النقيب رائد، ليكن معنا في هذه الحجرة يسمع اعترافاتي كلها.

بين جدران تلك الحجرة الخرساء وجِدت طاولة واحدة ارتصت حولها ثلاثة كراسي حديدية صدئة، حملَ أحد جدرانها نافذة مراقبة، فيما تعلق ضوء واحد ذليل يقاتل من بين ومضاته لإضاءة الحجرة. أخذت كرسيّاً مَقعداً لي، أنظر لكاميرا المراقبة متبسماً لها، ثم لوحت بيديّ المكبلتين لها في سخرية كما استخفاف جليّ، فلقد تم إحضاري هنا منذ ست ساعات إلا أن أحداً لم يحضر بعد، بقيت في حجرة بلا نوافذ أو هواء عليل برأف بي في حرارة صيف جدة، لا بد أنها آلية تعذيب بسيطة أو أسلوب لجعلي أتحدث بسرعة، عدا أنهم لا يعلمون من أكون لا أحد يعلم حقّاً، هم يقللون من شأن صبري وتحملي، فلا بأس فما هذه إلا لعبة ممتعة لي، فالمحقق نبيل أحد ألمع العقول في مجال الجريمة، ويملك سجلّاً حافلاً بالنجاحات في إلقاء القبض على المجرمين والحصول على اعترافاتهم الدقيقة، لا بد أن أكون نداً له، ولعلي كذلك فأعلم أنه خضع لطلبي بإحضار رائد، لا بد أن هذا السبب الذي جعله يجرني إلى هنا بعد مضي أسبوع كامل من عرض شروطي، لعلهم قضوا الوقت في تعليم رائد وتحضيره لمقابلتي وتحذيره من الانصياع لألاعيبي، إلا أنهم لا يعرفونه مثلي، بعد قليل من الوقت صفع الباب ومن خلفه أقبل المحقق نبيل يتبعه رائد بهيئة لا تكون له، يبدو كمن تأكلته السنون، واهناً، خاضعاً، مذعوراً، حملت عيناه الحزن، الصدمة كما التكذيب لما يحدث، ما أن وقعت عيناه علي، حتى لمع الدمع في عينيه إلا أنه لم يدعه يتهاوى فلقد أشاح بنظره بعيداً عني متجهاً صوب أحد الكراسي جاذباً إياه عبر الأرض ليعلو صوت احتكاكه في الأرجاء.

نظرت صوب نبيل الذي لم يبد أي ردة فعل لهذا الإزعاج، ليقشعر بدني تطلعاً للمتعة القادمة مع هذا المخلوق، ما أن أصبح رائد بعيداً عن عيني وخلف ظهري توقف صوت الاحتكاك لأسمع صوت جسده الهش يتخذ موضعه على الكرسي، عمل ذكي، لقد أبعدوه عن ناظري حتى لا أجد طريقي لعقله فلا أعلم ما يصيبه من اعترافاتي أو ألاعيبي.

ـ والآن لنبدأ يا صاغر

ـ حسناً، من أين تريدني أن أبدأ؟

ـ أخبرني عن مواقع الجثث الأخرى.

ـ ما زال الوقت مبكراً على هذا أيها المحقق نبيل، دعنا نتعارف أولاً، فلا أبوح بأسراري للغرباء.

تبسمت بطريقة بريئة، إلا أنه لم يغير من معالمه أبداً وظل كما هو لم يبد أي ردة فعل على كلماتي،هو مهيأ كليّاً لي، آه يا لها من متعة خالصة!

ـ لسنا هنا لخوض حديث ودي أو إتمام معرفتنا بعضنا ببعض، فأنت متهم بالقتل، نحمل سيفك في موقع الجريمة كدليل على فعلتك، وبهذا تم الحكم عليك مسبقاً، أنا هنا فقط للحصول على اعترافات موثّقة .

ـإن كان هذا ما ترجوه فلك ذلك، أنا صاغر عمادي، سياف جدة قمت بقتل زوجتي، ابني، أبي أسامة عمادي، أبنائه الذين هم إخوتي، بعض الخدم هذا بالإضافة لثلاثة عشر شخصاً آخر، فعلت فعلتي هذه بكامل قواي العقلية، دون أي تهديد أو ضغوطات، أهذا يكفيك كاعتراف محقق نبيل؟

بالرغم من رباطة جأشه إلا أن شيئاً في عينيه تغيّر كما لو أن قليلاً من الذعر الممزوج باشمئزاز قد أصاب كيانه.
ـما الذي ترجوه من اعتراف سريع كهذا؟ أتعتقد أنك ستمنح تخفيفاً للعقوبة لحسن تعاونك؟

ـهيا أيها المحقق نبيل، كلانا يعلم أني أذكى من ذلك، أنا فقط أرغب ببعض المرح قبيل قتلي، هذا كل ما في الأمر.

ـمرح؟ أتعريفك للمرح هو قتل سبعة أشخاص في غضون سويعات؟

ـأجل هي متعتي ونشوتي الخالصة.

ـلماذا يا صاغر تتصرف هكذا؟ هذا ليس أنت، هذا ليس صاغر الذي أعرفه، صديقي الذي أحب أسرته جداً، كان برّاً بوالدته للنخاع، لا بد من وجود خطأ ما، لا بد أنه تم تهديدك والضغط عليك لترتكب هذه المجزرة المروعة، كل حرف يخرج من فمك، كل إيماءاتك كما نظراتك لا تمت لك بصلة، فأخبرنا الحقيقة، بل أخبرني أنا، ما الذي حدث؟ أيهما هو صاغر الحقيقي، أيهما هو صديقي؟!

تعالى صوت رائد الذي وقف أمامي يضرب يداً على الطاولة فيما حملني من قميصي بيده الأخرى، نظرت إليه في بهجة تدفقت لروحي ومن حيث لا أعلم انفجرت ضحكاً من سخطه، رجائه لي كي أُكذّب ما يعلمه يقيناً، بل ما سمعني أعترف به منذ لحظات، أي فؤاد ساذج يملك ليصدق صلاح البشر بعد كل ما مر به في وظيفته كشرطي، بالرغم من كل ما شهد وسمع، حتى حين غرّدتُ اعترافي لحناً عذباً ما زال يؤمن بصلاحي، أبعده نبيل عني آمراً أن يعود لمقعده أو يرحل، فيما تحدثت من بين ضحكاتي مهدداً:

ـ أخرجه ولن تتمكن من استخراج كلمة واحدة من ثغري، دعه هنا فهذا ما أبحث عنه، سذاجة بلهاء تصدق نُبل الأرواح البشرية كما براءتها.

ـ أهذا ممتع لك؟

ـ أجل أيها المحقق هو كذلك، ومكافأة لهذه المتعة التي قدمتها لي رائد، دعني أمنحك معلومة، بل لنقل اثنتين، أتعتقد أني كنت بارّاً بأمي؟ لا لم أكن كذلك، لقد خشيتها حد الموت، هي عذابي ووصبي، موتي وأغلالي، هي كل بغضائي، جلادتي يوم ولدت وحتى يسقط حد السيف على عنقي. أما الأمر الآخر فلقد أخبرتكم إياه عدا أنكم لم تسمعوني جيداً، لقد أخبرتكم أني قتلت أبي أسامة، ألا تقول سجلاتكم إنه أخي؟

شهدت الفاجعة في أعينهما، حتى نبيل لم يتمكن من السيطرة على ذاته، ابتعد رائد حيث لا أراه خلفي، فيما أعاد المحقق أخذ موضعه على الكرسي:

ـ حدثني عن هذا صاغر.

ـ ليس حتى تمنحني سيجارة.

اليوم الأول:

ـ كانت والدتي امرأة ليل فاجرة، استدعت الرجال لمنزلنا كل ليلة، وجعلتني أعلق الملاءات البيضاء إعلاناً لفتحها ساقيها للذكور، بدأت بفعل ذلك منذ كنت في السادسة من عمري، لِنقُل إني كنت قوّاد أمي منذ صغري، أليس هذا ممتعاً؟ رأيت قذارتها كلها، شهدت رقصها بين أحضان الذكور، اشتممت السهك يتنشر من حجرتها مرتحلاً بالمنزل.

ـ ألهذا دخلت في نوبة قتل؟

ـ لا تتعجل الأمور أيها المحقق، ولا تسلبني متعتي، فما زلنا في اليوم الأول.

ـ ألا بد أن يكون هنالك متعة في كل ما تفعله؟

ـ لم أعلم ما هي المتعة إلا مؤخراً لذلك أطمع بها.

ـأجب على السؤال الأول، صاغر.

ـأيها المحقق، لو أن هذا هو السبب الذي جعلني أدخل في بطشة قتل لفعلت ذلك منذ زمن بعيد جداً، لأزهقت حياة كل رجل دخل ذلك المنزل.

ـإذاً لماذا؟

ـلنأخذ وقتنا للتعارف أيها المحقق.

اليوم الرابع:

ـلقد مضت ثلاثة أيام يا صاغر كل ما تفعله هو قص الماضي علي، أخبرني عن أماكن الجثث الأخرى.

ـليس بعد أيها المحقق فتعاستي طويلة.

ـأترغب الشفقة؟ إيجاد الأعذار لأفعالك؟

ـلا، بالتأكيد لا! فغايتي أمر آخر، وسأقصه عليك يوم أخبرك عن الجثث.

ـ وهذا هو اليوم الذي ستفعل.

ـ أتريد المراهنة؟

ـ بالرغم من عمل والدتك القذر والذي لا مبرر له، لكن لا بد وأنها حمتك من شرور الآخرين، أن تنشأ في بيئة كهذه وتخرج منها كالسياف الذي كنت عليه، لا بد أن هذا من دعمها لك، فلم كل هذه البغضاء لمن أحبتك؟

تعالى صدى ضحكاتي في الحجرة ومن خلفي شعرت تلقلق رائد على كرسيه، لألتفت صوبه قائلاً:

ـ هذا ما بدا عليه الأمر في نظرك أيضاً، أليس كذلك؟ الأم والابن المثاليان، الأرملة المكافحة في سبيل حياة ابنها.

ـ لا توجه الكلام له، بل لي صاغر.

أعدت نظري لـ نبيل بعد ما أخذت القليل من الثواني أتفحص رائد المتهاوي على ذاته والذي يتحاشى النظر لي، كمن يهرب من رؤية وحش قد ينقض عليه في أي لحظة، بل هو يهرب من جهله الذي غدر به.

ـ أول مرة تم الإمساك بي وأنا أتلصص عليها انتهى بمأساة، أتعلم أيها المحقق ما هو الشعور الذي يخالج الطفل حين يُغتصب؟ ذلك الألم المبرح، تلك الأنفاس الحارقة لم أنسَها ولن أنساها، والأَمَرُّ من هذا أن من عاونه على اغتصابي كان تلك الفاجرة التي غطت على فمي حتى لا أفضحها، ليس وكأنها كانت مستورة فكل الحي علم عن فجورها، بل هم تسامروا قاصين قصص لياليهم مع غالية.

اليوم التاسع:

ـ ما الفائدة من إخباري عن قتلك الهريرات صاغر؟ أهن أغلى من الأرواح التي أزهقتها؟

ـ لا حياة أو روحاً غالية كل شيء مجرد سبيل للوصول لتلك النشوة.

ـ أي نشوة؟

ـ القوة كما الجبروت، لهذا قتلت تلك الهريرات لأشعر بعظمتي وإن كانت واهنة فكما ترى آنذاك كنت مجرد واهن رعديد.

ـ ألهذا قتلت البشر من حولك صاغر؟ ألهذا أصبحت سيافاً؟

ـ ما زلت تبحث عن لماذا، ولا ترى كيف.

ـ كيف؟

ـ كيف أصبحت هكذا؟ كيف يمكن لإنسان يخشى ظله أن يمسي وحشاً مثلي يقتل بلا تردد، بل هو يستمتع به.

ـ إذاً، أنت تعي أنك وحش.

ـ بمفهومك الخاص للصواب والخطأ، أجل أنا وحش.

ـ وماذا عن مفهومك؟

ـ أنا جلاد، حققت عدالتي بيدي، العين بالعين والسن بالسن والجروح قِصاص، أليس هذا ما يذكره قرآنكم؟ ما ترددونه قبيل كل قِصاص أقوم به.

ـ أمكنك ترك الزمن ليقتص لك من والدتك، ترك العدالة تأخذ مجراها.

ـ أين هي العدالة؟ لو أن العدالة موجودة لما أقمنا الحد والقصاص، ولتركنا الزمن يعيد حقنا، لا تكن ساذجاً أيها المحقق، وإلا فسوف أَمَلُّ منك.

ـ أليست العدالة هي ما أحضرك إلينا؟

ـلا بل هي رغبتي، لقد تمكنت من تضليلكم والعدالة لما يزيد على عشرين عاماً حين أزهقت أول ضحاياي، وما كنتم لتعلموا بها لو لم أقدم ذاتي إليكم.

ـأتقول إنك رغبت بهذا؟ أن يتم الإمساك بك؟ هذا هو الغرور صاغر، أنت فقط أخطأت في حساب حركاتك لذلك أمسكنا بك.

ـلقد قررت اتباع شهوتي دون قيود أو شروط، علمت بيقين منقطع النظير أن هذه سوف تكون نهايتي، علمت يقيناً أن ما أفعله سوف يودي بي للتهلكة عدا أني اقترفت مجزرتي برضاً تام وقبول لقدري، لو لم أرغب بالإمساك بي لما أبقيت أحداً حيّاً، أو تخليت عن سيفي، لما ذهبت لذلك المنزل منتظراً قدومكم ولما نمت قرير العين دون خوف.

ـإن رغبت أن نمسك بك فلم لم تقدم ذاتك لنا؟ لم ارتكاب مجزرة؟

ـ رغبت أن ينتهي الأمر بشروطي.

ـ كما هذا الاستجواب يسري حسب شروطك.

تبسمت بخبث مستنشقاً سيجارتي.

اليوم الخامس عشر:

ـ منال الدماموي، كان اسم أول ضحية لي، اختطفتها من منزلها، أفقدتها الوعي ثم جررتها في ظلمات الصحراء، انتهكت براءتها كما عفتها، هتكت سترها ثم خنقتها بقبضتي حتى زفرت أنفاسها.

ـ لماذا هي؟

ـ هذه أول لماذا سأجيبك عنها، هي أول وآخر من أحب قلبي، هي أول قتل لي، وآخر ندم، لقد أخطأت حين حكمت عليها كمعشر النساء، هي لم تكن مثلهن، بل لم تكن مثلها.

ـ والدتك؟

ـ وهل من وحش غيرها؟

ـ أين دفنتها صاغر؟

ـ لن تجدها فلقد مرت سنون طوال، وبهذا سأنهي هذا الاستجواب حتى تنفذ شرطي التالي.

ـ ماذا الآن؟

ـ انشر خبراً عن إيجاد جثة منال في الصحراء عن كيفية موتها، أظهر براءتها للعالم ولكل لسان تحدث بالسوء عنها، لتُخلّد شهيدة الذكور.

ـ لن أعلن عن نتائج جريمة قيد التحقيق.

ـ جدة كلها تعلم عن مجزرة بيت العمادي، وليس عليك ربط الجريمتين معاً، فلا أبحث عن مجد في قتل منال، بل رغبة مني لأصون ذكراها؟

ـ تصون ذكراها؟ بعد ما فتكت بها، أي جنون هو هذا؟

ـ أليس الحب جنوناً؟

ـ أنت لم تحبها، بل اشتهيتها فقط.

ـ لا تدنس ذكراها أيها المحقق، ولا حبي لها، فكما قلت لقد كانت زلة من قبلي.

ـ أتسمي اختطاف، اغتصاب، قتل، ودفن فتاة زلة؟ فماذا يكون سبق الإصرار والترصد بالنسبة لك؟ أين هي حدودك؟

ـ ما زلت متعجلاً أيها المفتش، لا تقلق فوحشيتي لا حدود لها وهذه جريمة من بين ثلاث عشرة، ما زال أمامنا اثنتا عشرة أخرى أُمتِّعُك بها، استدعني حين يذاع الخبر، وأحضر معك مئة نسخة من الصحيفة لأتحقق من صدق فعلك.

اليوم العشرون:

ـ وجِد أسامة كإثبات لرجولتي، لأثبت للعالم كما تلك المرأة أني رجل، بالرغم من أنه لم يُصنع من حب إلا أنه كان محبوباً بطريقة ما، لقد تلقى الحب من والدتي، حتى وإن كان نابعاً من استغلال، بالتفكير بالأمر هي لم تحبه حقّاً فقط وجدت به غاية رغباتها، لقد أحبته والدته أيضاً.

ـ ماذا عنك؟ لماذا لم تحبه؟

ـ ما زلت تسأل لماذا؟

ـ أهنالك سؤال غيره؟

ـ كيف.

ـ إذاً اطرح السؤال وأجب عليه.

ـ كيف سولت لي نفسي قتله؟

ـ ألأنك لم تحببه؟

ـ لطالما كنت صادقاً في حديثي معك

ـ يا له من شرف

ـ لم أحببه في بادئ الأمر، لقد بغضته من كل كياني لكل ما حظي به وحُرّم علي، لكن في مرحلة ما وقبل أربع سنوات تقريباً شعرت بحبه داخلي.

ـ لم أعلم أن محبة الأبناء تحتاج كل هذا الوقت والمشقة، لكن دفاعاً عنك، لا بد أن الوحوش مثلك لديهم إطارات زمنية مختلفة عنا. والآن أجب، ما دمت تحبه فلم قتلته؟

ـ ألديك أبناء؟

ـ هذا لا يعنيك.

ـ أتعتقد أني سأهرب من السجن لقتلهم؟

لم يجب أو يتقلقل حتى نظر لي دونما اهتمام لأردف:

ـ لا تقلق أيها المحقق فلقد انتهيت من القتل، وما قتلت إلا قِصاصاً ولا قِصاص لي معك.

ـ نعم لدي أبناء.

ـ أترى فيهم ذاتك؟

ـ من هذا وذلك.

ـ إذاً أنت تعلم ما أقصده.

ـ لم ترغب أن يمسي ابنك وحشاً مثلك.

ـ لا، لم أرغب له أن يذوق الضيم من بعدي، فهذه رحمتي به.

ـ رحمة؟ أعتقد أنه يوجد تعريف مختلف للرحمة عن تلك التي نعرفها.

ـ هي ما حُرِّمت علي، فسرقتها من القدر مقدماً إياها لـ أسامة. وكما أخبرتك أنا لست بوحش أنا جلّاد فحسب.

اليوم الخامس والعشرون:

ـ لماذا ذهبت لمقابلة أسامة عمادي في منزله وقد كنت قد رفضت كل دعواته؟

أملت رأسي للخلف لأسترق نظرة على رائد الذي بات روحاً خاوية، فلا شيء مما أقوله يوقع على فؤاده الذي تحجر من واقع الشخص الذي كان صديقه، لأتبسم قائلاً:

ـ استشرت صديقاً بهذا الشأن.

بطرف عيني رأيته يرتعد والخوف يعشش في جسده وعينيه ناظراً إليّ بذعر، انفلجت ابتسامتي لأردف:

ـ أتذكر رائد؟ لقد أخبرتني أن أقابله حتى أجد السلام الذي أصبو إليه. وحين فعلت علمت أنه والدي، تلك الفاجرة فسقت مع ابن زوجها لأكون أنا النتيجة، أتعتقد أنها كانت تصارع الحياة من أجل ابنها؟ تعاني الذل من أجلي؟ لقد صفعتني بهذه الكلمات كيفما شاءت، لأجد أنها داعرة من قبلي ومن بعدي، أتعلم كيف كانت مشاعري من ذاتي حين ألصقت بي نجاستها وفجورها؟ لقد لحفتني بها، ظلت تستخدمي كذريعة لشناعتها، لقد مَقَتُّ ذاتي ووجودي الذي تسبب بتعاستها، لعنت اليوم الذي ولدت فيه لأني حكمت عليها بعيشة مليئة بالضنك، لهذا تحملت سوءها وضيم العيش معها.

بل أنا غفرت لها كل ما فعلته ولم أسمح لذاتي أن أبغضها حتى، مهما افتعلت بي مهما مررت به من سوء صنعها لم أجد فيّ القدرة على بغضائها لذلك وجهت كل هذه البغضاء صوب ذاتي أجلدها مراراً وتكراراً، أظل متعلقاً بذرة أمل أن تمنحني الحب الذي تصرح به صوبي يوماً ما، إلا أنها لم تفعل، غلفت وجودي بأغلال الخوف التي عقدت بقوة حولي حتى أنها حرثت جسدي مستقرة به، حين علمت حقيقتها، واستغلالها لي من أجل أن أكون شماعة فجورها، رأيت وجهها الحقيقي مُحرقًا تلك الغلال لهشيم وكل ما بي تأصل بسببها.

أخذت أنفاساً طويلة، باسطاً ما أقدر من ذراعيّ المكبلتين من الساعدين، فارداً عن صدري، لأميل من عنقي قليلاً ناظراً لرائد بطرف عيني متبسماً:

ـ شكراً لك رائد على النصيحة، بفضلك علمت الحقيقة التي كنت أُنكرها، وبها تحررت لما أنا عليه اليوم، قتلت من قتلت بفضل مشورتك وفؤادك الساذج، حين علمت الحقيقة انصهرت أغلالي وتلاشت مخاوفي لأمسي ذاتي الحقيقية بلا دثار أو رادع، فشكراً لتحرير الوحش وتحريري.

انتفض رائد في مكانه بضع مرات ثم هوى على ركبتيه يتقيأ صارخاً لاهثاً، لتتعالى ضحكاتي الساخرة، فيما هرع نبيل صوب رائد يرفعه من الأرض ولخارج الحجرة وبآخر ما أبصره نظري هتفت بمرح:

ـ أيها المحقق لا داعِيَ لإحضاره غداً، فلنكن نحن الاثنان فقط، فلقد ابتدأ الجد الآن.

اليوم السادس والعشرون:

ـ ما غايتك مما فعلت بالنقيب رائد؟

ـ للمتعة فقط.

ـ أنت مختل

ـ ألم يسبق وأكدنا على هذا؟

ـ لقد كان صديقك

ـ لا لم يكن كذلك.

ـ لم تعتقد هذا؟

ـ لا أصدقاء في هذا الكون فالصداقة وهم، الرابط الأسري لجام يحرقنا حتى نفنى، كل شيء مبني على المصالح فقط.

ـ وما مصلحته في صداقتك؟ ومصلحتك فيما فعلت؟

ـ أراد أن يشعر أنه شخص جيد، يصادق سيافاً يهابه الجميع، محاولاً إظهاري بمظهر جيد للغير، ليس أني أبالي بما يعتقده الناس عني.

ـ أنت صريح في إظهار مدى استحقارك للناس وبخسك للروح البشرية

ـ لم أكُ ثمين أحد، فَلِمَ يكون أحدٌ ثميناً لدي؟

ـ ألا تملك قدسية للحياة أو الإنسان؟

ـ ولا للأموات حتى.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أتعلم تلك الجثة التي وجدتموها معي؟

ـ ماذا بشأنها؟

اتكأت على الطاولة التي تفصل بيننا مقرباً ذاتي منه هامساً كما لو كان سرّاً مضحكاً:

ـ هي جثة والدتي.

ابتعد عني قليلاً خافضاً ذراعيه عن الطاولة مخفياً إياهما في حضنه، إلا أنه تمالك تعابير وجهه غير المُتغيرة.

ـ أترغب ببعض الوقت لتتمالك ذاتك؟

قلت ساخراً، إلا أنه أعاد وضع يده على الطاولة متكئاً عليها هو الآخر ليجاريني في وضعيتي ناظراً لي بحزم كما لو كنا في حرب أنداد لا مثيل لها .

ـ لم؟

ـ الدفن كرامة لا تستحقها، رحمة أُحرمها عليها، لتكون شاهدةً على انتقامي.

ـ ما هو انتقامك من جثة؟

ـ ألن تسأل من يوجد في القبر؟

ـ أهو الضحية الثانية؟

ـ هو حارس المقابر، هويت عليه بالمجراف لأمزق شريانه نازفاً حتى الموت، ثم ألقيته مثل القاذورات في قبرها مرتحلاً بعيداً عنه.

ـ ما ذنبه في كل هذا؟

ـ الجميع مذنبون بطريقة ما، لعله آذى أحدهم أو تسبب بالألم لمخلوق ما.

ـ وهذه عدالتك؟

ـ أجل

ـ لذنبٍ لا تعلم ما يكون، لعله لا يستحق الموت.

ـ لقد طالب الموت به وأنا لَبّيْتُ.

اليوم السابع والعشرون:

ـ يبدو عليك التعب

ـ ومن لا يصيبه الإنهاك وهو يسمع كل هذا الموت؟

ـ لا تقلق شارفنا على الانتهاء، ولكن ليس اليوم.

ـ لتقصر صاغر.

ـ يبدو أنك لا تستمتع بالحديث معي.

ـ أعلي أن أستمتع بوحشيتك؟ أم أنبهر بفلسفتك الخالية من الإنسانية؟

ـ وما هي الإنسانية؟

ـ لا أرغب بالجدال معك

ـ إنها قيود وضعت للصواب والخطأ، ضمير أحمق يكبح صاحبه.

ـ لولا الضمير لما بقي على الأرض من خير، لولا القيود لما ازدهرنا.

ـ هذه القيود هي ما كبحني ذات يوم وحين تحررت منها ازدهرت لما أنا عليه.

ـ ازدهرت لوحش.

ـ لجلاد لا يخشى معاقبة المُخطئ، أنت تتحدث عن الفضيلة، وهي لا تتعايش مع الفواحش، لقد رأيت الرذائل في البشر تلك التي نَعتبرُها غريزتنا إلا أنها ليست كذلك، الكذب للحصول على مرادنا، الترهيب للسيطرة، الفجور لتقييم الذات، قهر المستضعف لتذوق الجبروت، باتت هذه الأمور من طبيعتنا متأصلة بنا، أين الفضيلة في هذا؟ حين نزيل هذه القيود نرى الواقع فيعلم المُستضعف أنه لا بأس أن يرد الصفعة باثنتين، يعلم اليتيم أنه ليس مجرد صدقة جارية، يوقن المذعور أنه أقوى من أي خوف يكبله، علينا فقط أن ندع غرائزنا تقودنا ولنبطش بعضنا ببعض، ألم يقتل قابيل هابيل من أجل رغباته؟ فلم لا نفعل نحن أيضاً؟

ـ ليست الفضيلة بِرَد الصاع صاعين، بل حين نعلم أننا قادرون على إحداث الأذى، أن نوقن بطشنا وجبروتنا، إلا أننا نختار عدم الانصياع لهذه الرغبات والغرائز التي تسري فينا مجرى الدماء في العروق، الفضيلة هي السيطرة على الذات وكبحها.

ـ وأين هذا القوي الذي يكبح ذاته؟

ـ وحش مثلك لن يراهم أو يعرفهم، بالنسبة لك هم ضِعاف بائسون.

ـ بدأت أَمَلُّ منك نبيل.

ـ الأمر سيان لدي.

ـ إليك الضحية الثالثة، عثمان الدماموي، لم أقتله بيدي، عدا أنه مات في فاجعة حقيقة ما ارتكبته صوب ابنته، وهذه أيضاً رحمتي لمن انتظر طويلاً إجابة تروي عطشه، أليست هذه فضيلة؟

اليوم الثامن والعشرون:

ـ أهذا انتقامك؟

ـ ورحمتي.

ـ توقف عن قول رحمة، أي رحمة هي تلك التي تجعلك تزهق حياة رضيع؟ وليس واحداً، بل خمسة! ألم يكفك قتل النساء فقط؟

ـ وأي حياة كان ليحياها الأطفال؟ يحملون لقب خطيئة، نجس قمامة المجتمع، ما ذنبهم ليعانوا جلدات الحياة وسوء البشر؟

ـ ومن أنت لتقرر الرحمة؟ لتوزع رحمتك كيفما شئت، تفسرها وتحللها كما هواك؟ أي رحمة هي تلك التي تحرم الإنسان حق العيش، فرصة لحياة قد تكون مختلفة عن التي ترسمها في ذهنك المريض.

ـ ألم تتشبع من شرور البشر أيها المحقق؟ ألم يعد بإمكانك التنبؤ بما قد يقترفه البشر في الظروف المتكررة؟ أنا أحد نتائج الظروف، هي ذاتها التي سوف يعيشها هؤلاء اللقطاء، انعدام الحب يولد وحشاً مثلي، صفعات الحياة تنتج جلاداً يحمل سيف العدل في قبضته، أخبرني الآن كم مرة ألقيت القبض على قاتل قتل أخاه الأغنى منه؟ كم مرة أقمنا القصاص على تعصب قبلي بين القبائل؟ ما هي نتيجة ترعرع أخوين أحدهما يتلقى الحب والآخر الهوان والذل؟ أخبرني أيها المحقق أليست كل الجرائم والفظائع متشابهة عندما تتشابه الظروف؟ هؤلاء الرضع حكم عليهم بالضيم في اللحظة التي تم وضعهم فيها على الأرض بين القمامة، قدمت لهم رحمة ما كانوا ليحظوا بها أبداً.

نهض المحقق خائر القوى من أمامي

ـ وهؤلاء هم ثلاثة عشر، كل ضحاياك الذين فتكت بهم، بهذا انتهى التحقيق كما حواراتنا، حصلت على اعترافاتك وإفادتك كاملة، لن يطول نطق الحكم عليك صاغر.

ـ ألا ترغب أن تعلم ما كنت أصبو إليه بهذه المحادثة الطويلة؟

ـ لا

ـ لن تنساني يوماً أيها المحقق، وهذه الحوارات ستظل معششة في رأسك للأبد، سوف تذكرها مع كل شرور تقابلك، لتتساءل ما المغزى، بهذا اكتفيت، لقد نظرت لعينَيْ ضحيتي عند الموت، ولهو شعور جميل لا مثيل له.

ـ لست ضحيتك.

ـ سنرى بشأن ذلك.

ـ لا غد لك لترى هذا.

ـ عدا أنه يوجد غد لي ما دمت أحيا في رأسك.

ـ سوف أنساك ما أن أخرج من هنا.

ـ أراك في القصاص أيها المحقق.

صفع الباب خلفي بقوة وعم الصمت الأرجاء، أخيراً بعض الهدوء.

-٢٦-

تم اقتيادي مكبلاً لساحة القِصاص، تجمهر البشر يشاهدون الجاني الذي ارتكب مجزرة، السياف السفاح، الجميع يرتعدون خوفاً من الوحش المسعور الذي قد يَنقَضّ عليهم في أي لحظة، يتهامسون من خلف رجال الأمن الذين طوقوا المنطقة، لقد شهدت هذا المشهد مرات لا تحصى، لقد كنت في الطرف الآخر كل مرة، الآن أنا حيث يتحتم عليّ أن أكون، في الحد الآخر من السيف. جلت بعيني يمنة ويسرة أبحث عنه، لكني لا أجده، لست أجد المحقق نبيل في هذه الأوجه، لم ليس هنا؟

لقد صنعته ضحيتي، زرعت بذرتي وشروري به حتى يصاب بالهوس، عليه أن يكون هنا ليشهد العدالة، ليرى صورتها الحقيقية، أن يُمسي هو عدالة أخرى، فلم ليس هنا؟

تسلل الرعب بين دمائي، هو يستحكِمُ بي، لأجد قدميّ ترتعدان غير قادر على الحراك، أكاد أهوي، إلا أن أيدي رجال الأمن أمسكت بي بإحكام تجر قدمي خلفي، كالمجنون ألتفت مجدداً لا بد وأنه هنا! لا يمكن أن أكون قد فشلت، لا يمكن أن أمسي ضحية أخرى، عليّ أن أُذكر، لا يمكن لحياتي كما موتي أن يكونا هباءً، تم إرغامي على الجثو على الحصيرة لأنهض منها هائجاً أصرخ:

ـ أين أنت يا نبيل؟ لا بد وأنك هنا، لا بد أن تكون هنا، لتشهد العدالة، لا تختبئ وأظهر ذاتك، راقب فيمَ تحقق العدالة، راقب القِصاص، لا تجعل موتي هباء!

تدافع رجال الأمن عليّ ملقين بي على وجهي ثم جارِّين بدني صوب الحصير، فيما ظللت أصرخ طالباً أن أُذكر.

ـ نبيل هنالك المزيد من الضحايا، المزيد من الجثث، ألا ترغب في أن تجد الخاتمة لهم ولعوائلهم؟ تعال وحررني، جد الأموات، لقد قضيت على المزيد منهم، على نساء على شاكلتها، نبي....

عقد فمي بكمامة أخرستني، ووضع القماش الأسود على رأسي، ليغشاني الظلام، ومن هنا تفرع الذعر كله متمكناً مني، أهذا ما كنت أصبو إليه؟ لِم اعتقدت أن رعديداً مثلي قوي على الموت؟ لا أرغب الفناء، لا تسلبوا حياتي، سأقضي عمري أعتذر عن ذنوبي، سأبقى أسيراً بين القضبان، أي شيء إلا الموت، أرجوكم ليتقدم أحد من أهل الدم ويعفُ عني، لتأخذكم بي رحمة...

ـ أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

ـ لا أجدها بين حروفي، لم لا أقوى على قولها؟

ـ أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

لقد كررتها مئات المرات على المذنبين فلمَ لا أقوى على قولها الآن؟ ألأني لم أقلها من فؤادي قبلاً؟

ـ أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

أنا لا أسمعها، لا يتردد صداها في أذني، السيف سوف يهوي الآن، هو سيسلبني حياتي، لننطقها مرة أخيرة علّ الرحمة تتغمدُنِي، لم الوقت بطيء؟ السيف يهوي بالتأكيد، أنا أشعر بالهواء المندفع عبره صوب عنقي، فلم لم يصل بعد؟ أهذا ما يشعر به كل من يواجه حد السيف؟ هذا الرعب يفترسني، لم كل هذا الذعر؟ ألأني لست ببريء؟ فالرعب لا يفترس الأبرياء، لم التلكؤ؟ أين حد السيف لا يطالني بعد؟ أهي العدالة التي تُبقِي عليّ مُطيلة عذابي؟

أين العدالة في هذا الكون؟ لا وجود لها، أين هي تَقْتَص لي؟

أين هي تُنكل ويلاتها على ذلك الفاسق؟ قد جحد وجودي بعد فسوقه معها، سارقاً مني الحياة وأمانها، أتلقى سوء العيش بين جدران متهالكة، تركلني الأقدام بين ظلال زقاق همس لي وحدتي وهواني.

أين العدالة تهوي بصفعاتها عليها؟ أين هي تلقي في فؤادها الرعب الذي غمرتني به؟ تلحن ليلها أنين وصبٍ يؤرقها حد الجنون؟ أين أكبالها وأغلالها تمزق روحها؟ أين هي العدالة في هذا الكون؟ إنها عبدةٌ مملوكة للأقوى، وما أنا إلا صاغِرٌ ذليل، الآن أخفض رأسي خاضعاً لكِ، أُسلم عنقي لَظُلمِ العدالة، وليهوِ نصلها صوب روحي، آه كم نَصْلُكِ بارد!

تم بحمدالله

Elena book
مكتبة إيلينا
https://t.me/osn_osn